

سلسلة الدراسات الأدبية

الدكتور أحمد ضيف

بلاغة الحرب في الأنكلس



دار المعارف للطباعة والنشر - سوسة - تونس

00117024



بلاغته العرب في الأندلس

الدكتور أحمد ضيف

بلاغته العرب في الأندلس



دار المعارف للطباعة والنشر
سوسة - تونس

الطبعة الأولى 1924

الطبعة الثانية 1998

العدد المسند من طرف الناشر 98/691

تدمك: 9 - 565 - 16 - ISBN 9973

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تمهيد

كانوا ولا يزالون يعتبرون الأدب ضرباً من الفكاهة والتسلية. ويريدون بالأدب نادرة ظريفة ، أو عبارة طريفة ، أو حكمة بليغة ، أو بيت شعر يملك النفس ، ويسحر اللب بتركيبه البليغ وألفاظه الفصيحة . ويقولون فلان أديب : لأنه كثير النادرة ، حاضر الذاكرة ، واسع الاطلاع ، أنيس الجليس ، عذب الحديث ، حافظ راوية . ويقولون هذا كتاب أدب : لأنه جامع لكثير من مسائل اللغة وقواعدها ، والشعر وأنواعه ، والنوادر الخاصة والعامة ، وتواريخ الملوك والأمم . ويقولون فلان كاتب : لأنه طلى العبارة ، عارف باختيار الالفاظ ، عالم بكثير من المترادفات ، تنقاد اليه البلاغة انقيادا ، فيصور الحق باطلا ، ويجعل الباطل حقاً . ولكن الادب نتاج العقول والقرايح البشرية ، وقوة الفكر والادراك الانساني التي تنفتق بها السنة الشعراء ، وتسيل بها أقلام الكتاب ، فيفيضون على العالم من أحوال الاجتماع وصورده ، وأسرار النفوس وخفايا الوجود ما يملأ النفس عظمة واعجاباً ، بصحيح الآراء وجمال الافتنان ، ويمتازون عن العامة من الكتاب والمفسكرين بدقة الادراك ، وتصوير المعاني النفسية والاجتماعية تصويراً يقرب من أن يكون مدركاً بالحواس .

ان البلاغة - أو الادب كما يقولون - هي خلاصة كد العقول والافهام ، وثمرة هذا الاضطراب الفكري الذي مابرح دليلاً على قوة الادراك وحياة النفوس العاقلة . والغرض من الكتابة البليغة أن يجعل الكاتب أو الشاعر الالفاظ وسيلة من وسائل التعبير عن لحظة من لحظات الحياة لا يكتفى أن يدركها عقله ادراكاً

ثم يتركها تمر ولا تعود ، ولكنه يحرص عليها ويحيطها بمبارات تكشف عن أسرارها وتبين حقيقتها . قال أحد كبار نقاد الادب « ليست الحياة الآن لهواً أو لعباً ، ولكنها نوع من المسابقة والمباراة . ذلك الى أننا جميعاً مضطرون الى ابداء آرائنا في الدين والفلسفة والسياسة والفنون والاجتماع . اذ على كل واحد منا أن يكون مخترعاً أو آخذاً طريق غيره . والاختراع صعب المنال ، والتقليد مخجل مؤلم . ليست الحياة دار مسامرة ، ولكنها معمل فكر وجد . أظن ان معملاً كيميائياً يكون من دواعي السرور ؟ أو ان ميدان مسابقة يكون من أسباب الراحة ؟ لقد نكون فيه الوجوه مقطبة ، والعيون متعبة ، والجهة في حيرة والحدود متاحة ¹ »

والحق أن حركات العقول والادراك ليس لها أن تظهر إلا على أقلام الكتاب وألسنة الشعراء . ليس الأدب من دواعي اللهو ، وانما هو من دواعي الإعجاب والعبرة . أما العبرة فلما به من آراء الكتاب والشعراء المحتوية على كثير من صور الانسان وحالات الاجتماع . وأما الجمال فهو من أخص لوازم الادب ، لانه من فنونه ، ولان الكتابة لا تدخل في باب الادب أو البلاغة حتى تملك الحواس وتأسر العقول بما فيها من جمال التعبير وحسن الاسلوب والافتنان في العبارة ، وحتى يكون صاحبها من أصحاب المواهب الفنية ، والملاحظات الدقيقة ، والابداع المطلق .

بهذا يمكن أن يكون الادب شيئاً من جمال الحياة وأثراً من آثار العقول ، ومعرضاً لصور النفوس والادراك الانساني ، وفناً من فنون الجمال ، ودليلاً على الحياة العقلية . فهو أكثر الاشياء انتشاراً في الحياة ومن ألصق الاشياء بالاجتماع . لانه كل هذه الأحاديث التي في المجالس الخاصة والعامة ، والمسامرات من جد وهزل وأسرار الناس وخفايا ما يمر بين الرجل وأهله وولده وصديقه ، وما يتحدث به عن نفسه ، وما يحادثه به ضميره ، وما يمر بذكرياته ، وما يوقظ منه حب الاستطلاع . فليس أدل على الحياة من الأدب .

قد تستغنى بعض الامم عن سماع الموسيقى ، وربما لا تدرك جمال التصوير .

(1). Voir St Beuve, Causerie de lundi T. 13. P. 250

ولكن أمة من الأمم لا تعيش بدون أن تعبر عن إدراكها ، ولا بغير أن تبت عواطفها واحساساتها ، ولا من غير أن تتغنى بآلامها واحزانها وحظها من الحياة أو آرائها في الوجود

يجب أن يفهم جمهور الناس أن الغرض من قراءة قصيدة بليغة أو قصة أنيقة هو ادراك معانيها النفسية والاجتماعية . ويجب مع هذا أن يسلك كاتبنا وشعراؤنا طريقاً غير هذا الطريق الذي سارت فيه آدابنا زمناً طويلاً فلم تتقدم خطوة واحدة ، ولم تسلك مسلكاً نافعاً ، ولم تفد الاجتماع شيئاً كثيراً ، يجب على شعرائنا وكاتبنا طرق الموضوعات الاجتماعية العامة لنقدها في كتاباتهم ، والعمل على اصلاحها ، وإرشاد الناس الى طريق الخير . وذلك لا يكون الا بكتابة القصص الاجتماعية ، والخروج من هذه الصبغة الشخصية الوجدانية ، التي لا يرى القارىء فيها غير نفس الكاتب أو الشاعر ، وقد تكون نفساً مريضة مملوءة بالخطأ والنظر القاصر .

ان أسلوب القصائد المعروف عندنا لم يعد صالحاً لحالتنا الاجتماعية ، ولا لنفوسنا التي تهذب بشئ من العلم الصحيح ، والنظر في حياة الأمم المختلفة . هذه النفوس لا تطمئن الآن الى قراءة قصيدة ليس فيها غير الوزن المرقص والقافية المنسقة . لانه لا يطربها هذا الصوت القديم ، ولا تلك الحكم البالية المحفوظة التي ذهبت بجذتها اللسان لكثرة مرورها على الأفواه والأذهان .

ان الواجب على أصحاب البيان وذوى اللسان أن يشتغلوا بوصف الاجتماع وتصوير النفوس ، وأن يتركوا ضخامة اللفظ وعذوبة المعنى كما يقولون . وأنواع البديع ، ويعلموا أن الحياة جد لا هزل ، وأن الناس أخرج الى ملاحظاتهم النفسية والاجتماعية منهم الى العبث بالألفاظ والبراعة في التشبيه .

هذا ما ندعو اليه ويدعو اليه كل عامل على ترقية اللغة العربية وآدابها . ويجب مع هذا أيضاً أن يعنى المؤلفون والادباء ببيان ما في بلاغة العرب ، من نثر ونظم وما في ذلك من الافكار العامة والمسائل الاجتماعية التي لا تخلو من معرقها الشعراء

والكتاب، والتي هي نتائج العقول والقرائح وسبب حياة الأدب وبلاغات الامم. وهذا ما حاولناه في الكلام على بلاغة العرب في الاندلس في هذا الكتاب كان لعرب الاندلس أدب رائع، وشعر بليغ، ونثر بديع، وسعة في الخيال، وقدرة على الابتكار. وكانت دولة الادب هناك في عز مجدها وأزهى عصورها، وساحاته غاصة بالشعراء والكتاب في كل فن من فنون البيان، أو مذهب من مذاهب البلاغة. « من عجائب علمهم وغرائب نظمهم ونثرهم مما هو أحلى من مناجاة الأحبة بين التمتع والرقبة، وأشهى من معاطاة العقار، على نغمات المزاهر والاولاتر لأن رؤساء هذه الجزيرة كانوا رؤساء خطابة، ورؤوس شعر وكتابة. ترققوا فأنسوا البحر واسترقوا فأدركوا الشمس بالبدر. وذهب كلامهم بين رقة الهواء وجزالة الصخرة الصماء^١ »

« فالاندلس عراق المغرب عزة انساب ورقة آداب واشتغالا بفنون العلم وافتنانا في المنثور والمنظوم، لم تضيق لهم في ذلك ساحة، ولا قصرت عنه راحة... وهم أشعر الناس فيها كثرة الله في بلادهم وجعله نصب أعينهم، من الاشجار والانهار والاطيار، لا ينازعهم أحد في هذا الشأن... وأما اذا هب نسيم. ودار كاس في كف طيبي رخييم. وصفق للماء خريير. أو راقت العشيّة وخلفت السحب إرادها الفضية والذهبية. أو تبسم عن شعاع نغر نهر، أو ترقق بطلّ جفن زهر. أو خفق بارق. أو وصل طيف طارق. أو وعد حبيب فزار من الظلماء تحت جناح، وبات مع من بهوى كالماء والراح... فؤلئك هم السابقون الذين لا يجارون ولا يلحقون. وليسوا مقصرين بالوصف اذا تقفّع السلاح، وسالت خلجان الصوارم بين خلجان الرماح. وبنت الحرب من العجاج سماء. واطلعت شبه النجوم اسنة واجرت شبه الشفق دماء... وقد أعاتهم على الشعر أنسابهم العربية. وبقاعهم النضرة وهمهم الابية... الخ^٢ »

(١) راجع خطبة ابن بسام في الجزء الاول من الذخيرة

(٢) راجع نفع الطيب طبع أوروبا جزء ٢ صفحة ١٠٧

فكان لهؤلاء الكتاب والشعراء أثر عظيم في اللغة العربية وآدابها، ولا سيما ما ابتكروه من أنواع المعاني والخيال في النظم والنثر لذلك رأينا أن نذكر هنا شيئاً من هذا . وبدأنا كلامنا بفصول موجزة عن تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، حتى لا يحرم من لا يريد أن يكلف نفسه الاطلاع على ذلك من أن يستفيد من هذا الإيجاز ولكننا لم نقصد من هذا الكتاب أن يكون تاريخاً جامعاً لأدب العرب وبلاغتهم في الأندلس، ذلك لم يكن من غرضنا الآن . وإنما أردنا أن نجتمع طائفة قليلة من الشعراء والكتاب المعروفين هناك، ونورد شيئاً من منظومهم ومنثورهم ونتكلم عما لهم من الآثار الفنية في شعرهم ونثرهم، لنفتح على طلاب الأدب وتلاميذ المدارس باباً من أبواب الفهم والبحث في بلاغة العرب . فإذا وفقنا الله إلى العودة في هذا الموضوع كانت لنا جولة أوسع من هذه . والله المسئول أن يرشدنا إلى الصواب .

القاهرة في ذي القعدة سنة ١٣٤٢ الموافق شهر يونيو سنة ١٩٢٤

محمد ضيف

العرب في الأندلس

ظهر الاسلام في العرب فانتشروا في الأرض وأوغلوا في الفتح واختراق الآفاق، وانسابوا في البلاد وانساب عليهم الظفر والغنائم . قوجدوا في ذلك مطعماً لهم ، وسعة لدوتهم ، وعونا لدينهم ، وعزاً لمجدهم . ففتحوا في نحو ثلاثة قرون ما لم تصل اليه أكبر دولة في العالم .

وقد خرج العرب من بلادهم الى مصر فالقيروان فبلاد البربر فالاندلس . فأسسوا هناك دولة واسعة الارحاء ، كانت أعظم دولة أقامها العرب ، وأنغر مدينة جاء بها الاسلام . توغل المسلمون في افريقية سنة ٥٠ من الهجرة في خلافة معاوية ابن أبي سفيان ، بقيادة عقبة بن نافع الذي أسس مدينة القيروان . وانتشروا في بلاد البربر شمال افريقية فأسلم سكانها . وفي سنة ٨٣ عهد الوليد بن عبد الملك الخليفة الاموي الى موسى بن نصير بولاية افريقية . فنزل القيروان وأخضع قبائل البربر . ثم سار الى طنجة وفتحها . فدانت لسلطانه جميع هذه البلاد ، وأسلم أهلها ومنهم أهل طنجة . وترك موسى بن نصير جنده تحت قيادة مولاه طارق بن زياد . ثم تطلع الى فتح اسبانيا ، لما علم من ضعف أهلها واضطراب حالها . فاستأذن الخليفة في ذلك ، ونزل الشواطئ في سنة ٥٩١ هـ ، وفي سنة ٩٢ عبر طارق بن زياد البحر مع جنوده ، ونزلوا الجبل المسمى الآن باسباسه . وانتشروا في بلاد الأندلس انتشاراً عظيماً . ولما استقرت قدمهم هناك نزح اليها العرب من كل بطن وقبيلة ، من عدنايين وقحطايين وغيرهم . فمن العدنايين القرشيون والهاشميون الذين كانت منهم دولة بنى حمود . ومنهم الخزوميون الذين منهم أبو بكر الخزومي الشاعر الأعمى المشهور ، والوزير ابن زيدون . ومن بينهم الفهريون ، ومنهم عبد الرحمن الفهري الذي غلبه على أمره ، وأخذ منه الملك عبد الرحمن الداخل مؤسس دولة بنى أمية بالاندلس . اما القحطايون أو اليمينيون فكانوا أكثر

انتشارا . ومن قبائلهم كهلان . ومنها محمد بن هانيء الشاعر المشهور ، ومنهم الازد ومنهم الجم الغنير بالاندلس^١ ورحل الى الاندلس أيضا كثير من أهل مصر والشام والعراق . كما عبر اليها من مرا كش وشمال افريقية جماعة من البربر . واختلط كل هؤلاء بسكان البلاد الأصليين ، من قوط وغيرهم بالمصاهرة والمصادقة ، وجمعهم الاسلام فكانوا أمة واحدة . ولكن هذه الأمم لم يكدهم يجتمع أمرها حتى دب فيها ديبب التنازع . وكانت العصبية العربية في أشد ما تكون . فقام النزاع والخصام بينهم وأيقظوا الفتنة القديمة النائمة . ودارت رحى الحرب بين اليمنيين والمضريين ، وتنافسوا في الملك ، حتى أدى ذلك الى انقسام الامارة فيهم وادلتها بين الجندين سنة لكل دولة .^٢ وكان خلفاء بني أمية بعد ذلك يستعينون ببعض القبائل على بعض تأييدا للمكهم ، ويميلون الى اليمنيين الذين نصروهم في واقعة مرج راهط . فكان انقسام العرب منذ وطئت أقدامهم هذه البلاد .^٣ وقد دامت هذه الفتنة مدة وجود الدول الاسلامية في بلاد الاندلس ، حتى قيل : ليست هناك بقعة من أرض الاندلس الا رويت بدماء المسلمين . ولم يكدهم يخلو يوم من الأيام التي خفقت فيها راية الاسلام هناك من حرب أو شجار بين المسلمين والمسيحيين واليهود ، أو بين بعض المسلمين وبعض مع هذا فقد كان لدول المسلمين عصور ذهبية ، وأيام زاهرة ، أثمرت فيها قرآنهم وجهودهم . وظهر فيها صفاء عقولهم وميلهم الفطرى للرقى ، حتى أصبحوا قواد العالم واساندة المعبورة . وربما كان ذلك التنافس في الملك من أسباب رقى تلك البلاد . لان كل امير او خليفة كان يريد ان يوطد ملكه بنشر العلوم والمعارف . ولا سيما ان العباسيين كانت مدينتهم ازهرت في بغداد ، فارادوا ان يجاروهم في قرطبة ، ويظهروا عليهم فيما كان لهم من الفضل . هذا الى ما كان عليه

١ راجع الباب الثانی من نفع الطيب

٢ انظر الجزء الاول من تاريخ المسلمين في أسبانيا تأليف دوزى صحيفة ٢٥٢ وتاريخ

ابن خلدون جزء ٤ صحيفة ١٢٠

٣ راجع الفصل الحادى عشر من الجزء الاول من كتاب دوزى المذكور

العربي من ميله للعلم ونشره ، لأنه كان يرى في ذلك نشر المدينة على يديه ، وهذه وسيلة من وسائل الفخر والاعجاب اللذين هما من أكبر مظاهر الاخلاق العربية . ولقد كان مثل الأمة العربية مثل النائم المستغرق في نومه ، فإذا استيقظ كانت يقظته يقظة النشيط المجتهد .

ولما دخل العرب الاندلس ادخلوا معهم بلاغتهم ولغتهم التي كانت من أكبر مظاهر الفنون لديهم ، فتبعت اول خطوة خطاها أكبر قوادهم فاتح هذه البلاد طارق بن زياد . وأول مظاهر تلك البلاغة العربية الخطبة الحماسية الشيرة لهذا الفاتح العظيم ، التي تدل على رسوخ ملكة البيان في القواد ، وخبرتهم بالقيادة ونفوس الجنود ، وكيفية امتلاكها بالرهبة أحيانا والرغبة تارة ، وبث الأمل في نفوسهم باكتساب الغنيمة وانتظار الاجر من الله ، وان القائد بلسانه كالقائد بسيفه وسنانه . قالها طارق بن زياد وهو قادم على عدو أكثر منه عددا وعُدّة ، لانه دخل الاندلس ومعه اثنا عشر الف رجل اذهب بهم سبعين الفا من الاعداء

وهذه الخطبة هي اول ربح هبت على تلك البلاد معطرة ببلاغة العرب . واول كلام بليغ عبر عبيره هناك . بل اول تاريخ البلاغة العربية . ولم تكن بلاغتها في الاسلوب وحده ، بل في الحماسة والشجاعة اللتين كانتا من طبع العربي . وهي من نوع الكلام الذي يوحى به حب الجهاد ، والرغبة في نيل الاجر الدنيوي والاخروي معا ، ويذكر الجيوش بمفخرة النصر على العدو ، أو الموت في سبيل الدفاع عن الحوزة ونشر الدين . وفيها من ضروب الاستبسال والترغيب في القتال ما لا يكون الا من قلب حديد وقائد عظيم محارب^١

١ وهذه هي خطبة طارق بن زياد :

أيها الناس . أين الفر . البحر وراءكم . والمدو امامكم . وليس لكم والله لا الصديق والعبر . واعلموا انكم في هذه الجزيرة اضيع من الايتام في مأدبة الشام . وقد استقبلكم عدوكم بجيشه واسلحته واقواته موفورة . وانتم لا وذر لكم الا سيوفكم . ولا اقوات الا ما تستخلصونه من ايدي عدوكم . وان امتدت بكم الايام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرا ذهب ربحكم وتعوّضت القلوب من رعبها منكم الجراء عليكم . فادخضوا عن أنفسكم خذ لان هذه العاقبة من امركم بمنحزة هذا الطاغية . فقد القت به اليكم مدينته

هذا وقد كان للمسلمين هناك عصور تاريخية وعصور أدبية . أما العصور التاريخية فقد بدأت بمصر الامراء منذ الفتح الى سنة (١٣٨) . تولى الامر فيها عشرون اميرا كانت مدتهم ستة واربعين عاماً (٩٢ - ١٣٨) . وكانت هذه الامارات تابعة للخلفاء في المشرق زمن الامويين والعباسيين . ولكن هذا العصر كان عصر اضطراب وشجار لا ينقطعان . ولما علم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الاموي بما هناك من المنافسة بين اليمانيين والمضريين ، وكان قد فر من ظلم ابي جعفر المنصور الذي نكّل بينى مروان ، التجأ الى بلاد البربر وذهب الى الاندلس مع جماعة من أتباعه ، واسس هناك دولة بنو امية سنة ١٣٨ واستتب له الملك سنة ١٤١ هـ واستولى على قرطبة بمساعدة اليمانيين ، فتأسست دولة بنو امية التي كان عصرها من ازهى عصور العلم والادب والحضارة بجميع انواعها . وبقيت هذه الدولة ٢٨٤ سنة (الى سنة ٤٢٢ هـ) تولى الملك فيها ١٩ خليفة . وقد بلغت الدولة ذروة مجدها في زمن عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر (٣٠٠ - ٣٥٠) ودامت مع الدولة العباسية بالمشرق . فكان نور المدينة

الحصينة . وان اتهاز الفرصة فيه لمكن ان سمحتم لانفسكم بالموت . وانى لم اخذكم امرا انا عنه بنجوة . ولا حملتكم على خطة ارحس متاع فيها النفوس . ابرأ منها بنفسى واعلموا انكم ان صبرتم على الاشق قليلا استمتعتم بالارفة الالذ طويلا . فلا ترغبوا بانفسكم عن نفسى . فما حظكم فيه باوفر من حظى . وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسن من بنات اليونان الزافات في الدر والمرجان . والحلل المنسوجة بالمتيان القصورات في قصور الملوك ذوى التيجان . وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك امير المؤمنين من الابطال عربانا . ورضيكم لملوك هذه الجزيرة اصهارا واختانا . ثقة منه بارتياحكم للطعان واستياحكم بمجالدة الابطال والفرسان . ليكون حظه منكم ثواب الله على اعلاء كلمته واظهار دينه بهذه الجزيرة وليكون مغنمها خالصا لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم . والله تعالى ولى انجادكم على ما يكون لكم ذكرا في الدارين . واعلموا انى اول مجيب الى ما دعوتكم اليه . وانى عند ملتقى الجمعين حامل بنفسى على طاعة القوم لذريق فقاتله انشاء الله تعالى . فاحلوا معى فان هلكت بدمه فقد كليتمكم امره . ولم يعوزكم بطل غائل تسندون اموركم اليه . وان هلكت قبل وصولى اليه فاحلفوني في عزمي هذه واحلوا بانفسكم عليه واكتفوا اليهم من فتح هذه الجزيرة بقتله فانهم بدمه يخذلون (فتح الطيب طبع اربا جزءا صحيفة ١٥٠)

الاسلامية يسطع من المشرق والمغرب معا. فان عبدالرحمن الداخل عاش من عصر ابي جعفر المنصور الى زمن هرون الرشيد (١٣٢ - ١٨٢) وكان الحكم بن هشام معاصراً للمأمون (١٨٠ - ٢٠٦) فكانت الدولتان تتسابقان في ميدان العلوم والحضارة. وكانت قرطبة وبغداد كعنتى العلماء ومنبعى العلوم والفنون .

وبعد زوال دولة بنى امية اتقسم الناس احزاباً وشيعاً. فكانت هناك ممالك كثيرة مستقلة سموا ملوكها بملوك الطوائف . فقام ابن عباد فى اشبيلية . وابن الأفطس فى بطليوس. وذو النون بطليطة. وابن هود بسر قسطة الخ. وبقيت الحال كذلك كانت البلاد فيها أكثر ماتكون اضطرراً^١

مع هذا فقد كان لملوك الطوائف ميل عظيم للعلوم . فكان ابن الافطس الملقب بالمظفر احرص الناس على جمع علوم الادب خاصة من النحو واللغة والشعر ونوادير الاخبار وعيون التاريخ . انتخب له مما اجتمع من ذلك كتاب كبير ترجم باسمه (المظفرى) كان يقع فى نحو ٥٠ مجلداً . وكان لابنه المتوكل قدم راسخة فى صناعة النظم والنثر . قالوا: وكانت ايام بنى المظفر اعياداً ومواسم ، وكانوا ملجأ لاهل الادب. وفيهم قال الوزير الكاتب ابو محمد عبد المجيد بن عبدون قصيدته الشهيرة وكان بنو هود ملوك سر قسطة وما يليها من اهل العلم وانصاره. فقد كان المؤمن بن المقدر بالله قائماً على العلوم الرياضية وله فيها تاليف. منها كتاب « لاستكمال المناظر » ومن اشهرهم ابو القاسم المعتمد على الله بن عباد ، كان شاعراً اديباً . وكان لا يستوزر وزيراً الا أن يكون اديباً وشاعراً ، ومن وزرائه الكاتب الشهير ابن زيدون. ومنهم الكاتب ابن عمار . وكان

١ قال صاحب المعجب : واما حال اهل الاندلس بعد انحلال دعوة بنى امية فقد تفرقوا فرقاً وتقلب فى كل جهة منها متقلب ؛ وضبط كل متقلب ما تطلب عليه وتقسوا القاب الخلافة . فمنهم من تسمى بالمعتضد ومنهم من تسمى بالمأمون وآخر تسمى بالمستعين والمقتدر والمعتصم والمعتمد وغير ذلك من القاب الخلافة . وفى ذلك يقول ابو على حسن بن رشيق

مما يزهدينى فى أرض أندلس سماع مقتدر فيها ومعتضد
القاب مملكة فى غير موضعها كاهن يحكى انتفاخا صولة الاسد

المعتمد هذا من اعظم ملوك الطوائف. ولم تذهب دولته الا بعد ان استعان
بيوسف بن تاشفين الذى تغلب عليه واسره فى افريقية بعد ان ابلى بلاء حسنا
فى محاربته (سنة ٤٨٤ هـ). ومنذ ذلك الزمن ملك البربر اسبانيا وسموا بالمرابطين ،
واصبحت الاندلس ولاية تابعة لافريقية. وملك يوسف بن تاشفين بلاد الاندلس
واصبح هو وابنه من اكابر الملوك^١

اما دولة المرابطين هذه فعلى الرغم من ميلها للعلوم . لم يكد يستتب للموكلها
الامر حتى ظهر فيهم الجهل والتعصب لمسائل الدين. وابتدأت الحالة العقلية تنحط ،
وحركة اللغة والعلوم تقف. وفى زمن على بن يوسف بن تاشفين ظهر التعصب لمذهب
الامام مالك ، حتى قالوا انه نسي النظر فى كتاب الله . وصودرت كتب الكلام ،
ومنع الكلام فى العقائد ، وأمر باحراق كتب الغزالي. ثم عمت الفوضى جميع البلاد ،
واضطرب حال المسلمين بعد سنة خمسمائة ، واوكلت الأمور العامة للنساء . وعلى
أثر ذلك قامت دولة الموحدين التى نشأت بمراكش فى أوائل القرن السادس
واراد الموحدون ان يردوا عظمة عصر بنى امية من علوم وفنون وصناعات . واشتهر
فى زمنهم طائفة من العلماء والشعراء والفلاسفة. فقد كان لامرأته ميل عظيم للعلم
كأبى يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨ — ٥٨٠) الذى اشتهر حبه للعلم
والاشتغال به وجمع الكتب ، وكان يتناقش مع ابن رشد الفيلسوف الشهير . حتى
قال ابن رشد انه هو الذى حملنى على تلخيص ما تلخصته من كتب الحكماء ارسطاطليس .
ثم ظهر بنو هود فى أوائل القرن السابع الهجرى وغلبهم بنو الاحمر ملوك
غرناطة . واضطربت الحال فى هذه المدة بين بنى الاحمر وبنى هود ، كما كانت
عند الفتح بين الامراء . وانتهت الدولة فى أواخر القرن التاسع الهجرى حيث خفت
صوت المسلمين هناك . وقد ظهر فى هذه المدة الاخيرة كثير من الادباء والشعراء
كلسان الدين بن الخطيب وابن زمرك وغيرهم.

اما عصور الادب والبلاغة فقد ابتدأت بتأسيس الدولة الاموية . ولم يأفل

١ قالوا وانقطع الى امير المسلمين من الجزيرة من اهل كل علم فحولته حتى اشتهت حضرته
حضره بنى العباس فى صدر دولتهم واجتمع له ولابنه من اعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم
يسبق اجباؤه فى عصر من العصور

يحم هذه الدولة الا بعد ان أفضمت البلاد بالعلماء والفلاسفة والادباء ومعاهد العلم ودور الكتب . وكانت الصبغة العربية في هذا العصر ظاهرة في الشعر والنثر . لأنها كانت أشبه بما في بلاد المشرق . فلما كثر الترف وذاع اللهو والمجون في اواخر الدولة وفي دولة العامين ، وفي عصر ملوك الطوائف ، ظهرت الاباحة في كل شئ ، وظهر كل هذا في انواع البلاغة من نظم بديع ونثر رشيق ، ومن كلام في وصف مجالس اللهو والطرب والغلمان والنساء ، وأغرب الشعراء والكتاب في هذه الانواع . وأكثر مشهورهم ظهوروا في زمن ملوك الطوائف وبعده ، كما ظهر كثير من العلماء والفلاسفة والادباء . وما زالت النهضة الادبية سائرة سيراً حثيثاً ، لان العقول كانت قد نضجت واخذت في البحث والاستنباط . وقد زالت الدولة على أثر الاضطرابات السياسية ، والحياة العقلية في عز مجدها . وعلماءها وادباؤها كانوا لا يزالون في ابان نشاطها ، ونشوة يقظتهم العقلية حتى انتشروا في البلاد ، وأفاضوا عليها من فضل علومهم ما كان له أثر نافع عند الامم التي نزلوا فيها .

الحياة العقلية في الأندلس

امتزج المسلمون الذين دخلوا الأندلس بسكان البلاد وتصاهروا وتحابوا . ثم دخل كثير من غير العرب في الاسلام ، فظهرت صلة أخرى غير صلة الاجتماع في بقعة واحدة ، وهي صلة الدين ، وامتزجت كل هذه الاجناس بعضها ببعض امتزاجا تسرب في عقولهم كما تسرب في دمائهم . فكانت لهم نزعة عقلية جديدة . ونمت مواهبهم الفطرية ، وساعدتهم على ذلك انتجاعهم بلاداً واسعة غنية جميلة ، مختلفة المناظر متعددة المناحي ، فكان أثر ذلك كله ان أصبحت لهم مميزات عقلية وصفات لم تكن لسيرهم من العرب الخالص . فاشتغلوا بأنفسهم في نقل العلوم ونشرها ، ووصلوا الى البلاد في طلبها ، ورحل اليهم كثير من العلماء ، فاخذوا عنهم كما أخذوا عن آثار اليونان والرومان والفرس . ولم يكن للعرب اذ ذاك من يزاحمهم ، لان معالم الحضارة كانت خفيت . والعالم يتطلع الى من ينقذه من مخالب الموت ويفيض عليه بنور العرفان . وكان العرب أبطال تلك الايام ، فاصبحوا زعماء المدنية . وأرادوا أن ينالوا شرف هذه الزعامة ويمسكوا زمام العالم . وقد عرفوا ان ذلك لا يكون الا اذا ارتقت العقول وتقدمت العلوم ، وان دولة لا تؤسس الا على العلم ، وان أمة تريد أن تعيش لا تنحى الا بالعلم . فاراد عبد الرحمن الداخل أن تكون دولة بنى أمية في المغرب أثبت دعامة من دولة بنى العباس بالمشرق ، وأبقى وأغخم من ملك آبائهم في ربوع الشام فتمهدت في زمنه وسائل السعادة والمدنية وكان يعمل على ترقية العقول ونشر العلوم والفنون والصناعات . كذلك كان عبد الرحمن الثاني المعاصر للأمون (من سنة ٢٠٦ الى ٢٣٨) شديد الرغبة في

١ فقد رووا عنه

ابن أمية قد جبرنا صدعكم بالغرب رحما والسعود قبائل
مادام من نسلي امام قائم فالحكم فيكم ثابت متواصل

الفنون والأدب والموسيقى ، فعمل على ترقية أذواق أهل الاندلس بنشر هذه الفنون الجميلة . فكان خلفاء بني أمية يجارون دولة بني العباس في حضارتهم وفي كل شيء لديهم . وأرادت قرطبة أن تظهر على بغداد . فأدخل عبد الرحمن الثالث في اسبانيا ما كان عند العباسيين من علوم وفنون . وأنشأ في قرطبة كثيراً من المباني الفخمة . وبلغت أبهة الملك منتهاها في أيامه . وفي عصره كانت المدينة الإسلامية زاهية . فكان العلماء والادباء يقدون من المغرب الى المشرق ، ومن المشرق الى المغرب . والطريق من بغداد الى قرطبة لا يغيب عنه ضوء العلم ، ولا تنقطع عنه قدم العلماء ، والعالم يستضيء في ظلمة جهله بأشعة العلوم العربية ، ويهتدى بآثار العرب وجهودهم في نقل الحضارة من اليونان وغيرهم ، مما كشفوا مخبآتة وفتحوا معيئاته . وقد نمت مواهب العرب في اسبانيا كما ينمي النبات الصالح للحياة في الارض الخصبة الطيبة . وظهر أثر ذلك كله في العلوم والفنون ، كما ظهر في أنواع البلاغة من شعر ونثر ، مما لم يكن عند سواهم . ذلك لما كان لهم من النشاط والجد والمثابرة على البحث والتنقيب ، والعمل على فهم ما تركه الناس قبلهم من علوم عقلية أو عقلية ، ومن صناعات وفنون . فكان لهم أثر في كل شيء . أطلعوا عليه ، فألفوا ودونوا واخترعوا ، مما لا يكاد يحصى ، حتى ان الحركة العقلية لديهم لم يكن لها مثيل في زمنهم ، لأنها كانت نتيجة جهود العقول والقرائح عند العرب جميعاً .

وقد عثوا عناية عظيمة بجمع الكتب في كل علم وفن . فقد كان في اسبانيا ستون مكتبة عامة ، أنشأها الخلفاء الامويون وغيرهم . أشهرها مكتبة قرطبة ، وكانت تحتوي على الكتب العقلية والنقلية التي ترجمها وألفها العرب في الزراعة والفلك والرياضة . وفي الطب والكيمياء والموسيقى . وفي أصول الدين ككتب التوحيد والفقه والحديث والتفسير . وفي فنون الأدب كالبلادة والتاريخ والقصص والرحلات والخطب ودواوين الشعراء المختلفة ومعاجم اللغة . كان ذلك كله مجموعاً جماً منظماً في مكتبة الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦) كل غرفة

محتوى على علم أو فن من الفنون.^١ واشتدت رغبة الحكم في اقتناء الكتب فكانت فهارس المكتبة أزبعة وأربعين ، وبلغت الكتب فيها مائتي ألف مجلد . جمعها من إفريقية وفارس وجميع البلدان . وانتقلت رغبة جمع الكتب الى طبقة العامة حتى صار ذلك أنفس ما يقتنى . وحرص الناس عليها وعلى نقلها . وكان الحكم نفسه عالماً بالآخبار والأنساب ، محباً للقراءة ، حتى قلوا أنه قلما يوجد كتاب في مكتبته الا كان له نظر فيه وتعليق عليه ، يكتب عن المؤلف وعن مولده ووفاته ويأتى بفرائب لا توجد الا عنده . وكان يجمع في داره الحدائق في صناعة النسخ والضبط والاجادة في التجليد ، ويوجد عليهم بالمال . فكانت داره أشبه بمجمع علمي . وكان يبعث في الكتب الى الافطار رجالاً من التجار ، ويعطيهم الأموال لشراؤها حتى جلب منها الى الأندلس ما لم يكن لهم به عهد ، مما كان يضاهي ما جمعه ملوك بني العباس في الازمان الطويلة . واستخدم العلماء في كل ما يساعد على العلم ونشره ، فكان منهم الوراقون المشهورون المعروفون بالضبط وحسن الخط . وبعث في كتاب الأغاني الى مؤلفه أبي الفرج بألف دينار من الذهب المين ، فجاءه بنسخة منه قبل أن يخرج الى العراق . كذلك كان للخلفاء ميل عظيم الى اكرام العلماء والاخذ بنصارهم.^٢ فكان المنصور بن أبي عامر على مثل هذه الحال يعمل على ترقية العلوم ونشرها في أنحاء الدولة لدى الرعاية على اختلاف أجناسهم ونزعاتهم ، بعد أن كان العلم مقصوراً على الوجوه منهم . وكان يزور المدارس ويحضر الدروس ويختلط بالطلبة ، ويمدح المدرسين

١ كان الحكم من أشد أنصار العلم ، لأن أباه عبد الرحمن الثالث رباه بأمر الاساتذة ووكّل أمر تعليمه الى أبي علي القالى . وقد نشر الحكم على نفقته الخاصة مؤلفات أحمد بن عبدربه صاحب العقد الفريد . وجعل في قرطبة كبردار لمطالمة الكتب العربية وجعل أخاه عبدالقزيز مديراً لها وحافظاً عليها ، على حين أن أخاه المنذر كان له الرياسة على أندية العلوم المختلفة التي تأسست في قرطبة

٢ راجع خبر دخول أبي علي القالى الى الأندلس والاختفاء به واشتغال الحكم بالعلم وجمع الكتب — نفع الطيب طبع أوروبا جزء ١ صفحة ٢٥٠

ويكافئ التلاميذ على جدهم ، ويجلس في مجالس العلماء للمناقشة والبحث ، ويختار من نابغهم القضاة والقراء والخطباء ^١

على مثل هذا كانت عناية العرب بنشر التعليم تفوق كل عناية . فكانوا إذا فتحوا بلداً أو مدينة يبدأون بإنشاء مسجد ومدرسة ^٢ وكانهم يقصدون بذلك أن نشر الدين والعلم معاً لازم تهذيب الأمم وأن تربية النفوس بالدين كترية العقول بالعلوم والمعارف . وعندهم أخذ أهل أوروبا المدارس الجامعة ونظام « الكليات » التي يجتمع فيها كثير من الطلبة على أساتذة يتعلمون العلوم المختلفة . وكان في كل مدينة من مدن إسبانيا مدرسة كبيرة . بل كانت القرى تحتوى على مدارس لتعليم القرآن والقراءة والكتابة . وأصبح السواد الأعظم من سكان البلاد عارفاً بالقراءة والكتابة ، على حين أن أهل أوروبا كانوا من العامة الذين لا يقرأون ولا يكتبون ، لأن التعليم كان منحصرًا لديهم في طائفة القسوس الذين لم يخرج العلم من دائرتهم ، وإن تعدادهم قلى بعض الأمراء والاعنياء . وكانت معاهد التدريس خاصة بالعلماء والفضلاء ورؤساؤها من أكبر الرجال المفكرين ^٣.

٢ هذا على الرغم من تظاهر المنصور بكمراهة علوم الفلسفة والنجوم ارضاء لشهوته السياسية . راجع طبقات الأمم في ذلك

٢ بلغت مساجد قرطبة في زمن عبد الرحمن الداخل ٤٩٠ مسجداً

٣ أما العلماء والمؤلفون فكثيرون في كل علم وفن . ذكر جلة من ذلك أبو محمد بن حزم الحافظ في رسالة طويلة رد فيها على الحسن بن محمد القيرواني فيما كتبه في تخليد علماء بلده وتقصير أهل الاندلس في ذكر علمائهم (نفع الطيب طبع أوروبا جزء ٢ صحيفة ١٠٨)

فن المؤرخين أبو مروان حيّان بن خلف (ولد سنة ٣١٧ وتوفي سنة ٤٦٩) وكتابه المسمى بالمتين أو المبين في تاريخ الاندلس يقع في ستين مجلداً (منه نسخة بجامعة الزيتونة بتونس) وله كتاب المقتبس في تاريخ الاندلس في عشر مجلدات (به نسخة بتونس وا كلفورد) وللقاضي أبي القاسم صاعد بن احمد الطليطلي كتاب التعريف أخبار علماء الأمم من العرب والعجم . ومما ألف في الجغرافيا كتاب معجم ما استعجم من البقاع والاماكن .

ومن أشهر المنجمين ابراهيم بن ارياحيل الاسرائيلي من رجال القرن الخامس الهجري ويؤثر عنه أنه باشر عدة مرات رصد التحقيق تقطع الراس والذنب من الارض . ومنهم جابر بن اطلع الاشيلي الذي اختصر كتاب المجسطي لبطليموس . ومنهم أبو الوليد محمد بن رشد القرطبي الفيلسوف ويقولون أنه أول من تلبه فلسف على وجه الشمس وكتب عنها . وكثير من هؤلاء كانت لهم قلم

وكان للطلب أربع مدارس أهلة بالمدرسين والتلاميذ من جميع الملل والاجناس
في قرطبة واشبيلية وطليلة ومرسية

هذا شيء يسير عن الحركة العلمية والأدبية في الأندلس. منها يمكن الوقوف
على مقدار ما كان هناك من الميل الى العلوم والمعارف، وما وصلوا اليه في الحضارة
والاطلاع. وكثير من هؤلاء العلماء كانوا من الادباء والفقهاء. وقد كانت لهم
عناية خاصة بعلوم اللغة والدين، لان تربيتهم العقلية كانت مؤسسة على هذين الفرعين.
لذلك كان لكثير من علماء العرب المتخصصين في العلوم الرياضية والطبيعية
شهرة عظيمة في علوم اللغة والدين. فكان أبو عبيدة مسلم بن أحمد المعروف بابن
السمينة من أهل قرطبة بصيراً بالحساب والنجوم والنحو واللغة والعروض ومعاني
الشعر والفقه والحديث والأخبار والجدلي. وكان الحافظ أبو الوليد هشام من أعلم

راسخة في الهندسة والمساحة والجبر وسائر العلوم الرياضية.

ومن اشتغل بالفلسفة أبو محمد علي بن حزم من رجال القرن الخامس الهجري. وله كتاب الفصل
بين أهل الاهواء والنحل وكتاب أخلاق النفس وكتاب مراتب العلوم وغيرها. ومنهم ابن باجة
القرطبي المعروف بابن الصائغ من رجال القرن السادس ومن أكابر العلماء في الفلسفة والرياضة
والطب والموسيقى. ومنهم ابن طفيل الذي كان معاصراً لابن الصائغ ويقولون أنه أول من قال بتدرج
الحیوان الى انسان وهو صاحب الرسالة الشهيرة التي سماها حيى بن يقظان. ومن تلاميذه أبو
الوليد بن رشيد المذكور أشهر علماء الاندلس وأكبر فلاسفتها الذي ألف في الطب ولخص بعض
مؤلفات جالينوس في الامزجة والعلل والحيات

ومن أطباء الاندلس بنو زهر. وهم أبو الملاء بن زهر. وابنه أبو مروان عبد الملك وابنه
أبو بكر. وعبد الملك هذا صاحب كتاب التيسير وكتاب الاغذية اللذين كانا لهما شهرة عظيمة
في المشرق والمغرب. ومن المشتغلين بالعلوم ابن البيطار واحد اهل عصره في معرفة النبات
سافر الى بلاد الاغريق وأقصى بلاد الروم والمغرب واجتمع بكثير ممن يمانون هذا الفن وطاب
حناته وتحققها. ومنهم أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي المتوفى سنة ٥٠٠ من الهجرة كان
أشهر أطباء زمانه وهو صاحب كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف. وهو أول من ألف
في فن الولادة ورسم في كتابه آلات الجراحة. وعلماء اللغة والادب أكثر من أن يحصى عددهم
راجع في الكلام على العلماء في الاندلس ما يأتي :

رسالة ابن حزم المذكورة ورسالة أبي الوليد الشقندي في ذكر علماء الاندلس ومؤلفاتهم في الجزء
الثاني من كتاب نفع الطيب جزء ٢ صفحة ١٠٨-١٤٠ وطبقات الامم للقاضي أبي القاسم صاعد
الاندلسي. والباب الثالث عشر من كتاب طبقات الاطباء والجزء الثاني من كتاب فياردو «تاريخ
العرب والمغرب في اسبانيا» والسنة الثانية من مجلة الغنياء في مقالات «العلوم عند العرب»

الناس بالهندسة وآراء الحكماء والنحو واللغة ومعاني الشعر والعروض وصناعة الكتابة والفقه والشروط والفرائض . فكانت الفنون الشرعية وعلوم اللغة أساساً لتربيتهم العقلية، حتى لا تكاد نجد عالماً أو فيلسوفاً أو منجماً إلا وله علم بالشعر والعروض واللغة . لهذا ظهر شيء كثير من آثار تلك التربية العلمية والفلسفية في بلاغتهم من نظم ونثر

أما اللغة العربية وآدابها فقد ذاعت في كل أنحاء البلاد وعند الخاصة والعامة وملكتم منهم ملكة البيان : قال بعض المؤرخين

« هجر أهل اسبانيا اللاتينية واشتغلوا باللغة العربية وآدابها، وكانوا لا يكتبون غيرها، حتى ان أحد العلماء المشهورين منهم شكى من ذلك . وقال اننا نحب قراءة الشعر والقصص العربية ، وندرس المسائل الدينية والفلسفة الاسلامية باللغة العربية لتعلم لغة رشيقة وعبارة بليغة . ولا يكاد يوجد عندنا من يقرأ الكتب المقدسة باللغة اللاتينية . وكل شبانا الأذكاء لا يعرفون غير لغة العرب وآدابها، لأنهم يقرأون الكتب العربية ويدرسونها بهمة عظيمة، ويدعوهم كثرة اطلاعهم على تلك الكتب الى الاعجاب بأدب العرب . فاذا حدثتهم عن كتاب من الكتب اللاتينية سخرُوا منها، وقالوا انها لا تستحق عناية قارئ أو مستفيد . من أجل ذلك نسي المسيحيون لغتهم، فلا تكاد نجد في الألف منا واحداً يمكنه أن يكتب رسالة باللاتينية. أما اذا أرادوا أن يكتبوا بالعربية فان كثيراً منهم يكتب عبارات بليغة ، وأسلوب منمق، وقد يفوقون العرب أنفسهم في ذلك، حتى في الشعر وكتابة القوافي . »¹

كذلك دخلت الألفاظ العربية في اللغة الاسبانية وغيّرت شكل لغة البلاد وأكسبتها لهجة جديدة في زمن شارل الأصلع

« وفي أوائل القرن التاسع كانت اللغة العربية هي لغة الوثائق الرسمية. وفي هذا الوقت ترجم قسيس من أهل اشبيلية التوراة الى اللغة العربية لتلاميذه فوجد أحد العلماء هناك على أهل دينه، وأتهمهم بالمساعدة على نشر اللغة العربية والعمل

1 Dozy Hist des Arabes en Espane T. 2. P. 103

على ترك اللاتينية . وقد دامت هذه الحال زمنا طويلا في قرطبة و طليطلة، حتى ان القسس لجهلهم باللاتينية اضطروا الى ترجمة كتب الكنيسة الى اللغة العربية . وبقى ذلك إلى أواخر القرن الحادي عشر ، أى بعد ان استولى ألفونس السادس على طليطلة سنة ١٠٨٥ م .

وليس لأحد أن يناقش كلام « كوند » القائل بأن من أدب أهل اسبانيا ما هو مأخوذ من أدب العرب ومتأثر به . ولا شك في أن الاسبانيين مدينون للعرب بلغتهم وآدابهم ومعرفتهم الفلسفية الخ .^١

وأما اهتمامهم بالفنون كالأدب والغناء والموسيقى فقد كان أكثر انتشاراً، لأنهم كانوا أخرج اليها في ساعات اللهو والطرب ، ورياضة النفوس ومجالس الخلفاء والامراء . وهي عليهم أسهل ، ولدى ذوقهم أعذب، ولنفسهم أقرب



1 James Fitzmaurice Kelly. His de la littérature en Espagne P. 7 & 8.
A Literary History of the Arabs by Nicholson P. 476.
Engène Baret. His. de la litt. en Espagne. P. 16 & 17.

الفنون في الأندلس

كانت همة العرب في أبان نهضتهم متجهة الى العلوم ، منصرفة الى الدرس والتأليف والنقل . فظهر منهم طائفة عظيمة من الفلاسفة والاطباء وعلماء النبات والحيوان والكيمياء والطبيعة والفلك والرياضة كما أشرنا الى ذلك . وكان اهتمامهم بالفنون كاللوسيقى والغناء والشعر وفن العمارة عظيماً أيضاً ، حتى فاقوا غيرهم في بعضها وأخذوا بعضها عن الأمم الأخرى . ولهم في ذلك آثار جميلة بديعة ، وميولهم الى فن التصوير والنحت كانت من بواعث الأمل على تقدمهم في ذلك لو أن دولتهم امتد زمنها . فقد كان لدولة بني الأحمر بغرناطة آثار بديعة في فن العمارة ، بل ظهر قبل ذلك ميول الخلفاء الأمويين لفن النحت والتصوير . فبنى عبد الرحمن الناصر لجاريته الزهراء مدينة سماها باسمها ، أتقن بناءها وأحكم الصنعة فيها ، وجعلها مستنزهاً ومسكناً لها ولحاشيته وأرباب دوائه ، ونقش صورتها على الباب . وكانوا يجلبون الصور والتماثيل من البلاد الأخرى كالقسطنطينية وغيرها . وقد نصب الناصر على باب الزهراء ثمانية منها ^١ وقلدوا بعض النقوش التي كانت في كنائس اسبانيا وصقلية . وروى بعض المؤرخين ان ثلاثة أعمدة في مسجد قرطبة كانت عليها نقوش وصور . فكان على أحدها صورة عصا موسى ، وعلى الثاني صورة أهل الكهف ، وعلى الثالث صورة غراب نوح ^٢ أما تصوير الآنية والأثاث والأشكال الهندسية فقد برعوا فيها براعة عظيمة ، وصوروا الطيور وأشكال الرجال ،

١ نفع الطيب طبع اروبا جزء أول صحيفة ٣٤٦ راجع الكلام هنا على مدينة الزهراء

٢ نفع الطيب طبع اروبا جزء أول صحيفة ٣٤١

كما في الحوض الذي أتى به الناصر الى مدينة الزهراء . فقد كانت به نقوش وتماثيل على صورة الانسان نصب عليه اثنا عشر تمثالا^١

ومن آثارهم في فن العمارة هناك ما لا يزال ناطقاً بما كان لهم من البراعة في بناء المدن والقصور والمساجد . ولهم من الاتقان في ذلك ما لم يكن لغيرهم في زمنهم . ومن أشهر آثارهم الفنية مسجد قرطبة الشهير الذي — فضلاً عما يدل عليه من البراعة في فن العمارة — يدل على ذوقهم الفني ، وعلى بلوغهم درجة عظيمة في الترف وبجاراتهم غيرهم فيما عرفوه من آثار الرومان في المدن العظيمة والقصور الشاهقة والكنائس المنمقة^٢

وقد أخذ أهل أوروبا عن عرب الأندلس كثيراً من الفنون وغيرها فقد كانوا لا يعرفون شيئاً عن علوم اليونان ومدنيتهم . ولا عن اللغة الاغريقية وما ألف فيها . فلما ترجم العرب كتبهم وشرحوها وأضافوا اليها ما أضافوه ، فتحوا على أهل أوروبا باب المدنية الحاضرة ، وأطلعوهم على تلك الآثار التي بنوا على أنقاضها حضارتهم . فقرأوا الكتب اليونانية باللغة العربية . ومنذ ذلك عنوان دراستها وبمعرفة اللغة اليونانية . بل ترجم أهل أوروبا الكتب العلمية اليونانية من العربية

١ نفع الطيب طبع أوروبا جزء ١ صحيفة ٣٤٦ . راجع مجموعة الصور المأخوذة من صقلية ، وطبعت في روما ومنها نسخة بمكتبة سراي عابدين . وراجع الكلام على فن العمارة في نفع الطيب جزء ١ صحيفة ٣٠٣ والجزء الثاني من كتاب فياردو
٢ أما مسجد قرطبة فقد أسسه عبد الرحمن الداخل وأتمه ابنه هشام . فكان أنشاؤه في أول أيام الدولة الاموية ، مما يدل على تيقظ العرب ونشاطهم منذ دخولهم تلك البلاد . وقد كان في هذا المسجد الف ومائتا عمود كلها من الرخام ، وكان باب المسجد من الذهب وفيه المحراب وما يليه قد أجرى فيه الذهب المطعم . وكان باب المقصورة من الفضة . وكان بالمقصورة تفاحات من الفضة والذهب ، يحيط كل تفاحة مائة اشبار ونصف ؛ واثمان من هذه التفاحات من الذهب الابريز ؛ وتحت كل تفاحة وفوقها سوسنة قد هندست بأبداع صنعة ورومانا ذهب . قال المقرئ أنها إحدى غرائب الارض . وكان بالجامع المذكور في بيت منبره مصحف عثمان الذي خطه بيده (هكذا يقولون) وعليه حلية ذهب مكللة بالدر والياقوت ؛ وعليه اغشية من الديباج وهو على كرسى من العود الطيب بمسامير الذهب . وارتفاع المنارة الى مكان الاذان ٤٥ ذراعاً ؛ ودور الثريا الكبرى تحتوى على الف كأس واربعة وتمائين ؛ كلها موشاة بالذهب . وفي عضادتي المحراب أربعة أعمدة ؛ اثنا عشر اخضران واثنا عشر زورديان وبه منبر خشبه الصاج والابنوس والعود . وصرف عليه عشرة آلاف مثقال وخمسون مثقالاً ويقولون أنه كان بالجامع حاصل كبير ملاك من آية الذهب والفضة لاجل وقوده : راجع السلام على مسجد قرطبة في نفع الطيب جزء ١ صفحة ٣٥٨ — ٣٦٩

الى اللاتينية . ومن أول الكتب التي ترجمت في ذلك كتاب اقليدس في الهندسة سنة ١١٣٦ م

ولم يأخذ أهل أوروبا عن عرب الأندلس العلوم وحدها ، بل أخذوا عنهم أيضاً بمض الفنون التي اشتغلوا بها كفن العمارة والموسيقى والشعر .^١ أما فن الموسيقى فقد توسع فيه أهل أوروبا بما تركه العرب لهم . قال بعض المؤرخين « ان للعرب اليد الطولى فيما تركوه من فنون الموسيقى التي ساعدت أهل أوروبا على الوصول الى الدرجة التي عليها الآن هذا الفن الجميل . فان مكتبة طليطلة بها آثار عظيمة تدل على ما كان للعرب من التقدم في ذلك . وأن هناك جزءاً من المخطوطات في الموسيقى عليه بعض ملاحظات بخط ألفونس العاشر ، الذي كانت كل معلوماته وتربيته العقلية مكتسبة من قراءة الكتب العربية . وأن الموسيقى قبل ذلك العصر كانت مقصورة على الكنائس . فساعد العرب على نشر هذا الفن بواسطة الفرنسيين أنفسهم ، الذين كانوا يقيمون في اسبانيا مع العرب ، أو يتعلمون في مدارسهم . وكان الشعر الفرنسي العامي من نوع الشعر العامي الاسباني المأخوذ عن الشعر العربي ، لا عن الشعر اليوناني أو الروماني . لأن سكان تلك البلاد لم يكونوا يعرفون بعد شعراء اليونان أو الرومان ، حتى ينسجوا على منوالهم ، اذ لم يطلعوا على شيء من ذلك قبل القرن الرابع عشر . لذلك كان الشعر عندهم يشبه الشعر العربي من حيث انه قطع صغيرة ، وأبيات قليلة في المدح أو الذم أو الوصف . وذلك أظهر ما يكون في فرنسا عند شعراء القرن الرابع عشر ، و بعض القرن الخامس عشر . حتى ان أسماء هذه المقطوعات أو الأصوات كانت تشبه أسماء الشعر العربي . قال : ولقد أجدا صناعة الشعر والقوافي عن العرب ، فان الاسبانيين أول من أخذ القافية عن الشعر العربي

(١) أخذ العرب كثيراً من فنون العمارة عن دولة الروم الشرقية . كما نقلها الجرمانيون الى بلادهم . فكانت العمارة عند الجرمانيين تشبه ما عند عرب اسبانيا . حتى أن مسجد قرطبة يشبه الكنيسة الجرمانية الكبرى . لأن أصلهما مأخوذان عن الشكل البوزانتي . وكانت آثار البناء في أوروبا الجنوبية مأخوذة من نماذج عربية حتى قالوا أنه يوجد شيء من ذلك في كنيسة باريس الكبرى : فياردوا جزء ٢ ص ١٨٠

ثم وصلت هذه الصناعة الى مرسيليا وطولون بواسطة التجار الذين كانوا يجيئون من أسبانيا. ^١

واقبس الأوروبيون كثيراً من أعمال العرب في الحروب والصناعة وغيرها مما يطول شرحه. وإنما أردنا أن نثبت ذلك القدر القليل تنويعاً بفضل العرب وأثرهم في المدنية الحاضرة

وقد بلغ عرب اسبانيا الى درجة عظيمة من الترف وأبهة الملك. ولعل ذلك ما يسمونه الآن «رد فعل». فقد كانوا في خشونة من العيش، بعيدين عن كل رفاهية، فلما فتح أمامهم باب السعادة على مصراعيه، ورأوا مدنية الأمم الأخرى وملكوها العالم، أرادوا أن يتناسوا تلك الخشونة البدوية، فتشبهوا بالدول العظمى. وكان العربي بطبيعته يتأثر بالمظاهر والمشاهد الجميلة. لأنها هي التي كوت فكره وادراكه وتصوره، وأوحت اليه هذه المعاني الشعرية. وقد رأى ذلك كله في البلاد التي فتحها، فأراد أن يكون من أصحاب العظمة والابهة والترف. غاهتم ببناء القصور الضخمة، والأبنية المشمخة، وحيازة الأشياء النفيسة، ولبس اللؤلؤ الفخمة المزركشة، وامتلاك الأواني الذهبية والأثاث المرصع بالأحجار الكريمة، وغلبت عليه طبيعة السخاء، فكان يجود بالهدايا الثمينة، ويستعين بالأموال ^٢ فقد اتخذ عبد الرحمن الثاني القصور والمنتزهات، وجلب اليها الماء من الجبال وأقام الجسور، وبنيت في أيامه المساجد الكثيرة والمدارس. على

١ الجزء الثاني من كتاب فياردو

٢ فقد رووا عن عبد الرحمن الثاني أنه كان له جارية اسمها طروب أغضها مرة فهجرتها ونزلت مقصورتها. فاشتد قلقه لهجرها وضاق ذرعه من شوقها. وأراد أن يسترضيها فأعياء ذلك فارسل مع خاصة خصيائه من يكرها على الوصول اليه. فأغلقت بابها في وجوههم وآلت ان لا تخرج اليهم طائفة ولو انتهى الامر الى القتل. فانصرفوا وأعلموا الامير بذلك واستأذنوه في كسر الباب عليها. فهاهم وأمرهم بسد الباب من خارج بيدرا دراهم. فعملوا وبؤء عليها بالبدر وأقبل حتى وقف بالباب وكلامها على أن لها جميع ما سد به الباب. فأجابت وفتحت البواب فأنهالت البدر في بيتها فأكبت على رجليه تقبلها وحازت المال (نفع الطيب طبع لروبا جزء ٩ صحيفة ٢٥٥)

ما كان عليه من الكلف باللهو والميل الى الجوارى .^١ وكان مُلك عبد الرحمن الناصر بالأندلس في غاية الفخامة والضحامة ، كما يعلم من مقابلة رسل الملوك له ، فقد أمر أن ينلقوا أعظم تلق وأنخمه .^٢ وامتدت الثروة والأبهة الى الحجاب والوزراء . فقد أهدى أحمد بن عبد الملك بن شهيد الذي استوزره الناصر هدية لسيده ، قال فيها ابن خلدون : انها تدل على ضخامة الدولة الأموية واتساع أحوالها . وقالوا انها عبارة عن خمسمائة الف مثقال من الذهب العيين ، وأربعمائة رطل من التبر ، وخمس وأربعين الف دينار من سبائك الفضة ، واثني عشر رطلا من العود الهندى ، ومائة وثمانين رطلا من العود المتخير ، وثلاثين شقة من الحرير المرقوم بالذهب للباس الخلفاء المختلفة الألوان والصناعات ، وعشرة أفرية ، من غالى جلود الحيوان الخرسانية ، وغير ذلك

وكرت القصور والمساجد وغيرها من الأبنية العامة الى درجة عظيمة فقد كان عدد الدور في قصر قرطبة أربعمائة دار ونيفا وثلاثين . وكان عدة دور الرعايا مائة ألف وثلاثة آلاف دار ، وبلغت ديار أهل الدولة ثلثمائة وستة آلاف ، وبلغ عدد المساجد بها سبعة وثلاثين وثمانمائة وثلاثة آلاف وعددا للحمامات سبعمائة^٣

١ أعطى جاريته حلياً قيمته مائة ألف دينار فقتل له ان مثل هذا لا يلقى أن يخرج من خزانة الملك فقال ان لا يسه أنفس منه .

٢ رتب الناصر لحجابه رجالا من الموالي ووحوه الحشم وصاروا الى قصر منية الحكم ولى العهد وكانوا ستة عشر رجلا لاربعة دول اسكل دولة أربعة رجال ، ورحل الناصر من قصر الزهراء الى قصر قرطبة لوفود الروم عليه فقمعد في بهو المجلس الزاهر ، وحضر الوزراء على اختلاف مراتهم ، ووقف الحجاب من أهل الخدمة من أناء الوزراء والموالي والامراء . وقد بسط صحن الدار بمتاق البسط وظللت أبواب الدار وحتاياها بظل الديباج ، ورفيع السطور ، حتى ان رسل ملك الروم عند ما وصلوا ورأوا ذلك دهشوا من بهجة الملك وفخامة السلطان وقدوا كتاب ملكهم صاحب قسطنطينية وفيه وصف هدية عظيمة ارسلت الى الناصر

٣ نفع الطيب طبع أوروبا جزء ١ ص ٣٥٥

الغناء ومجالس الأدب

أما مجالس الغناء واللهو فقد غصَّت بها المحافل، وشغلت أكثر أوقات الشعراء. وفتقت ألسنتهم بقول الشعر الجميل، وفتحت عليهم أبواباً من الخيال. وزاد في الاقبال عليهم ميل الخلفاء والامراء وأهل الظرف والادب والنساء الشواعر^١ جاءت صناعة الغناء الى الاندلس من المشرق، لانها كانت وهى فى أوج عزها عند العباسيين من الفنون الناضجة، ومن اكبر وسائل السرور والتسلى. واستاذ المغنيين فى الاندلس زرياب (أبو الحسن على بن نافع مولى المهدي العباسي)، قدم الى الاندلس بأمر الحكم بن هشام المتوفى سنة ٢٠٦هـ. ولما أخبر بوفاة الحكم قبل وصوله الى الاندلس هم بالرجوع، فجاءه كتاب من عبد الرحمن بن الحكم يذكر تطلعه اليه وسروره بقدومه عليه. وكتب الى عماله على البلاد أن يحسنوا اليه ويرافقوه الى قرطبة. وأمر خصياً من اكبر الخصيان أن يتلقاه، فدخل هو وأهله البلد ليلاً، وأنزله فى دار من أحسن الدور، وحمل اليها جميع ما تحتاج اليه، وكتب له فى كل شهر بمائة دينار راتباً، وأن يجرى على بنيه الذين حضروا معه عشرون ديناراً كل شهر لكل واحد منهم، وأن يجرى على زرياب من المعروف العام ثلاثة آلاف دينار، وأن يقطع له من الطعام العام مائة مَدَى. وأقطعه من الدور والمستغلات بقرطبة وبساتينها ومن الضياع ما يقوم بأربعين ألف دينار. ولما استدعاه الى مجالسه وسامع غناؤه ترك كل غناء سواه، وأحبه حباً جماً، وقدمه على جميع المغنيين وشره بالأسكل معه، لما عمله من فضله وأدبه. وكان زرياب مغرمًا بفنه، حتى أنه كان يدعى أن الجن كانت تعلمه،

١ فقد كان عبد الرحمن الثانى مولماً بالسامع مؤثراً له على جميع لذاته. نفخ الطيب طبع
اروبا جزء ١ صحيفة ٢٥٥

فكان يهب من نومه فيدعوا بجاريته غزالات وهنيده فيأخذان عودها ، ويأخذ هو عوده فيطارحهما ليلته ، ويكتب الشعر ، ثم يعود عاجلاً الى مضجعه . وزاد زربل في أوتار العود وتراً خامساً اختراعاً منه ، وزيادة على الصنعة القديمة . وكان يحفظ عشرة آلاف صوت من الاغاني بألحانها . قالوا وهذا العدد من الالحان هو غاية ما ذكره بطليموس واضع هذا الفن . واختص بنوع من الصناعة في تعليم الغناء وضرب العود ، صارت منهجاً لمن جاء بعده ، وكان عالماً بكثير من العلوم والفنون ، أديباً ظريفاً ، حسن الحديث والمسامرة .^١ وكانت له جارية اسمها متعة أديبها وعلمها أحسن أغايه . وعرفت حمدونة ابنته بألقابها هذه الصناعة . وأخذ عن زربل الغناء كثير من الرجال والنساء

وكانت مجالس اللهو والطرب خاصة بغناء الأشعار والرقص والزاقصات ، وفي جميع البلدان أصناف من الملاحى والرواقص المشهورات بحسن الانطباع واللعب بالسيوف وغيرها ، كما كان من بين المغنين كثير من كبار القوم ، مثل عبد الوهاب بن حسين الحاحب ، «الذى كان وحيد دهره في الغناء الراقى ، والأدب الرائع ، والشعر الرقيق ، واللفظ الأنيق ، ورقة الطبع ، واصابة النادرة والتشبيه المصيب .» وكان قد قطع عمره وأفنى دهره في اللهو والطرب ، وهو أعلم الناس بضرب العود» هذا كله يدل على حسن الذوق ، ورقة الطبع ، اذ كلما أمعن الانسان في فنون الجمال دل على رقة ذوقه . ولو أن العرب عرفوا شيئاً من بلاغة اليونان والرومان لجاروهم في فنون التمثيل واختراع القصص ولكنهم قنعوا من ذلك بما كان لهم في مجالس الأدب والغناء واللهو والشرب التى تفنن الكتاب والشعراء في وصفها^٢ واشتملت

١ راجع أخبار زربل في الباب السادس من نفع الطيب والجزء الثانى من تاريخ دوزى صفحة ٨٩

٢ كتب بعضهم يستدعى عود غناء فقال :
انتظم من اخوانك أعزك الله عقد شرب يتساقون في ودك ، ويماطون ربحانة شكرك وحمدك ،
وما منهم الا شره المسامع الى رنة حمامة نادى لا حمامة بطن واد . والطول لك في صلتنا بمحماد
تأطى قد استعار من بنان لسانا ، وصار لضمير صاحبه ترجانا . وهو على الاساءة والاحسان
لا ينفك من ايقاع به ، في غير ايجاع به ، فان هنا عركت اذنه وادب . وان تأتى واستوى بجمع
بطنه وضرب . لا زلت منتظم الجذل ملتئم الامل .

أغاني الأندلسيين على كثير من أغراض الشعراء ، فكانت تشمل مدح الأمراء ، ووصف القصور والحدائق ، والخيول والفرسان ، ومجالس الشرب في الولائم . وغير ذلك من الموضوعات الكثيرة المختلفة ، التي نشأت من أحوال الاجتماع هناك وأوحت بها إلى نبوس الشعراء تلك الحياة الاجتماعية ، وطبيعة البلاد وما بها من رغد في العيش ، وساعد هذا كله على نمو الشعر العربي .

وقد كانت أغاني العشاق تدل على أثر المرأة في النفوس والاجتماع . لأنها كانت ذات مكان عظيم ومنزلة رفيعة وأثر ظاهر في الحركة العقلية ، بل كانت تسابق الرجال فتسبقهم أحياناً ، واشتهر عدد عظيم من النساء في الشعر والأدب كما هو معروف . ولم تكن صلة المرأة بالرجل صلة قلبية أو نفسية لا غير ، بل كانت صلة احترام واحلال ، لظهورها في ميدان الجِد والعمل ، واشتركا معها الرجل في أحوال الاجتماع ، ولأثرها في مجالس الأدب وفنونه . وكان ذلك في أكثر طبقات النساء . فقد كان لعبد الرحمن الناصر جارية حسنة الخط ، راوية للشعر ، حافظة للأخبار ، عالمة بضروب الأدب . وكانت العبّادية جارية المعتمد أدبية ظريفة ، كاتبة شاعرة ، ذاكرة لكثير من اللغة ، معدودة من علماء اشيلية . فكانت المرأة هناك أرقى وأجل منها في أوربا ، وحبا ممزوجة بأشياء من الوجد والاجلال معاً . وازدانت مجالس الغناء بالغانيات المطربات من الجوازي وغيرهن ، وكان فيهن من هو أمهر من الرجال في هذه الصنعة ، وأكثرهن وفاء من المشرق . كالمغنية فضل التي اشترت من المدينة للأمير عبد الرحمن الأول . فقد نشأت في بغداد وتعلمت الغناء وبرعت فيه ، واشتهرت في هذا الفن شهرة عظيمة . وكان يؤثرها عبد الرحمن على غيرها لجودة غنائها . وكانت قمر جارية إبراهيم بن حجاج اللخمي صاحب اشيلية من أهل الفصاحة والبيان والمعرفة بصوغ اللحن . قالوا وجلبت اليه من بغداد وجمعت أدباً وطقاً ورواية وحفظاً ، مع فهم بارع وجمال رائع . كذلك كانت حالة الغناء من حيث الاهتمام به والاقبال عليه من أعظم مظاهر العقول والأدب

وكانت مجالس الأدب في الأندلس من أكبر مسارح الافكار ، وأنعم مظاهر الجلال ، وأجمع أنواع الأدب واللهو والجِد والهزل ، ومظهر الحياة العقلية

والاجتماعية . والشعراء فرسان هذا الميدان . والكلام وحده آلة التعبير عن ذلك بأساليبه المختلفة البليغة . وكان الشعر نشوة الشارب ، وغناء الراقص ، ومؤدب النفوس وزاجرها ، وسلوة الفقير والغني ، وممزة الشريف والسوقي ، وكانوا جميعاً على فهمه أقدر ، وعلى الاقبال عليه أسبق ، وكل اذن واعية عند سماعه خاشعة لروعة بلاغته ، لانه كل مظاهر الحسن والجمال في مجالس الخلفاء والامراء . كذلك كانت روعة تلك المجالس في الشعر وبلاغة الكلام . وكان من أهل الأدب هناك الوزراء والكتاب ، والعمال وجباة الاموال والمستعملون في أمور الدولة ، والخلفاء أنفسهم ، وكثير من أولادهم ونسائهم ومن يحضر مجالسهم . فبرع أهل الأندلس في فنون الادب والشعر براعة شهد لهم بها جلة الناس ، وكانت مجالسهم لذينة ومحاضرم فكهة . والشعراء كثيراً ما تحملهم هذه المجتمعات وما فيها على الارتجال والابتكار .

« حضر أبو عامر بن شهيد ليلة عند المظفر بن المنصور بن أبي عامر بقرطبة فقامت تسقيهم وصيفة عجيبة صغيرة الخلق ، ولم تزل تسهر على خدمتهم الى أن هم جند الليل بالانهمزام ، وأخذ في تقويض خيام الظلام ، وكانت تسمى أسياء ، فعجب الحاضرون من مكابذتها السهر طول ليلتها على صغر سنها . فسأله المظفر وصفها فصنع ارتجالاً .

أفدى أسياء من نديم ملازم للكؤوس رائب
قد عجبوا في السهاد منها وهي لمعري من المعجائب
قالوا تجافى الرقاد عنها فقلت لا ترقد الكواكب

ومن البدهاة في المجالس أيضاً ورسوخ ملكة الابداع في النفوس ، ما قيل عن ابن شهيد هذا ، وذكره ابن بسام . « أن جماعة من أصحاب ابن شهيد قالوا

١ من ذلك ما قيل « الاندلس عراق المصرب عزة أنساب ورقة آداب . واشتغالا بفنون العلم واتننا في المنشور والمنظوم ، لم تضق لهم في ذلك ساحة ولا انصرفت عنه راحة ، فامر فيها بمصر ألا وفيه نجوم وبدور وشموس ، وهم أشعر الناس فما كثرة الله في بلادهم ، وجعله أعينهم من الاشجار والاهار والاطيار والكؤوس ، لا ينازعهم في هذا الشأن متازع ...

له يا أبا عامر ، انك لآت بالعجائب وجانب بدوائب الغرائب ، ولكنك شديد
 الاعجاب بما يأتي منك ، هاز لعطفك عند النادر ، تباح لك ، ونحن نريد منك أن
 تصف لنا مجلسنا هذا . وكان الذي طلبوه منه زبدة التعنيت ، لان المعنى اذا
 كان صليفاً ثقيلاً على النفس ، قبيح الصورة عند الخس ، كلت الفكرة عنه وان
 كانت ماضية ، وأساءت القريحة في وصفه وان كانت محسنة . وكان ما في المجلس
 باب مخلوع معترض على الارض ، ولبد أحمر مبسوط قد رصت خفافهم عند
 حاشيته . فقال مسرعاً

وفتية كالنجوم حسناً	كلهم شاعرٌ نبيلٌ
منغذ الجانبين ماضٍ	كأنه الصارمُ الصقيلُ
راموا النصرافي عن المعالي	والغرب من دونها كليلُ
فاشتد في أثرها فسيحٌ	كلٌ كثير له قليلُ
في مجلس زانه التصابي	وطاردت وصفه العقولُ
كأنما بابه أسيرٌ	قد عرضت دونه نُصولُ
يرادُ منه المقالُ قسراً	وهو على ذاك لا يقولُ
ننظر من لبدة لدينا	بحر ديم تحتنا يسيلُ
كأن أخافنا عليه	مراكبٌ مالها دكيلُ
ضلت فلم تدر أين تجري	فهى على شطه ثقلُ

فعجب القوم من أمره

« ودخل الوزير أبو الملاء زُهر بن الوزير بن مروان على الأمير عبد
 الملك بن زرّين في مجلس انس ، وبين يديه ساق يسقى خمرين من كأسه ومن
 لحظه ، ويبدي دُرّين من حبابه ولفظه ، وقد بدا خط عذاره في صفحة خده ،
 وكل حسنه باجتماع الضد منه مع ضده ، فكأنه بسحر لحظه أبدى ليلاً في شمس ،
 وجعل يومه في الحسن أحسن من أمس ، فسأله ابن رزّين أن يصنع فيه فقال بديها
 نضاعف وجدى اذ تبدي عذاره وتم نغان القلب منى اصطباره

وقد كان ظني أن سيحقق ليَّله بدائع حسن هَام فيها نهاره
فأظهر ضدهً اذ وشت له بعنبره في صفحة الخلد ناره
واستزاده فقال بديها

نُحيت آيةُ النهار فأضحى بدرتم وكان شمسَ نهار
كان يعشى العيون نوراً إلى أن شغل الله خدّه بالعدار
وكانت مجالس الأدب من بواعث قول الشعر، ومجاراة بعض الأدباء بعضاً في
ذلك . قالوا: « ان ابن العريف النحوي دخل على المنصور بن أبي عامر وعنده صاعد
اللقوى البغدادى ، فأنشده وهو بالموضع المعروف بالعامة
فالعامة تزهى على جميع المباني
وأنت فيها كسيف قد حلَّ في عُمدان
فقام صاعد وكان مناقضاً له . فقال أسعد الله الحاجب الأجل ، وممكن سلطانه .
هذا الشعر الذى قاله قد أعدّه ، وأنا أقول أحسن منه ارتجالاً . فقال له المنصور قل
ليظهر صدق دعواك . فحمل يقول من غير فكرة طويلة .

يأيها الحاجبُ المتسلي على كيوان
ومن به قد تناهي نهار كلِّ يمان
العامة أضحت كجنة الرضوان
فريدة لفريد ما بين أهل الزمان

الى ان قال :

أنظر الى النهر فيها ينساب كالثعبان
والطير يخطب شكراً على ذرى الأغصان
والقضب تلتف سُكراً بميس القُضبان
والروض يفتّر زهواً عن ميسم الأقحوان

والنرجسُ الغضَّ يَرنو . بوجنةِ النُّعْمانِ
وراحةُ الريحِ تَمْتَنَّا رُ نَفحةَ الرِّيحانِ
فدم مدَى الدهرِ فيها في غِبْطَةٍ وأمانِ

هذا أدل في جملته على مكانة الشعر في النفوس ، وأنه شيء من روائع القول وجمال الكون . وهذا من مميزات الشعر العربي ، وهي جمال الشعر الوجداني . لأنه ينقلنا من عالم الحقائق المؤلمة الى عالم الأحلام والخيال ، حيث يتذوق الانسان السعادة ، وينسى آلام الحياة وكوارثها . وذلك هو الغرض من فنون الجمال . لاننا اذا كنا في حاجة دائمة الى الاتصال بالحقائق وأدراكها لفهم الأشياء ، فاننا كثيراً ما نكون أحوج الى الابتعاد من ذلك

« حضر أبو المُطَرِّف بن عبد العزيز مع ابن عمار الوزير عند المؤمنين في يوم جادت فيه السماء بهطلها ، وأنبعتْ وبَلَّهَا بِطَلْمًا ، وأعقب رعداً برقها ، وانسكب دراكاً وذقها . والازهار قد تجلَّت من كِثَامِها ، وتحلَّت بدرغمامها ، والأشجار قد جَلَى صداها ، وتوشحت بنداها ، وأكسُوس الراح كأنها كواكب تتوقد ، تديرها أنامل تكاد من اللطافة تُعَقِّد . اذا بفتى من فتيان المؤمنين أخرس لا يُفْصَح ، مستعجم لا يبين ولا يوضح ، متمر تنمر الليث ، مشمر كالبطل الباسل عند الغيث ، وقد أفاض على نفسه درعا ، تضيق بها الأُسنة ذرعا ، وهو يريد استشارة المؤمنين في الخروج الى موضع بعنه ووجهه اليه فكل من صده عنه نهره ، حتى وقف الى مكان انفراده ، ووقف بازاء وساده . فلما وقعت عين ابن عمار عليه ، أشار بيده اليه ، وقربه واستدناه ، وضمه اليه كأنه تبناه ، وجدَّ أن يخلع عنه ذلك الغدير ، وأن يكون هو الساقى والمدير ، فأمره المؤمنين بخلعه ، وطاعة أمره وسمعه ، فنضاه عن جسمه . وقام يسقى على حكمه ورسمه ، فلما دبَّت فيه الحياء ، وسبت غرامه بهجة ذلك الحياء ، واستنزلته سورة العُقار ، من مرقب الوقار قال

وهويته يسقى المدام كأنه
متأرجح الحركات تندى ربحه
يسعى بكأس في أنامل سوسن
يا حامل السيف الطويل نجاده
اياك بادوة الوغى من فارس
جهم وإن حسر القناع فأنما
يطغى ويلعب في دلال عذاره
عنا بكأسك قد كفتنا مقلة
هذا شيء يسير من مجالس الأدب وأحوال الاجتماع في الأندلس

قر يدور بكوكب في مجلس
كالفضن هزته الصبا بتنفس
ويدير أخرى في محاجر نرجس
ومصرف الفرس القصير المحبس
خشن القناع على عثار أملس
كشفت الظلام عن النهار المشمش
كالمهريد راج في اللجام المجرس
حوراء قائمة بسكر المجلس
«

النثر في الأندلس

كان الشعر في أكثر عصور اللغة العربية أشهر من النثر ، ولذلك كان الشعراء أشهر من الكتاب ، لأن البلاغة في الشعر أظهر ، والأخيلة فيه أبين ، وقراء العربية كانوا الى التأثير بهذه الأساليب والصناعة أقرب . وكانوا يفهمون من الأساليب ما لا يفهمون من الموضوعات ومعانيها وأغراضها .

ومع أن النثر في المشرق كان أقل من الشعر انتشاراً ، وكان في المرتبة الثانية من حيث أنه صورة من صور البلاغة العربية ، أو من حيث الاعتماد عليه في الاستدلال على أساليب العرب وصحة لغتهم ، فقد تنوعت مناحيه ، وظهرت له مذاهب وطرق ، كذهب ابن المقفع وطريقته ، ومذهب الجاحظ وأسلوبه ، وطريقة ابن العميد والحريري ، وغيرهم كما هو معروف .

أما في الأندلس فقد وسع كل أساليب العرب في المشرق ، من كلام مرسل سهل ، وعبارات يتخللها سجع غير متكلف ، أو كلام مسجوع متعمل . وكانت هذه الأساليب كلها ظاهرة في جميع العصور ، وعلى السنة الكتاب وأقلامهم ، حاشا العصر الأول الى أواسط دولة بني أمية ، حيث كانت الكتابة سهلة قليلة السجع ، كما في خطبة طارق وكتب الامراء من بني أمية .

وقد ألف عرب الأندلس في العلوم والفنون ، فكان اشتغالهم بالتأليف والكتابة والعلم من الأسباب التي جعلتهم يطرقون هذه الموضوعات في كتاباتهم ، فلم تقتصر الكتابة النثرية على الدواوين والرسائل ، قصيرة كانت أو طويلة . مسجعة أو مرسلة ، في العشق والغرام ، أو في الظم والولم ، أو في المدح

والاستعطاف، وغير ذلك ، مما يظهر لأول وهلة أنه ليس من الموضوعات الممتعة ، والمعاني العامة الاجتماعية ، بل شمل كل شيء في الاجتماع هنالك ، وكان مظهرًا لتلك المدنية ، والحالة العقلية والسياسية والعلمية . وكان أثره في الأدب والبلاغة كأثر الشعر ، لاشتماله على كثير من أغراض الكتاب . كوصف المباني الفخمة من كنائس ومساجد ، وقصور وآثار ، وما فيها من صور وتمائيل . وكوصف الأشياء الجميلة التي غنموها أو عملوها بأيديهم . ووصف محافل الأمراء والخلفاء وأبهة الملك ، والمجادلات والخصامات ، ومجالس الملم والأدب . وطرق الموضوعات العامة الاجتماعية والفلسفية . بشكل قصصي . كما في رسالة «حى بن يقطان» لابن طفيل . وكتابة الحقائق في أسلوب قصصي خيالي ، كما في رسالة الوزير أبي عامر أحمد بن أبي مروان ابن شهيد التي هي من نوع رسالة الغفران ، وكالرسائل الطويلة المملوءة بالمعلومات التاريخية ، كرسالة أبي محمد بن حزم الحافظ التي ذكر فيها بعض فضائل أهل الأندلس من علماء وأدباء وحكماء ومؤرخين ، وسرد فيها آثرهم ومؤلفاتهم . ثم تلك الرسائل الفريدة في بابها التي هي من نوع رسائل ابن زيدون . ثم كتابة الفتح بن خاقان ولسان الدين بن الخطيب وما يشبهها مما لم يكن مثله كثيراً في بلاد المشرق ، بل بعض هذه الأنواع لم تكن معروفة

وكانوا يصفون في كتاباتهم نفوس الكبراء والأمراء والقواد ، كما كتبوا في المناظرات الخيالية ، كالمناظرة بين السيف والقلم لابن برد الأصغر . وكالمناظرة بين بلدان الأندلس لابي بحر صفوان بن ادريس .^١ وكما كتبوا في الدعوات والأرشاد والتوسل الى الرسول وفي شعائر الحج .^٢ وكانت لهم أساليب في الزهد والاسرار الربانية عرف الكتاب كيف ينصيدون فيها ألفاظ الزهد والتصوف .^٣

١ التي كتبها للامير عبد الرحمن بن السلطان يوسف بن عبد المؤمن . وهي من الرسائل الطويلة المملوءة براجع نفع الطيب طبع أوروبا جزء ١ صحيفة ١٠٥

٢ من ذلك ما كتبه الوزير الفقيه أبو القاسم محمد بن عبد الله بن الجدد عن لسان من رجع من الحج . وهي من نوع الدعاء أو التوسل بالرسول راجع الذخيرة جزء ٢

٣ من تلك المرفة في المسكوت . ونجوم الحكمة في الجبروت . وحياة القدس . ولباس التقوى والصراط المستقيم . وراشتك الطبيعة برش النهى حتى تصير مع الروحانيين في مجال الصديقين ومنازل المقرين الخ وغير ذلك من ألفاظ الغيبات وأساليب ما وراء المادة . راجع رسالة الفقيه ابن عمر احمد بن عيس الالبيري في الذخيرة من الجزء الاول

وفي جوار ذلك تجدهم برعوا في أساليب اللهو والمجون ..^١ ولهم عبارات نحسب من الخيالات الجميلة والسجع المتكلف السائغ للنفس تذوقه^٢.

وبرعوا في فن المقامات. ولأبي حفص عمر بن الشهيد فصول جيدة في ذلك ، تشبه ما عند الفرنجة الآن ، أو يشبهها ما هو عندهم . وفيها أوصاف خيالية تدل على براعة في انتقاء الألفاظ والمعاني ، وأمعان في الصناعة وضروب الخيال^٣ وتوجد

١ كما بحث بعض الكتابات بترجة وكتب معها كتابا يقول فيه : قد بحثت اليك من نبات الثمار اجلها ، ومن نتائج البستان أفضلها . فشربت على ورد هارطلين ، وتناولتها بالاحتين ، فبحرمة الكأس التي رضنا ، الا ما رفعت قدرها ، وجعلت القبول مهرها ، وجعلتها على مجلس المدام ، وحجبتها عن عيون اللثام ، فخصاها عجبية ، وصفاتها غريبة ، ان خزنتها عطرت أثوابك ، وان أمسكتها أذهبت أوصابك ، وان أعملت فيها غرب السكين ، قرنت لك بين النرجس والياسمين وارثك الكشب على وجه الحبيب . يالها من أترجة غضة ، قد صورت من ذهب وفضة ، سرقت من العاشق سيماء ، ومن المعشوق طعم ثناياه .. الذخيرة جزء أول

٢ مثل قولهم خرج الوزير أبو بكر بن عمار والوزير أبو الوليد بن زيدون ومعهما الوزير ابن خلدون من أشيلية الى منطرة لبني عباد بموضع يقال له الفت . تحف به مروج مشرقة الانوار . متنسمة الانجاد والاعوار . متبسمة عن ثنور النوار ، في زمان ربيع سقت الارض السحب فيه بوسيتها ووليها . وجللتها من زاهر ملبسها وباهر حليها . وادراف الربى قد تآزرت بالازار الخضر من نباتها . وأحياد الجداول قد نظم النوار لثامه حول لباتها . ومجاسم الزهر تمطر أردية اللسائم عند هباتها . وهناك من البهار ما يزهى على مدهان النضار ومن النرجس الريان ما يهزأ بنواعس الاجفان . وقد نووا الافراد اللهو والطرب والتزهر في روضي النبات والادب . وبعثوا صاحباهم يسمى خليفة هو قوام لذتهم ونظام سرتهم الخ
نفع الطيب ج ٢ ص ١٦٣

٣ كقول أبي حفص بن الشهيد ... وقد صحبتكم مدة . وسبحت الله على رؤوسكم مرارا عدة أوقظكم بالاسحار . وأوذن بالليل والنهار . وقد أحسنت لدجاجكم سفادا . وريت لكم من الفرائج أعدادا فالان حين بلى في خدمتكم تاجي . انمى الى دجاجي . وتنحى الشفرة على أوداجي . وحين أدركني المشيخ يمزق لحى ويطبخ ، بالسكرام من ذل هذا المقام ، وجعلت دموعه تسفح من دمه . والحزن يطبق على فمه . ثم غشى عليه ، فاجتمعت الناس اليه ، يضربون وجهه بالماء . ويخلصون له في الدعاء ، ثم أفاق من غشيتة وأنشد :

علام يقتل شيخ	من كل ذنب يرى
محقق متحد	موحد سني
هل نص هذا كتاب	أو قال هذا نبي
لا ذنب لي غير أني	مؤذن بدوي

لهم كلاما مسجعا هو من السهل الممتنع، مع رقة في اللفظ، وجزالة في المعنى، وطول لا يمل، وصراحة في القول، وحرية في الفكر^١.

وأحيانا نجدهم وصلوا الى درجة في النثر لا تفرق بينها وبين الشعر ألا في

فرقت له نفس القوم. وأقبلوا على صاحب المنزل باللوم. فقال ويحكم. ان هذا الديك ذو فخذ وصدره قد أصابني عليه ضجرة. ولى في ذبحه سر، ولا بد أن تزين به قدر، وتضرم تحته النيران، ويشيع من لحمه الضيقان. اما تزونه قرة العين والقلوب بسيكة لجين وتمثل.

ومن شيعي مها تزين منزلي لضيفي ان أقره أحسن ما عندي
لو ان دمي خمر لا رويته به ولو صلحت كبدي شويت له كبدي
بذلك أوصاني ابي منذ عقلته وقد كان أوصاه بهذا قبله جدي

فقال الديك: لا اكذب، الحق طريق مستبين. واتباعه مروءة ودين. اما انه على خلق عظيم كريم ابن كريم. غير أنه لؤم في امرى. وأفرط وغلط ماشاء أن يغلط. اما علم ان هرمات الديوك ليست من مطاعم الملوك. وأنها بالادوية أشبه منها بالاغذية. واقسم لو اتخذ برمة من فؤاد مهجور ووضعني من مثله على تنور، لا قضى به حاجة، ولا عدم مني فقرا ومجاجة.. فزكى قوله من حوله. ولم يألوه تعظيما، واتخذوه من ذلك اليوم حكيمًا. وصرف البدوى من الطافه، أحسن منه قرى أضيافه، وختم توبة يره بالرغبة في بسط عذره. وسمعنا منه ورحلنا سحرا عنه. م. الى ان قال.
فأصنيت فاذا انا بصوت ناقوس في دير قسيس. وقرية كلها حانة دار البطاريق. وملعب الكأثس والاباريق. سائمتها خنازير. وحياضها المعاصير. ومياها الانبذة والجور. وشكلها مثل مسطوح هندسته حوارى نباتها غصون من قدود تهتز في أوراق من برود. وتشير رمانا من نهود. وتفاحا من خدود. وعقارب من أصداغ. وأفاعى من أسورة وعقود. وفيها مدام من رضاب. وشفاة من كواعب أتراب، وغيد تهوى بقرط، وارتجاج لكثيب في سرط، وجولان النطاق، وعض الخنخال في ساق، وخنث في ألفاظ، ومواعيد بالحاظ، وقلوب تكلف وتشفف، ونفوس تنشأ، وأخرى تتلف. فلما كثر تحدثنا بحضرة الفقيه من هذا التشبيه قطبنا له وجوه الاستكرام، وعضضنا له الشفاة. فبينما نحن كذلك تكثر لفظا، ونزى الحلول بالمستحسن غلطا، اذ نظرنا الى أطراد صفوف من أعطاف حسنة، وخصور هيفة، وشمس واقار، على أفلاك جيوب وأزوار، لاسيوف الا من مقل ولا درق الا من عجل. ولا طارض الا من خلوق، وأقسم بنعمة قد ودهن ألا جزتم المنة، وثنيت الاعنة، ترميحا علينا اليينا وتحكما في المال والولد لدينا. فكرمت الشفاعة، وقلنا السمع والطاعة

١ كما في رسالة لابن الحداد :

لما كان الكتاب أعزك الله جلاء الاقضاء، وصقال الاصداء. وعقال الادواء. وسمتني منه بوسام. ولفتحني منه بسموم. وأسرت حسوا في ارتفاء وأدجت ذما في ثناء، والحر يأنف من الضيم. ويشتمز من الذم. ولا يقتصر على الاجزاء، بغير الجزاء. ولوترك القطا ليلا لنام. وفي العتاب حياة بين أقوام. فاصطبر لشرب صبره. وانتدب لتسوغ مره. فمن الحكم العدل، والقضاء

الوزن وقواعد العروض^١. ومن السجع الجميل والاساليب المزوجة بالحقيقة والخيال أسلوب ابن بسّام في الذخيرة وترجمته الادباء والشعراء^٢ وتجدد مع هذه الرقة اللفظية والذوق الأدبي الفني^٣، أنواعا من الرسائل الطويلة المسجوعة سجعاً متكلفاً مملاً، مملوءة بالتعميل، كثيرة الصناعة، قليلة المعاني^٤. وإمام هذه الصناعة لسان الدين بن الخطيب. والفتح بن خاقان طريقته معروفة في كتبه. حتى أصبح السجع طابعاً من طوابع الأدب العربي في الأندلس وتسلسل الفقهاء مناصب الخطابة والكتابة. فنفضوا الأدب بنفحة جافة جف من أجلها عوده، حتى كسر أو كاد يكسر. وبلغ هذا منتهاه في أيام ابن تاشفين

وعلى الرغم من رقي النثر في الأندلس فإنه لم يخرج عن صبغته العامة، وهي الاعتماد على الخيال والصناعة اللفظية. غير أن الكتاب حاولوا كما قلنا طرق

الفصل. إن الذمك بما لذعتني. وأجرعك ما جرعتني. غير آفك في حال. ولا مباهت بمحال. والتوحيه ليس من خلق الكاذب اللبيه. والحر على ما أساء يصر. وكل مجر في الخلاء يسر. والفضل لمن حواه. لا لمن زخرف دعواه. وتحقيق البرهان. غير تنميق البيان. والسؤدد في محاسن الخلال والفعال. لا في إمكان الزمان. وأقبال السلطان. وقيمة كل امرئ ما يحسن. أمثال أضر بها عليك. واضحة المناهج. ومقدمات أنشأتها معك، صادقة النتائج. وجل تشتمل على تفصيل حالينا، ونبد تشير الى ما فيه جريتنا. وقد قابلني عتابك. واجلابك. بريح تعصف ورعد يقصف. واستقبلني خطابك. وأطنا بك. بوبل يخسف. وسيل ينسف. بلغ الزبي وزاد. ونمر الربي والوهاد. الخ

١ كما في رقعة شفاعة كتبها ابو المغيرة عبد الوهاب بن حزم: اذا شرب روض الشكر من حوض البر. وأطلع من الزهر ما ينجل مسك الفرر وتنسم عن نسيم، يشنى حرارة القلوب الهيم ولم يزل يجري خلف الطلب، بيد الادب. ويسرى في ظلام الامور، بسراج المنظوم والمنثور. الخ الذخيرة جزء ١

٢ كقولہ فی ترجمۃ ابن شہید: کان أبو عامر شیخ قرطبة وفتاها، ومبدأ الغاية القصوى ومنتهاهما، ينبوع آياتها، ومادة حياتها وأساتها. ومعنى أسمائها ومسمياتها نادرة الفلك الدوار. وأعجوبة الليل والنهار. ان هزل فسجع الحمام. وان جد فزثير الاسد الضرغام. نظم كما انشق الدر، على النحور. ونثر كما خلط المسك والكافور. الخ.

٣ راجع كتاب لسان الدين بن الخطيب عن لسان سلطانه. نفح الطيب طبع أوروبا جزءا

ص ١١٤

الموضوعات العامة، كالقصص والحكايات الخيالية،^١ والمناظرات وغيرها، وابتكروا هذه الأساليب في النثر كما ابتكروا أساليب الموشحات في الشعر .

أما طول الكلام والاطناب فيه، فيكاد يكون عاما في جميع كتاباتهم. وبعض هذا الطول يعد من الأمور الفنية البهتة ، والافتنان في التصور والخيال ، وبعضه عمل سقيم ، يدل على تمكن الصناعة لاغير في نفوس الكتاب والعناية بالألفاظ والسجع ، بل يدل على انحطاط ملكة البلاغة ، كما في كثير من كتابات لسان الدين بن الخطيب والفتح بن خاقان وغيرهم من الكتاب .

وجملة القول أنه يمكن معرفة حالة النثر بالأندلس ، ودخوله هذه البلاد بخطبة طارق بن زياد ، التي قلنا انها أول صوت سمع هناك من بلاغة العرب وأول غرس من غراسها . فهذا كان نموذج النثر والخطابة في تلك الأيام الى أواسط دولة بني أمية . لأن الوافدين جاؤا من المشرق الى المغرب ، والدولة عربية في بيت بني أمية ، وروح البلاغة العربية البدوية كانت تجول في نفس كل خطيب وكاتب وشاعر . فالذين هاجروا الى بلاد الأندلس في الأزمنة الأولى كانوا لا يزالون أعرابا في أفكارهم وأخيلتهم وأساليبهم . ولذلك نجد النثر في تلك المدة يشبه كثيرا نثر الأمويين في المشرق، وخطاباتهم في الأندلس أشبه بخطبائهم في الشام وبلاد العرب . ولما كثرت الوافدون على الأندلس من المشرق نقلوا اليها طريقة النثر المسجوع ، والصناعة اللفظية ، والتنميق في الكتابة . وسرى هذا في كل أغراض الكتابة ، حتى في الكتب الفنية والعلمية ، من تاريخية وغيرها ومن تراجم العلماء والأدباء ، ومن كتب جدية وهزلية . ومن أشهر ذلك كتب الفتح بن خاقان ، كقلائد العقيان والمطمح وغيرها ، وتاريخ الاحاطة في أخبار غرناطة لسان الدين بن الخطيب . حتى أصبح من غير المستطاع أن يجد الانسان من يكتب نثرا غير مسجوع

١ كما في رسالة لابن شهيد على لسان الأوزة . راجع الذخيرة جزء أول

الشعر في الأندلس

البلاغة من نظم ونثر لها غرضان غرض فنى ، وهو ما بها من الجمال الذى يدعو الانسان الى السرور والاعجاب ، وارتياح النفس الى المعانى الجزلة ، والألفاظ المختارة ، وتناسق العبارات ، وحسن الأساليب ، وتأنق الترايب ، وغير ذلك مما ذكره العرب وتقادهم ، من أنواع المعانى والبيان البديع . ويدخل فى هذا النوع قدرة الكاتب أو الشاعر على الافتنان فى الصناعة ، ومقدار ماله من التصرف فى الكلام ، وما يدركه من أسرار هذا الفن ، مما يدل على عبقريته . وهذا الجزء الفنى من البلاغة هو أحد أركانها ، وأكبر دعائمها ، اذ بدون ذلك لاتعد البلاغة من فنون الجمال فى شىء .

والغرض الثانى هو الحقيقة المنطوية فى غضون ذلك الكلام ، التى يكشف بها الفنى عن كثير من المعانى الخفية فى النفوس ، وأسرار الكون ، وحقائق الموجودات ، والآراء الاجتماعية والفلسفية ، وصور الانسان والانسانية . فغرض الكاتب أو الشاعر البليغ أن يتسرب فى النفوس ، ويستولى عليها بجمال الافتنان ، وينعشها ويوقظها بأسلوبه وبيانه ، ويهذبها بمعانيه وما فيها ، ليرشدها الى حقيقة من الحقائق الانسانية . ولقد يدرك الفنى مالا يدركه غيره ، لأنه دقيق الادراك ، قوى الملاحظة ، سريع الخاطر ، تخترق نفسه الحجب فيرى بالايراه غيره . لذلك يمكن أن يكون مساويا للفلاسفة أو الحكماء فى الافاضة على الانسان من أسرار الكون وحقائقه .

والعرب يميلون الى جمال القول ويقصدون الى حسن العبارة والاستيلاء على النفوس بسحر الكلام . فكان الشعر فنا عربياً جميلاً ، وكان العربى شاعراً بطبيعته ، ونصيبه من أنواع الجمال قول الشعر الجميل . وكانت الفصاحة والبلاغة

مظهر الحياة النفسية العربية ودليلاً على جهود العقول وآثارها . وكلما نزل العربي
بمكان بذر بذرة الشعر فيه وتمهدها بالنمو ، فلما نزل أرض الأندلس غرسها
هناك ، فنمت في تلك الأرض الخصبة . فكانت كالزهرة الطيبة العرف
لقت بأصل آخر نضير الطلعة ، فظهر فيها أريج الطيب ونضارة اللون .
ذلك مثل الشعر العربي في بلاد الأندلس .

جاء الشعر بلاد الأندلس بصيغته الأولى البدوية ، وما لبث أن أخذ صبغة
جديدة بالتوسع التصور ، واختلاف المناظر ، والاطلاع على كثير من العلوم
، الآراء ، والميل إلى مزج الحركة العقلية بالحركة الاجتماعية : فشمل كل مظاهر
الافكار ومرافق الحياة . ولكن كثيراً ما كان الشعراء يرجعون في أساليبهم
وأفكارهم إلى الأساليب والافكار البدوية ، لأن العرب من أشد الأمم
عصبية وحنيناً إلى وطنهم وعيشتهم الأولى . إذ رغم ما كان في نفوسهم من
الأثر الذي اكتسبوه من تلك البلاد ، وما حصل لهم من الحياة التي لم يكن
لهم بها عهد في بلادهم ، كانوا لا يزالون يميلون إلى أخيلتهم الأولى ، ولم يكن
لهم أن يهجروا عاداتهم ، لأن العجب والخيلاء ، اللذين كانا لها السلطان على
عقولهم ، جعلاهم — حتى في تلك البلاد البعيدة ، وحتى بعد عدة قرون من
انتجاعهم إياها — يتغنون بذكر بلادهم ، ويتخذون الشعر القديم نموذجاً لهم في
الصناعة والخيال .

والذي يقرأ الشعر الأندلسي يجده أخصاً للشعر في بغداد ، بل وفي بلاد العرب
نفسها من حيث الصفات العامة ، والموضوعات التي كانت عند القدماء^١

على أن شعر الأندلس يمتاز في جملة عن الشعر العربي بما فيه من المعاني
المبتكرة الجميلة ، التي كان يعالجها الشعراء هناك من الوصف البديع ، والكلام
الرشيق ، والذوق النقي ، والافتنان في أساليب الخيال ، ولأنه يدل على حياتين

١ راجع قصيدة ابن الحداد في مدح المتعم في ابن خلكان جزء ٢

ويرسم صورتين من أحوال العربي : فبينما ترى الشاعر يصبو الى ذكر بلاده الأولى من حياته البدوية ، تجده يذكر الرياض والبساتين والأزهار والأنهار ، والمياه الجارية وظلال الأشجار والنسيم العليل والآراء العامة والخاصة وأحوال الاجتماع والعادات

هذا العقل المزدوج من البدو والحضر ظهر فيه جمال الفطرة ونضارة الحضارة ، وظهر هذا كله في الشعر . لأن الشعر كان مسرح العقول من جد وهزل وعلم وفلسفة . ولبث منتشراً زهاء ثمانية قرون بين الخاصة والعامة من العرب وسكان البلاد الأصليين كلقوط وغيرهم . وقال الشعر كثير من الأمراء . وسابق النساء الرجال في ذلك ، فكان أحياناً يسبقنهم ، وعن الناس هناك بالشعر عناية عظيمة ، فكانوا ينقشونه على جدران المساكن وأبنية الحكومة . واتصل بالحوادث العامة الاجتماعية . وكان من وسائل الرقي ، ومن دواعي السلم والحرب ، وفك أسر المسجونين ، والعفو عن المجرمين .

ولم تكدهم رسالة نثرية من الشعر ، حتى سرت عدوى الوزن والقافية الى النثر . وانتشرت طريقة السجع في جميع المكاتبات ، وهي محلاة بأبيات من الشعر ، حتى في الكتب العلمية ، ومكاتبات الحكومة ، وإجازات السفر . وكانت صناعة الشعر لازمة ، وروايته واجبة ، لمن يريد أن يندمج في حواشي الملوك . فقد كان الأدباء يجتمعون في حضرتهم للانشاد والمسابقة في ذلك ، كما كانت الحال في حضرة عبد الرحمن الأول ومن جرى على سنته ممن جاء بعده من الملوك والأمراء ، الذين كانوا يجرون المراتب والجوائز على الشعراء^١

وقد كان لنشاط العرب العقلي وصفاء قرأهم في قول الشعر ما كان لهم من العلوم والفنون ، بل زاد ذلك في الشعر لما لهم من ميلهم الفطري اليه والافتنان فيه . فقد وسع كل شيء من أحوالهم الاجتماعية والنفسية . فكانوا يصفون الكبراء

١ راجع الكلام على الشعر في الاندلس في كتاب
Von Schack . Poesie und Kunst der Araber

والعلماء ، ويمدحونهم بعبارات جميلة رقيقة ، أكثرها خال من المبالغات .
ويشونه شكواهم وآلامهم ،^١ ولهم قصائد في التقرب الى الله ومدح الرسول عليه
السلام ، والزهد والتصوف والثناء ،^٢ ولهم أشعار رقيقة في المزح والتهكم
والهجون^٣

١ كما في قصيدة ابن الرندي الشهيرة ورتاء ابن عبدون لبني الافطس وشكوى المعتمد بن
عباد مما اصابه في آخر حياته

٢ واجمع الجزء الاول من كتاب الذخيرة لابن بسام

٣ كما في قصيدة قاضي الجماعة بفرناطه ابي عبد الله بن علي بن الازرق. نذكر منها شيء
على سبيل الفكاهة قال:

عم باتصال الزمن	ولا تبالي بمن	وهو يواسي بالرضا	من سمح أو حسن
أو من عجز تحتطي	والظفر منها منحنى	أو من ملح مسعد	موافق في الزمن
مها تبدي خده	يبدو لك الورد الجنى	وان تمسه نظري	ومدهبي وتلهني
فالصنع تستوجه	نعم وثقب الذقن	وبعد هذا أشتفى	منك ويبري شجني
	واضرب الكف أمام	ذلك الوجه الدني	
	طقطق طق طقطق طق	اصغ بسمع الاذن	
	فحقق قع فحقق قع	الضحك يغليني	
أفدى صديقاً كان لي	بنفسه يسمدني	فتارة أنصحه	وتارة ينصحني
وتارة ألننه	وتارة يلعنني	وربما أصفه	وربما يصفني
أستغفر الله قه	ذا القول لا يعجبي	يأليت هذا كاه	فيما مضى لم يكن
أضحكت والله بذال	حديث من يسمني	دهر تولى وانقضي	عني كطيف الوسن
يأليتني لم أراه	وليتني لم يرني	دنست فيه جانبي	وملبسني بالدرن
وبعت فيه عيشتي	لكن يبخر الثمن	كانني ولست أد	رى الآن بما كانني
	والله ما التشيه عند	د شاعر بهين	
ومنها	هل أمتطي يوماً الى	شرق بطون السفن	
وأجتلي ماشته	في المنزل المؤمن	حينئذ أخلع في	هذي القوافي رسنى
وتحسن الفكرة بال	مدوس والسمنني	واللحم مع شحم ومع	طواق الكباش الثني
والبيض في المغلاة بال	زيت اللذيد الدهن	وجلدة الفروج مشو	يا كثير السمن
ومنها	هل للثريد عودة	الى قد شوقني	
	تفوس فيه أتملى	غوص الاكول المحسن	
ولى الى الاسفنج شو	ق دائم يطربني	وللارز الفضل اذ	تطبخه بالسين
	واللشواء	والرقا	ق من هيام أثنى

وقد نظموا التاريخ وحوادثه^١ . وبرزوا في وصف الأبنية الفخمة وما فيها من الصور والأشكال والزينة ، ووصف القصور والحدائق ومجالس الشرب والسمّر والغناء والرقص . كقول الشاعر :

يَارُبَّ لَيْلٍ قَدْ هَتَكَتْ حِجَابَهُ بِرُجَاةٍ وَقَادَةٍ كَالْكُوكَبِ
يَسْعَى بِهَا سَاقُ أَغْنٍ كَأَنَّهَا مِنْ خَدِهِ وَرُضَابٍ فِيهِ الْأَشْنَبُ
بَدْرَانِ بَدْرٌ قَدْ أَمِنْتَ غُرُوبَهُ يَسْعَى بِيَدْرِ جَانِحٍ لِلْمَغْرَبِ
فَإِذَا نَعْتَتْ بِرَشْفٍ بَدْرٌ طَالِعٌ قَانَمٌ بِيَدْرِ آخِرٍ لَمْ يَغْرُبِ
حَتَّى تَرَى زَهْرَ النُّجُومِ كَأَنَّهَا حَوْلَ الْمَجَرَّةِ رَبْرَبٌ فِي مَشْرِبِ
وَاللَّيْلِ مَنْحَصَرٌ يَطِيرُ غَرَابُهُ وَالصَّبْحُ يُطْرِدُهُ بِيَازٍ أَشْبَهَ

ووصفوا التنزه بالليل في ضوء القمر ، والأشجار وغصونها ، والرياح وهي تعبت بها وظلها الظليل ، وأشعة القمر على الجداول ، وصفاء الجو ، والفاكهة والأثاث والمساكن ، والقصور والصور . كقول الشاعر :

قَصْرٌ بِمَدْرَجَةِ النَّسِيمِ تَحْدُثُ فِيهِ الرِّيَاضُ بِسَرِّهَا الْمُسْتَوِرِ

ومنها وهات ذكر الكسكو فهو شريف وسنى
لاسيما ان كان معص نوعا بفنل حسن
ومنها وصننى غن ذاك قلا عة الوفا بالثمن
يه خليلي هذه مطاعم لكننى أعجب من ريقك اذ يسيل فوق الذفن
هل نلت منها شبعاً فذكرها أشبعنى وان تكن جوعان يا صاح فكل بالاذن
فليس عند شاعر سوى كلام الألسن يصور الأشياء وه ي أبدا لم تكن
فقله يريك ما ليس يرى في الممكن فاسمع واسمع واقتنع واطلو حشاك واسكن
راجع القصيدة في نفح الطيب طبع أوروبا جزء ثاني صحيفة ٢٠٢ . وراجع الكلام عن ابن الأثرق في نفح الطيب طبع أوروبا جزء أول صحيفة ٩٤٠

١ راجع الأرجوزة المذكورة لابي طالب عبد الجبار في آخر الجزء الاول من كتاب الذخيرة

خفض الخورنق والسدير سُمُوهُ وثني قصور الروم ذات قصورٍ
 لاث الغمام عمامة مسكية وأقلم في روض من الكافورِ
 غنى الربيع به محاسن وصفه فافتد عن نور يروق ونور
 فالذرح يسحب حلة من سندس ترهَى بلؤلؤ طلبها المنثور
 والنخل كالغيد الحسان تقرطت بسبائك المنظوم والمنثور
 والرمل في حبك النسيم كأنما أيدى غضون سؤالف المدعورِ
 والبحر يردد متنه فكأنه درع تُشن بمظفني مقررِ
 وكأننا والقصر يجمع شملنا في الأفق بين كواكب وبدورِ
 ووصفوا التماثيل برك المياه وآواني الأزهار. كما قال بعضهم في دائرتين من
 ورد وياسمين:

يا حسنَهَا دائرةً من ياسمين كالخلي
 فالورد قد قابلها في حلة من خجل
 كما شق ورجبه تغامزا بالمقل
 فاحمدا من خجل واصفرا ذا من وجل

ووصفوا الحمامات الرخامية والسباحة والنوافير والحدائق والمياه
 وتكلموا عن الفلمان والخدم ومجالس الخلفاء والاجتماعات العامة ومجالس
 اللهو والشرب والرقص. كما قال ابن شهيد

هاك شيخاً قاده السكر لكا قام في رقصته مُستهلكاً
 لم يطلق يرقصها مستثبناً فاثني يرقصها مستمسكاً
 عاقه عن هزها منفرداً نقرس أخنى عليه فاتمكاً
 من وزيرٍ فيهم رقاصة قام للسكر يتاغى ملكاً

١ راجع وصف ابن حمد يس في نفح الطيب طبع أروبا ج ١ ص ٣٢١

أنا لو كنتُ كما تعرفني قُتُ اجلالاً على رأسي لكأ
 قهقهه الابريق مني ضاحكا ورأى رَعشة رجلٍ فبكي
 وتكلموا عن آلات الطرب وكل أنواع السرور والفرح، ووصفوا ميادين الحروب
 واهوال القتال والنضال؛ والشجاعة والجبن والاقدام، والنصر والخذلان.
 ووصفوا النفوس ومايجول بها من الميول والأهواء وما يحدث فيها من لذة وألم
 والعشق وأثره في النفس . كما قال الشاعر :

قُبلة كانت على دَهش أذهبت ما بي من العطش
 ولها في القلب منزلةً لوعدها النفس لم تَطش
 طرقتني والدجى لبست خلماً من جلدة الحبش
 وكأن النجوم حين بدت درهم في كف مرتعش^١
 وبرعوا في هذا النوع براعة لا تحارى حتى أتوا بالغرائب من المعاني الجزلة التي
 تثير النفوس وتحملها على التعشق كما قال الشاعر :

١ وكقول بعضهم:
 بتنا كأن حداد الليل شملتنا
 كأن ليلتنا والصبح يتبعها
 وكقول الشاعر
 ولما تجلى الليل والبرق لامع
 وكقوله في وصف زنجي يسقيهم
 وزنجي أتى بقضيب نور
 فقال فتى من الفتيان صفه
 وكقولهم في ملاقة الاحبة وأوقات الوصل
 وواعدتها والشمس تبحج للندى
 فجاءت كما يمشى سنى الصبح في الدجا
 فطمرت الافاق حولي فأشعرت
 فتأملت بالتقبيل آثار سعيها
 حتى بدا الليل في ثوب سحولي
 زنجية هربت أمام رومي
 كما سل زنجي حساماً من التبر
 وقد زفت لنا بنت الكروم
 فقلت الليل اقبل بالنجوم
 يزورها شمساً وبدد الدجى يسرى
 وطورا كما مر النسيم على النهر
 بمقدمها والعرف يشعر بالزهر
 كما يتقمى قارئ أحرف السطر

غضبوا الصبحَ فقسموه خُدوداً واستنهبوا قُضب الأراك قدوداً
ورأوا حصى الياقوت دون نحورهم فاستبدلوا منه النجوم عقوداً
واستودعوا حدقَ الهي أجفانهم فسبوا بهن ضراغما وأسودا
لم يكفهم حمل الأسنة والظُّبا حتى استعاروا أعينا ونهوداً
وتضافروا بصفائر أبدوا لنا ضوء النهار بليها معقوداً
صاغوا النفور من الألقى بينها ماء الحياة لو اغتدي موروداً

ولهم خيالات مبتكرة وعبارات طليّة خصوصاً في الوصف ، كقول ابن شهيد :
فكأن النجوم بالليل جيش دخلت للسكران في جوف غاب
وكان الصبح قانص طير قبضت كفه برجل غراب
ومن أبدع كلامهم في الوصف الجميل والشعر الذي لا يجارى في طريق الخيال
والابتكار، ورقة العبارة وحسن الأسلوب، وجزالة المعنى، قول أبي الفضل بن شرف
القيرواني^١ :

مَطَّلَ الليلُ بوعدِ الفلقِ وتشكى النجم طول الأرقِ
ضربت ريح الصَّبامسك الدجى فاستفاض الروض طيبَ العَبَقِ
وألح الفجر خدّاً خَجَلًا جال من رشح الندى في عرقِ
جاوز الليل الى أنجمه فتساقطن سقوط الورقِ
واستفاض الصبح فيها فيضة أيقن النجم لها بالغرقِ
فأنجلي ذاك السنا عن حَلَكْ وأنمحي ذاك الدجى عن شفقِ
بأبي بعد الكرى طيف سري طارقا عن سكن لم يُطرقِ
زارني والليل ناع سدَقَه وهو مطلوب بياقِ الرمقِ

١ راجع القصيدة في الجزء الثاني من نفع الطيب طبع أروبا صفحة ٢٦٧

ودموع الطلّ تَمُرُّ بِهَا الصَّبَا وجفون الروض غرقى الخدقِ
فتأني في أزار ثابت وتثنى في وشاح قلقِ
وتجلى وجهه عن شعره فتجلى فلق عن غسقِ
نهب الصبحُ دجى ليلته فحبا الخدَّ ببعض الشفقِ
سلبت عيناه حدّئى سيفه وتحلى خده بالرونقِ
ووصفوا الكنائس والأديرة والقسس . كما قالوا عن ابن شهيد «انه بات ليلة
باحدى كنائس قرطبة وقد فرشت بأضغاث آس ، وعرشت بسرور واستيناس
وقرع النواقيس يبهج سمعه ، وبرق الحيا يسرج لمعه ، والقس قد برز فى عبدة
المسيح ، متوشحاً بالزنانير أبدع توشيح ، قد هجروا الأفراح وطرحوا النعم
كل اطراح

لا يعمدون الى ماء بآنية الا اغترافا من الغدران بالراح
وأقام منهم يعملها حيا ، كما نما يرشف من كاسها شفة لميا ، وهى تنفخ له بأطيب
عرف ، كما رشفها أعذب رشف ، ثم ارتجل بعد ما ارتجل :

ولرب حان قد شمت بديره خر الصبا مزجت بصرف عصيره
فى فتية جعلوا السرور شعارهم متصاغرين تخشعا لكبيره
والقس مما شاء طول مقامنا يدعو يعود حولنا بزوره
يهدى لنا بالراح كل مُحفّرٍ كالخشف خفره التماح خفيره
يتناول الظرفاء فيه وشربهم لسلافه والأكل من خنزيره

أما الأزجال والموشحات وغيرها من الأوزان التى ابتكروها فى الشعر
العربى ، والمقطوعات الشعرية جدية أو هزلية أو اجتماعية ، فحدث عن البحر ولا
حرج . فقد أظهروا من البراعة فى ذلك ما لا يقدر عليه الا نفوس خلقت شعرية
بطبيعتها وشاعرة بفطرتها . وقد سرت هذه الأنواع الى المشرق فأحدثت حركة
جديدة فى الشعر العربى ، مما سند كره فى موضعه

أبو عامر بن شهيد

هو أبو عامر أحمد بن أبي مروان بن شهيد حفيد ذى الوزارتين أحمد بن عبد الملك بن شهيد وزير الناصر. ولد أبو عامر سنة ٣٨٢ هـ ومات سنة ٤٢٦ هـ ف عاش في أزهى عصور اللغة والأدب في الأندلس ، وفي عصر كان للمجون فيه سلطان عظيم على النفوس ، وكان الأدياء أكرم الناس وأكثرم اقبالاً على ذلك ، يجرون وراء أغراض الناس وأهوائهم ، فأنصبفت عقولهم بصبغة اللهو ، وأنصرفوا الى وصف هذه المجتمعات والمخاقل ، وأخذ الشعر والنثر تلك الصبغة الهزلية التي جعلته خفيف الروح، عذب المذاق ، سهلاً رشيقاً ، جميل البزّة والأسلوب ، مشتملاً على كثير من أحوال الاجتماع وعادات الناس .

وكان أبو عامر من أعلم الناس متفنناً في علوم الأدب ، بارعاً في صناعات النظم

١ هو أحمد بن عبد الملك بن شهيد الاشجعي الأندلسي القرطبي وزير عبد الرحمن الناصر وهو أول من تسمى بذي الوزارتين ، وكانت له دالة على عبد الرحمن الثالث ومنزلة رفيعة لديه . فتصرف في الوزارة كيفما شاء ، واشتهر شهرة عظيمة في سياسة الملك ، كما طار صيته وعلا ذكره بين الادباء ، فكان من اكتب الكتاب وأشعر الشعراء . وقد كان هو وحفيده ابو عامر من أنبغ كتاب الأندلس وأظهرهم ميزة في الكتابة والشعر ولا سيما في الاساليب القصصية من جدية وهزلية كما أشرنا الى ذلك . وهو صاحب الهدية المشهورة التي أهداها للناصر (راجع صفحة ١٩) وقد عاش في كنف عبد الرحمن الناصر فكانت بينهما صداقة وصلة ودية وكان يدل أحدهما على الآخر .

ويحيل الى من يطلع على حياة ابن شهيد هذا انه كان يصرف كل أوقاته في اللهو واللعب على الرغم مما اشتهر به من الكياسة في سياسة الدولة . فقد كانت بينه وبين الناصر مداعبات تدل على ذلك (راجع اخباره مع الناصر واهدائه الغلام في نفع الطيب طبع أوروبا جزء أول صفحة ٢٢٢) وله أخبار وأشعار كثيرة في نفع الطيب

والنثر . فكانت له منزلة رفيعة وابتكارات بديعة ، وأساليب راقية في فنّي المنظوم والمنثور ، حتى فاق جده في ذلك .

وبرع في أسلوب الرسائل القصصية النادرة المثال في الكتابة العربية ، وربما انفرد في نوعها ، مما يدل على ميله الى الأسلوب القصصيّ وابتكاره الفنى . ولقد تحسب هذه الرسائل فدة في اللغة العربية على الرغم مما في بعضها من المشابهة برسالة الغفران لأبي العلاء ، من حيث الأسلوب والموضوع . كما في رسالة « التوابع والزوابع » . وقد ذكره ابن بسام صاحب الذخيرة نقلاً عن ابن حيّان بأنه « كان في تنميق الهزل والنادرة ... أقدر منه على سائر ذلك وشعرة حسن عند أهل النقد ، تصرف فيه تصرف المطبوعين وله رسائل كثيرة في فنون الفكاهة وأنواع التعريض والأهزال ... وكان في سرعة البديهة ، وحضور الجواب وحدته مع رقة حواشى كلامه وسهولة ألفاظه ... آية من آيت خالقه ... وكان له انهماك في شرب وبطاله » .^١ وقد اتصل بالمؤتمن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبى عامر وكتب له رسائل طويلة بها قصائد جميلة يمدحه فيها ويتملقه كثيراً . نذكر منها أبيات من قصيدة بدأها بنوع من الوصف البديع لروضة من الرياض ، وما بها من لهو ونعيم وجوار وخدم ، وتخلص من ذلك الى الدخول على مدح المؤتمن فمدحه بما لا يكون الا على لسان مثله .

ولقد يرى القارىء في قصيدة ابن شهيد هذه روحاً شعرية جديدة يلحح من خلالها نفس الشاعر وما له من القدرة على امتلاك المعانى ، والتصرف فيها ، وكأنما يقول ذلك بلا روية ولا تكلف ، وكأنه يعارض أبا نؤيس في أسلوبه . قال بعد أبيات:

١ في النسخة المخطوطة خطأ كثير في بعض الجمل والالفاظ حذفها من مالم يمكننا فهمه ووضعنا محله فقط وأصلحنا ما ظهر انه محرف . وقد تدل النقط على حذف عدة جمل للاختصار . وفعلنا مثل ذلك فيما اخترناه من شعر ابن شهيدور بما أهملنا وضع النقط في حذف بعض الايات

وردد كما خجلت خدو
وشقيق نمان شكت
ونغصون أشجار حكت
بكر الحسان يرذنها
وضحك عجباً فالتقت
ضكت وأزعج بارق
ونكاوست فيها الأبا
وكأنها أظن رعن فتر
وعلاً بنا سكر أبى
نرمى قلائسنا له
وترنمت فيها القيا
قننا نصفق بالأكف
وأعذن من سدن الملو
يشكو الرعاة تنعماً
لا تستحيه الراشفا
يحنينه ثمر النحو
متجاهلات أنه
لازمت باب محله
حتى اذا وقفت بنا
ألقيت من أخذي له
وأقده بشكائى

د العين من لحظات هائم
صفحاته من لطم لا طيم
رقص المآتم للمآتم
من كل واضحة الملاغم
فيها المباسم بالمباسم
فظلت للبرقين شائم
رق وهي فاهقة الخلاقم
ن دامية الخياشم
الا الانابة للمحارم
ونجى من عذب الهائم
ن لنا ورجعت البواغم
لها ورقص بالجامم
ك سليل أقيال خضارم
ويضح من حمل التائم
ت ولا تباليه اللوائم
ر ويمتزين به المحارم
يهوي وهن به عوالم
والنجح من قنص الملازم
عجز الحواضن والحوادم
وتلوت من سور العزائم
فانقاد من تلك الشكائم

فوردت جناتِ المنى وكرمتُ عن لوم الملائمِ
 وأغرَّتْ قد لبس الدجى بُرداً فراقك وهو قاحمِ
 يحكي لغزته هلا ل الفطر لاح لعين صام
 وكأنما خاض الصبا ح نجاء مبيض القوائمِ
 ويسير في ييس الكرى وكأنه في الصبح عائم
 حتى إذا علّم الصبا ح أنار من تلك المعالمِ
 وتميلت أيدي الثريا وهى مذهبةُ الخواتمِ
 ودمت ذُكاه بناظر رمدٍ من الأقداء سالمِ

فاذا وصف وجدته يقظاً قوى الملاحظة ، لا يصف الأوصاف العامة
 كأكثر الشعراء ، ولكنه يصف ما يراه وصفاً دقيقاً ، كالمصور يصور ما هو
 أمامه . وتلك صفة من صفات الرجال الفنيين

ولقد يقرأ الانسان شعره فكأنه في هرج ومرج . وكأنما الكؤوس
 تدور ، والنفوس تشور ، والعزائم تغور ، والمقول ، ثملة والحياة كلها جنة ونعيم
 كما قال:

أذنَ الديكُ فُتِبَ أو ثوبَ وانضح القلبَ بماء العنبِ
 وتأمل آيةً معجزةً ماقرأنا مثلها في الكتبِ
 ركم الابريق من طاعتهِ وبكى فابتل ثوبُ الأَكْثَبِ
 ولؤلؤ الزهر ينفي كربي وتطربت فأعبي طربي
 وريب قام فينا ساقياً كالرشا أُرضع بين الرّزَبِ
 ظبيةً دون الظباء قُصِّصَتْ فأتت غيداء في شكل صبي
 فتح الوردُ على صفحتها وحما صدغها بالعُقبِ

فشت نحوى وقد ملكتها مشيه العصفور نحو الثلب
وغام باكرتنا غيمه ترع الأفق بدمع صيب
مثل بحر جاءنا من فوقنا جرمه من لؤلؤ لم ينقب
واذا هو ينتقل الى المدح، كما ينتقل الانسان من ظل الأشجار الى خرير المياه
والأنهار:

فسألناه وقد أعجبنا حشوه العين بمرأى معجب
أنت ماذا؟ قال مزن علمت كفه النفحة كنا درب
رامى بالشوق أن أسقيكم رحمة منه بأقصى المغرب
فسألناه ابن ذاك لنا قال هل يخفى ضياء الكوكب
ملك ناصب من خالفكم عامرى المنتهى والمنصب
الى ان قال:

أنجيتهم للمعالى أسرة نزلوا للمجد أعلى الرتب
بنفوس من سناء غضة فى جسوم غضة من حسب
ووجوه مشرقات أومضت ضاحكات فى وجوه الكرب
لهم أيام حرب كثرت فى عداهم داعيات الحرب
هذا أسلوبه فى الشعر، ولولا خوف الملل من الاطالة لذكرنا كثيراً من
شعره.^١

أما نثره فأعجب من شعره من حيث أسلوبه الخيالى القصصى والميل الى
ذلك. وان كان شعره أبلغ من نثره من حيث الديباجة والعدوبة
وقد كتب رسالة هى أشبه برسالة الغفران، من حيث أسلوبها الأدبى

١ أخباره مبسوطه مع شعره ونثره فى الجزء الاول من كتاب الذخيرة لابن بسام وفى
نفع الطيب ومطبخ الانفس

وسماها «التوايع والزوايع» ولعل ابن شهيد كان يقلد أبا العلاء في ذلك ، لانه أدرك عصره ولان شهرة أبي العلاء كانت ذائعة في المشرق والمغرب . وكان أهل الاندلس يقلدون أهل المشرق في كل شيء .^١

كتب أبو عامر بن شهيد هذه الرسالة الى صديقه ابن حزم . فقد عاش في عصر أبي بكر بن حزم هذا فتصادقا وتحابا . وكان لكل منهما دالة على صاحبه . وكل منهما أديب وعالم ، لا تمر بأحدهما لحظة من لحظات الحياة الا كانت له فيها جولة فكر ونظر . وكانت بينهما رسائل ومكاتبات يعرضون فيها آراءهم وما يجول بنفوسهم^٢ . فكانت عقولهم في حركة مستمرة من الجدل الى الهزل ، ومن اللهو والمزح الى مسائل الأدب والدين . ولذلك تجد أحدهم يؤلف في علوم الدين ، وتجد يكتب في الهزل والمجون ، وتجد عالما وفيلسوفاً وشاعراً وثقياً وعاشقاً . فكانوا يأخذون من كل فن بطرف . وكانت تربيتهم العقلية تربية علمية وفنية مما مبنية على حب الاستطلاع والبحث ، وعلى الرغبة في سرور النفس وارتياحها بآثار الفنون الرائعة . فكانت أخيلتهم مذبذبة مصقولة ، وآراؤهم بدیعة وأساليبهم رشيقة ، وابتكاراتهم عجيبة

والظاهر أنه كان للفلسفة اليونانية وقراءتها وأساليبها أثر عظيم في نفوسهم . ولعل أسلوب المحادثة والمناقشة الذي نجده في بعض الرسائل هناك كان مقتبساً من مثل أسلوب أفلاطون في بعض كتبه ، لأنه أسلوب جديد من الأساليب التي حدثت في اللغة العربية

١ أدرك ابن شهيد عصر أبي العلاء فقد عاش من سنة ٣٨٢ الى سنة ٤٢٦ وعاش أبو العلاء المعري من سنة ٣٦٣ الى سنة ٤٤٩

٢ قال ابن خلكان وكان بينه وبين ابن حزم الظاهري مكاتبات ومدايات وله التصانيف الغريبة . منها كتاب كشف الدك وإيضاح الشك ومنها التوايع والزوايع ، ومنها حانوت عطار وغير ذلك أدرك ابن شهيد... الخ

أما الأسلوب الذي كتبت به رسالة ابن شهيد فهو أسلوب خيالي تهكمي ويسميه الأدباء أسلوباً هزلياً. كما ذكر ابن بسام أثناء كلامه عن ابن شهيد: «فصول من رسالة سماها بالتوايع والزوايع صدرت عنه مصدر هزل تشتمل على بدائع وروائع»

وهذه الرسالة عبارة عن عرض صورة عامة للأدب والأدباء ونقد شعرهم نقداً بيانياً مبنيًا على ما يعطيه اللفظ والديباجة من الجمال، وما توحيه معاني هذه الألفاظ من الروعة والاعجاب، على حسب ما هو معروف من أساليب النقد عند أدباء العرب.

وله فيها شعر رقيق وأسلوب جميل، بشكل محادثات بينه وبين الشعراء المعروفين. فهي أشبه بقصة أدبية مملوءة بصور الأدباء والشعراء

قال في صدرها: «كنت...أحن الى الآداب، وأصبو الى تأليف الكلام، فاتبعت الدواوين، وجلست الى الأساتيد، فنبض في عرق الفهم، ودَرَ لي شريان العلم...، وقليل الالتاح من النظر يؤيدني، ويسير المطالعة من الكتب يفيدني، اذ صادف شئ العلم منى طبقة، ولم أكن كالثلج تقتبس منه نارا، ولا كالبحار يحمل أسفارا، فطعنت نغمة العلم دراكا،^٢ وأعلقت أرجل طيره اشراكا، فانثالت^٣ الى العجائب، وانهاالت الرغائب. وكان لي أوائل صبوتي هوى اشتد له كفى، ثم لحقني بعض ملل في أثناء ذلك الميل. فاتفق أن مات من كنت أهواه مدة ذلك اللال، فجزعت وأخذت في رثائه، ... فقلت

تولى الحمام بظبي الحدود وفاز الردى بالغزال الغرير^٤

الى ان انتهيت الى الاعتذار من الملل الذي كان قفلت :

وكنت مللتك لا عن قلى^٥ ولا عن فساد نووى في الضمير

١ النظر الخفيف ٢ من المداوكة وهي المتابعة ٣ تنابعت وكثرت ٤ الحمام الموت ٥ الغرير المهدوع ٦ القلى البفض

فأرتج على القول . فاذا أنا بفارس بباب المجلس ، على فرس أدهم كأنما بقل^٢
وجهه ، قد انكأ على رمح ، وصاح بي : أعجزا يافتي الانس ؟ فقلت لا وأبيك ،
للكلام أحيان ، وهذا شأن الانسان . فقال قل بعده

كمثل ملال الفتى للنعيم اذا دام فيه وحال السرور
فأثبت أجازته^٣ . وقلت بأبي من أنت ؟ قال زهير بن نمير من أشجع الجن ،
نصورت لك رغبة في اصطفاك . قلت أهلا بك أيها الوجه الوضاح ، صادفت
قلبا اليك مقلوباً . وهوى نحوك محبوباً ، ونهادنا وتذاكرت معه أخبار الخطباء
والشعراء ومن كان يألفهم من التوايع والزوايع^٤ . وقلت له هل حيلة في لقاء من
اتفق منهم ؟ قال حتى أستاذن شيخنا . وطار عني . ثم انصرف وقد أذن له . فقال
جل على متن الأدهم . فسرنا عليه ، وسار بنا كالطير يجتاب الجو فالجو ، ويقطع
الدو فالدو^٥ ، حتى لمحت أرضاً لا كأرضنا ، وشارفت جواً لا كجونا ، متفرع
الشجر ، عطر الزهر . فقال حللت أرض الجن أبا عامر ، فبمن تريد أن تبدأ ؟ قلت
الخطباء أولى بالتقديم . لكنني الى الشعراء أشوق . قال فمن تريد منهم ؟ قلت
صاحب امرئ القيس ، فأمال العنان الى^٦ ، واذا وادى دوح^٧ تنكسر أشجاره ، وتترنم
أطياره . فصاح ياعيينة بن نوفل ، بسقط اللوى وبحومل ويوم دارة جلجل^٨ الا
ما عرضت لنا ، وسمعت من الإنسى وعرفتنا كيف أجازتك له . فظهر لنا
فارس على فرس شقراء كأنها تلهب . فقال حياك الله يازهير وحيا صاحبك .
أهذا هو ؟ قال هو هذا وأبى جرة ياعيينة . قال أنشد . قلت السيد أولى
بالأنشاد . فتطامح طرفه ، واهتز عطفه ، وقبض عنان الشقراء وضربها بالسوط ...
وجعل ينشد :

سمالك شوق بعد ما كان أقصرا

١ أدهم أسود ٢ نبت عذاره ٣ أنفذت رأيه ٤ الروبة الشيطان أو رئيس الجن
٥ الدو الفلاة ٦ الشجر العظيم

حتى أكلها ثم قال لي أنشد . فهمت بالحیصة^١ . ثم اشتدت قوى نفسى .
وأنشدت :

شجته مفانٍ من سُلیمی وأدور

حتى انتهيت الى قولى :

ومن قنّة^٢ لا يدرك الطرف رأسها تزل بها ریح الصبا فتحدر
تكنفتها والليل قد جاش بحمره وقد جعلت أمواجه تتكسر
ومن تحت حصن أبيض ذو شقائق وفى الكف من عسالة^٣ الخط أسمر
هما صاحباى من لدن كنت يافعا مقيلا من جد القى حين يعثر»
الى آخر ما قال

وهكذا أخذ فى عرض أحوال الشعراء بطريقة خيالية لذيدة . ولكنها تكاد
تكون خالية من كل نقد أو رأى له . وليس فيها الاجمال العبارة ، وسهولة
الاسلوب ، ووضعها هذا الوضع القصصى الذى يدل على سعة خياله ، وبلوغه منزلة
رفيعة فى هذا الأسلوب الأدبى الصرف . على أنه يميل الى مدح نفسه وعرض
شعره ، ويتخذ ذلك وسيلة من وسائل الإعجاب بكلامه . وقد برع فى وصف
أحوال الشعراء الذين ذكروهم ووصف حياتهم وميولهم النفسية ، وكأن لكلامه
ألوانا ترمم أحوالهم المختلفة ، وتميز بعضها من بعض ، أو كأنما استعرض أمامه هذه
البيئات والمناظر وأخذ يرسمها بقلمه . كما قال عن أبى نواس :

« ثم قال لى زهير : من تريد بعده ؟ قلت صاحب أبى نواس . قال هو بدير حنة ،
قد غلب عليه الخمر . فركضنا ساعة وجزنا فى ممرنا بقصر قد أمه . فقلت لمن هذا
القصر يا زهير ؟ قال لطوق بن مالك أبى الطبع صاحب البحتري ، فهل لك فى أن
تراه ؟ قلت أجل . انه من أساتيدى . وقد كنت أنسيته . فصاح يا أبا الطبع . فخرج الينا

١ بالهروب ٢ قفة الجبل ٣ السيف

قضى على فرس أشعل^١ بيده قنّاة ، فقال له زهير انك موفق ، قال لا ، صاحبك أشمخ
 مارنا من ذلك لولا تنقصه . قلت يا أبا الطبع ان الرجال لا تكال بالقُفران ، أنشدنا .
 من شعرك فأنشد : ما على الركب من وقوف الركاب
 حتى أكملها ثم قال : هات ان كنت شيئاً فأنشدته .
 هذه دار زينب والرباب
 حتى انتهيت فيها الى قولي :

فكأن النجوم بالليل جيش دخلت للكمون في جوف غاب
 وكان الصباح قانص طير قبضت كفه برجل غراب
 ... فكأنما غشى وجه أبي الطبع قطعة من الليل ، وكر راجعاً الى ما وراءه
 دون أن يسلم . فصاح به زهير أجزته ؟ قال أجزته لا بورك فيك من زائر
 ... وسرنا حتى انتهينا الى أصل دير حنة ، فضرب زهير الأدهم . فسار بنا في قنّته
 ففتق سمى قرع النواقيس . فقلت فصّحت^٢ من منزل أبي نواس ورب الكعبة ...
 وسرنا نجتأب أدياراً وكنائس ، وحانات الى دير عظيم تعبق روائحه ، وتصوك
 نوافحه . فوقف زهير ببابه : وصاح سلام على أهل دير حنة . فقلت أوسرنا بذات
 الأكرّاح قال نعم . وأرقلت نحونا الرهايين ، مشدودة الزناير ، قد قبضت على
 العكا كير مبيضة الحواجب واللعى ، مكثرين للتسبيح ، عليهم هدى
 المسيح . فقالوا أهلا بك يا زهير من زائر ، وصاحب أبي عامر ما بنيتك ؟ قال حسن^٣
 الدنان . قالوا انه لى شرك الخرة ، منذ أيام عشرة . وما نرا كما منتفعين به ، فقال وعلى^٤
 ذلك . ونزلنا وقاد بنا الى بيت قد اصطفت دنّاه ، وعكفت غزلانه ، وفي دير حنة
 شيخ طويل الوجه والسبّكة^٥ ، قد افترش أضغاث زهر ، واتكأ على زق خر ، وبيده
 طرجهارة^٦ ، وحواليه صبية كالظباء تعطو الى عرارة^٧ . فصاح به زهير ، حياك الله أبا
 الاحسان . فجاوب جواباً لا يعقل لغلبة الخمر عليه . فقال لى زهير اقرب اذنيه

١ في ذنبه يياض ٢ يريد أن مابه يفصح ويدل على منزل أبي نواس ٣ الشارب ٤ شبه كأس
 يشرب فيه وفي النسخة الخطية طرجهارة ولها معرفة ه لعلها عرارة وهي لعبة للصبيان . وظي
 يعطو اذا رفع يديه ليتناول الشجر . فهو يشبه الصبية بالظباء التي تلعب

بأحدى خمرياتك ، فانه ربما تنبه لبعض ذلك . فصحت أنشد من كلام أبي طويله:
ولرب حان قد ادرت بديره خر الصبا مزجت بصفو خوره
في فتية جعلوا الزقاق^١ تكاهم متصاغرين تخشما لكبيره
والى على بطرفه وبكفه فأمال من رأسى لعبك كبيره
وترنم الناقوس عند صلاتهم ففتحت من عيني لرجع هديره
فصاح من حبال نشوته : أشجى ؟ قلت أنا ذاك . فاستدعى ماء قراحا
فشرب منه وغسل وجهه ، فأفاق واعتذر الى من حاله ، فأدركتنى مهايته ، وأخذت
في اجلاله لمكانه من العلم والشعر . فقال انشد حتى أنشدك . فقلت ان ذلك
أشد لتأيسى على أنه ما بعدك لمحسن احسان فأنشد :

يادر حنة من ذات الأ^٢ كبراح^٢ من يصح عنك فاني لست بالصاح
يعتاده كل محفو مفارقة^٢ من الدهان عليها سحق امساح^٢
لا يدلفون الى ماء بساية^٥ الا اغترافا من الغدران بالراح
ثم قال لى انشد . فقلت وهل تركت للانشاد موصفا . قال لا بذلك ... فأنشدت

أصبح شيم أم برق بدا أم سنا المحبوب أوردى زندا
هب من رقدته منكسرا مسبلا للكم^٦ مرنخ للردا
يمسح النعسة من عيني رشا صائد في كل يوم أسدا
قلت هب لى يا حبيبي قبلة تشفى من غم تبريح الصدا
فأننى يهتز من منكبه قائللا : لا ، ثم أعطانى اليدا
كلما كلمنى قبلته فهو اما قال قولا رردا
كاد أن يرجع من لثى له وارثشافى الشفر منه أدردا^٦
قال لى يلعب : خذ لى طائرا فترانى الدهر أجرى بالكدا
واذا استنجزت يوما وعده قال لى يعطل : ذكرنى غدا

١ جمع زق وهو وعاء الخمر ٢ هي بيوت صفار تسكنها الرهبان بالقرب منها ديران يقال
لاحدما دير عبد وللآخر دير حنة وهو موضع بظاهر الكوفة كثير البساتين والرياض ٣
خالية من الشعر ٤ الثوب البالى ٥ الدلو العظيم ٦ بدون أسنان

شربت أعطافه خمر الصبا وسقاه الحسن حتى عربدا
ولقد بلغ في هذا من دقة التعبير وبلوغ المعنى الذى قصد مبلغاً تشعر به النفوس
وكأنما ترى بعينك المعنى أو تلمسه بيدك ، أو كأنك واقف معه ترى
ما يراه هو ويدكره فى شعره ، أو كأنك تنظر الى صورة واضحة تبين لك أجزاؤها
بألوانها المختلفة كل دقيق وعظيم .

وله رسالة فى الخلواء غير معهودة المثال فى الكتابة العربية جرى فيها مجرى
المجون والهزل والفكاهة . ذكرها ابن بسام فى الجزء الأول من الذخيرة .

وكان ابن شهيد مع هذا من كبار رجال الأدب وأهل النقد . وله آراء تدل
على فكره الثاقب وعلمه الواسع فى طرق النقد الأدبى . وكأنها آراء مبنية على
نظر عميق أودراسة فنية أو علمية . وفى رأينا ان آراءه فى النقد أكبر ميزة من
شعره ونثره ، لأنها تدل على سعة اطلاعه وإبتكاره الخالص من كل تقليد ،
فقد انفرد بين نقاد الأدب العربى فى ذلك . قال أبو عامر :

« إقامة البيان لا يقوم بها حفظ كثير الغريب واستيفاء مسائل النحو ، بل
بالطبع مع وزنه من هذين . ومقدار طبع الانسان انما يكون على مقدار تركيب نفسه
مع جسمه . فمن كانت نفسه من أصل تركيبه مستولية على جسمه ، كان مطبوعاً
روحانياً يطلع صور الكلام والمعاني فى أجل هيأتها ومن كان جسمه
مستولياً على نفسه من أصل تركيبه والغالب عليه جسمه ، كان ما يطلع فى تلك
الصور ناقصاً عن الدرجة الأولى فى التمام والكمال وحسن الرونق . فمن كانت
نفسه المستولية على جسمه ، فقد تأتى منه فى حسن النظام صور رائقة من الكلام
تملأ القلوب وتشغف النفوس . فاذا فتشت لحسنها أصلاً لم تجده ، ولجمال تركيبها
وجها لم تعرفه ، وهذا هو الغريب : أن يتركب الحسن من غير الحسن . كقول
امرئ القيس :

تنورتها من أذرعات وأهلها يثرب أدنى دارها نظر عال

فهذه الديباجة اذا تطلبت لها أصلاً من غريب معنى لم تجده . ولكن لها من
التعلق بالنفس والاستيلاء على القلب ما ترى »

هذا شيء طريف في النقد الأدبي عند العرب ، وكأنه يشير الى مذهب
النقاد الذين يأخذون صور الكتّاب من كتاباتهم ، ويقولون ان البلاغة من
نثر ونظم تدل على نفوس البلغاء . وفي هذا الكلام اشارة الى مذهب علمي
في النقد: وهو الأعضاء « ووظائفها » واتصالها بالادراك . وذلك ان كان ليس
مبنياً على تجارب علمية أو على دراسة فنية فهي أفكار جالت في نفسه تدل على
قوة الفكر لديه . وهو يميل الى أن الافتنان في الكلام ، أو البراعة في النظم
والنثر ، أو مايسمونه بالبلاغة ، نوع من الالهام ، أو شيء من الغيبيات أو سر من
أسرار النفوس . وهذه الآراء هي أصول مذاهب النقد الادبي ، وأصول معرفة
الكلام البليغ وشرحه كما قال :

« وقال الجاحظ انا اذا اكثرنا من يعلم صبياننا النحو والغريب قنع منا
بشرين درهماً في الشهر . ولو أكثرنا من يعلمهم البيان لما قنع منا بألف درهم .
ولم يقل هذا الا وقد ألف كتاب «البيان» . ولو كشف فيه عن وجه التعليم وصور
كيفية التدريج، لأرى كيف وضع الكلام وتنزيل البيان ، وكيف التوصل الى
حسن الابتداء ، وتوصيل اللفظ بعد الانتهاء ، وأبدى لهم عن تدبير المقاطع والمطالع
بأنها معاني الصنعة ، ومواضع مفاتيح الطريقة »

فذهبه في النقد وسط ، لأنه يرى أن البلاغة شيء روحاني كما قال « فمن كانت
نفسه من أصل تركيبه مستولية على جسمه كان مطبوعاً روحانياً يطالع صور الكلام
والمعاني في أجل هيئاتها . الخ » ويرى ان لهذا السر الروحي عدداً وأهبة . قال :
« جلس الى يوماً يوسف الاسرائيلي وكان أفهم تلميذ مربى وأنا وصي رجلاً عزيزاً
على من أهل قرطبة ، وأقول له : ان الحروف أنساباً وقرابات تبدو في الكلام . فاذا جاور

النسيب النسيب ، ومازج القريب القريب ، طابت الالفة وخسنت الصعبة وإذا
ركبت صور الكلام من تلك حسنت المناظر وطابت المخاير . أفهمت ؟ قال لي
أى والله . قلت ، والعربية إذا طلبت ولل فصاحة إذا التمسست قوائين من الكلام
من طلب بها أدرك ، ومن تنكب عنها قصر ، أفهمت ؟ قال نعم . قلت وكما تختار
مليح اللفظ ورشيق الكلام ، فكذلك يجب أن تختار مليح النحو وفصيح
الغريب وتهرب عن قبيحه . قال أجل . قلت أتفهم شيئا من عيون كلام القائل :
لمعرك أنى يوم بانوا فلم أمت خفائاً على آثارهم لصبور
غداة التقينا إذ رميت بنظرة ونحن على متن الطريق نسير
ففاضت دموع العين حتى كأنها لناظرها غصن يراح مطير
فقال لي أى والله وقعت خفائاً موقعا لذيذا ، ووضعت رميت ومتن الطريق موضعا
مليحا ، وسرى غصن يراح مطير مسرى لطيفا» الى آخر ما قال .

وكان يميل الى القول بان الأذواق تتفاوت وتختلف . وهذه قاعدة عامة فى كل
الفنون ، بل هذا أساس الفنون جميعا . قال : وربما لا ذنبا المستطعم باسم الشعر ممن يخط
العامة والخاصة بسؤاله ، فتصادف منه حالة لا تتسع له فى كبير مبرة فشاركه وعتذر له ،
وربما أفداه بأبيات يتعمد بها البقالين ومشايخ القصاين ، فإذا قارعت أسباعهم وما زجت
أفهامهم وأنحلت عقدهم ، جل شخص ذلك البائس فى عيونهم . فما شئت اذ ذاك من
خبز وميرة يحشى بها كفه ، ورقبة سمينة تدفن فى مخلاته ، ومن كوز فُقاع يصب فى فمه ،
وتينة رطبة يسد بها حلقومه ... فلا يكاد البائس يتم ذلك حتى يأتينا ، فيكب على أيدينا
يقبلها وأطرافنا يمسحها ، راغبا فى أن تكشف له السر الذى حرك العامة فبدلت ما عندها
له ، وبادرت برفدها اليه . وتعليمه ذلك النحو من انحاء الشحذ لا نستطيعه . لان
هذا الذى يريد منا هو تعليمه البيان ، وبين فكره وبينه حجاب . ولكل
ضرب من الناس ضرب من الكلام ووجه من البيان » الخ

وكان يرى أن للكتابة أطواراً تتناوبها، وأحوالاً تعترضها . اذ قال :
« وكما أن للدنيا دولا فكذلك للكلام نقل وتناير في العادة . ولكل طائفة
من الأمم المتعاقبة نوع من الخطابة لا يوافقها غيره ولا تهش لسواه . ألا ترى لما دار
حال بعض الرسم الأول في هذا الفن الى طريق عبد الحميد وابن المقفع وسهل
وأصحابهم . فالصنعة معهم أفسح باعاً وأشد ذراعاً وأنور شعاعاً ، لرجحان تلك العقول
واتساع تلك القرائح في العلوم . ثم دار الزمان دورانا فكانت احالة أخرى الى طريقة
ابراهيم بن العباس ومحمد بن الزيات ونظرائهم ، فرقت الطباع . ثم دار الزمان
فاعترى أهله للطائف صلف وبرقة الكلام كلف ، فكانت حال أخرى الى
طريقة البديع ... وكذلك الشعراء انتقلوا عن العادة في الصنعة بانتقال الزمان ،
وطلب كل ذى عصر ما يجوز فيه ، وتنهى له قلوب أهليه . فكان من صريح
الفوائى وبشار وأبي نواس وأصحابهم في البديع ما كان من استعمال أفانيه ، والزيادة
في تفریع فنونه . ثم جاء أبو تمام فأسرف في التجنيس وخرج عن العادة ، وطاب
ذلك منه وامثله الناس . والتوسط في الأمر أعدل . ولذلك فضل أهل البصرة
صريح الفوائى عليه ، لانه لبس ديباجة المحدثين على لامة العرب فتركب له من الحسن
بينهما ما تركب »

هذه نظرة عامة في النقد الأدبي أو في أطوار البلاغة العربية . يتبين منها
أن ملكة النقد كانت لديه كملكة الشعر والنثر . وقد قسم الافتنان في البلاغة
الى ثلاثة أقسام . وعرف أحوال الكتاب وما يلاقونه أثناء أداء هذا الفن . قال :
« وأهل صناعة الكلام متباينون في المنزلة ، فمنهم الذى ينظم الأوصاف ويمحرز
جيد اللفظ ، إلا أنه يصعب عليه الكلام ، ويكد قريحة التأليف حتى أنه ربما قصر في
الوصف . وأساء الوضع . وهذا في الأبيات القلائل نافذ ، وفي القرية المأخذ سائر ، وفي
طريقة الجمهور ذاهب . حتى اذا ازدحت عليه ، وانحشدت اليه ، وطالبته ببناء البهجة

وشرف المنزلة، وقف وأثقل وتلاشى واضمحل ، ومنهم الكارخ في بحر الغرارة والقادح بشعاع البراعة ، الذي مرَّمر السيل في اندفاعه ، والشؤبوب في انصبا به لا يشكو الفشل ، ولا يكمل عن طول العمل . إذا ازدحت في الكلام عليه المطالب ، وعلقت بجواشي فكره المآرب ، وحشدت عليه الصعائب والغرائب ، استهل بها كاهله واضطلع بثقلها غاربه ، وأعارها من نظره لحمة ، ومن فكره قدحة . ثم رمى بها عن جانبيه ، وقد رويت بها . ولبست شعاع بها . ومنهم من يتجافى الكلام ويروغ عن المقال ، فإذا منى به أخذ بأطراف المحاسن وشارك في انحاء من الصنعة ، وجل ما عنده تليفق وحيلة . وبذلك يجارى الأيام ويصاحب أبناء الزمان ، ما كان له عقل يقضي على نقصانه ، وسياسة يسود بها فحول زمانه . ومن خرج من هذه الطبقات الثلاث لم يستحق اسم البيان ولا يدخل في أهل صناعة الكلام »

وقد انحنى ابن شهيد باللائمة على مذهب أهل البديع . كأن هذه الطريقة اللفظية كانت ممقوتة . أو أن ملكة النقد كانت على وشك النضج ، أو أنها كانت آخذة في الانتقال الى طريق صحيح . قال أبو عامر .

« وقوم من المعلمين بقرطبتنا ممن أتى على أجزاء من النحو ، وحفظ كلمات من اللغة ينحتون عن قلوب غليظة وقلوب كقلوب البمران ، والى فطن حجة وأذهان صديئة لا منفذ لها في شعاع الرقة ، ولا مدب لها في نور البيان ، سقطت اليهم كتب في البديع والنقد فهموا منها ما يفهم القرد اليابس في الرقص على الانقاع والزمز على الألحان ، فهم يصرفون غرائبها تصريف من لم يرزق آلة الفهم ، ومن لم تمكن له آلة الصناعة مما هي مخصوصة بها ، ولا تقوم تلك الصناعة الا بتلك الآلات . فهو كالخار الذي لا يمكنه أن يتعلم صناعة ضرب العود والطنبور لتدوير رؤسفه ، واستدارة حافره . ولا له بنان يحبس بها ولو جاز أن يكون حمار يغنى .

مأبال أنجم هذا الليل حائرة أضلت القصد أم ليست على فلك
وشبهه من الرجال ان له حنكا ولسانا وقصبة ورثة ، لماجاز أن يوقع بالمضرب
على الأوتار، ويتم بحبس الأنامل، ويرخي الوتر في مجرى السبابة والبنصر، فيبلب
بشيده، ويؤلول في ضربه على بسيطه . فهذه حالة العصابة من المعلمين : يدركون
بالطبيعة ويقصرون بالآلة . وتقصرهم بالآلة هو من طريق العلل الداخلة ، من
فساد الآلة القابلة الروحانية والخادمة لآلات الفهم ، الباعثة لرقيق الدم في
الشرائيات الى القلب، وزيادة غلظ أعصاب الدماغ وتقصاتها عن القدار الطبيعي .
وما يعين على ذلك بالحنس وطريق الفراسة فساد الآلات الظاهرة، كفرطحة الرأس
وتسفيطه ، والنواء الشدق ، وخزر العين ، وغلظ الأنف ، وانزواء
الأربية »

أليس في هذا دليل على اطلاع أبي عامر بن شهيد على كتب العلم والفلسفة،
على الرغم مما فيه من الغموض؟ وهل نجد بين أدباء العرب . في النقد الأدبي من سلك هذا الطريق
العلمي؟ ان هذه لآراء ممتازة في النقد الأدبي العربي . وطريقة علمية تشبه ما حدث في
الأدب عند أهل أوروبا في القرن التاسع عشر . وكان هذا يكون نموذجا للنقد
الصحيح وطرقه العلمية التي تصل أفكار الكاتب وآراءه بتكوينه العصبي وتركيبه
الاجسمي . ولكن واحدا من الادباء الذين تكلموا عن أبي عامر بن شهيد لم يذكر
له غير « شعره الرقيق » وأسلوبه الرشيق، ومجونه الكثير وأدبه الوافر ... الخ
ان ابن شهيد من أفذاذ الادباء المفكرين الذين أنجبتهم حركة العقول والادراك
في الأندلس.

الوزير ابن زيدون^(١)

اقتربت الوزارة في الاندلس بالأدب . فكان الوزير كاتباً وشاعراً . وكان أشهر الكتاب والشعراء وزراء . وكانت الشهرة بالكتابة والشعر وفنون الأدب وفروع العلوم من وسائل الوصول الى امتلاك الوزارة . فكان للوزراء أثر عظيم في سير البلاغة والأدب . وأصبحت منزلة الادب كمنزلة الوزراء أنفسهم في الدولة . وظهر في الاندلس طائفة من الرجال الذين تربعوا في مناصب الملك وتقلبوا في مراكز الدولة . وتغلبوا على شئونها . وهم جميعاً من الأدباء والعلماء والكتاب والشعراء وأهل الشورى وأعلام الحياة العقلية

ومن أشهر هؤلاء الوزراء الادباء والشعراء المجيدين، أبو الوليد احمد بن عبد الله بن احمد بن غالب بن زيدون الخزومي الاندلسي القرطبي ، أشهر من عرف في حلبة الأدباء ، وأظهرهم ميزة في فنون الكلام وأساليب الشعر والبيان، لأنه صورة من صور الأدب في الاندلس وصحيفة من صحف البلاغة هناك ، وثمرة من ثمار غرس العرب في بلاد المغرب

١ ليس لدينا عن ابن زيدون ما يدلنا على شيء من حياته المنزلية أو تربيته الاولى، أو ما يتيح لنا الحكم على نفسه وأصل تربيته العقلية أو حياته الفكرية ولم يزد ابن خلكان عن بضعة أسطر نقلها عن كتاب الذخيرة لابن بسام . حتى أنهم لم يذكروا عن أبيه أبي بكر بن زيدون شيئاً سوى أنه كان من وجوه الفقهاء قرطبة . وقال ابن خلكان عن ابن بشكوال في كتابه (الصلة) انه أثنى عليه وكان يكنى أبا بكر وتوفي سنة ٤٠٥ هـ ودفن في قرطبة . وكل ما ذكر من صفاته أنه كان يخضب بالسواد . وفي بعض كلام الشعراء الذين رثوه ما يدل على أنه كان من أهل الفضل .

ولد ابن زيدون بمدينة قرطبة في سنة ٣٩٤هـ وتوفي بأشبيلية سنة ٤٦٣هـ وهو ثالث ثلاثة تسموا بابن زيدون : أحدهم أبو بكر عبد الله بن أحمد بن غالب والده ، والثاني أبو بكر ابنه وكان وزيراً للمعتمد بن عباد ومات مقتولاً في آخر أيامه . وهم من أصل عربي كما أشرنا الى ذلك في كلامنا على القبائل التي نزلت الاندلس من العرب

كان أبوه قاضياً مشهوراً بين قضاة قرطبة ، وعالماً وأديباً . مات سنة ٤٠٥هـ فكان عمر ابنه اذ ذاك إحدى عشرة سنة . وكان أبو الوليد منذ حداثة ميالاً الى العلم والتعليم ، فاندفع يطلب لنفسه الكمال العقلي وكانت نشأته في قرطبة ساحة العلوم والآداب ، فانكب على الدرس والبحث ، وأخذ الأدب عن رجاله المعروفين . وكان له ميل شديد لعلوم العرب وفنون اللغة فحفظ منها شيئاً كثيراً ، كلوعى كثيراً من أخبار الأديباء والشعراء وأمثال العرب وحوادثها ومسائل اللغة ، حتى أصبح في مقدمة الشعراء والأدباء . واندمج في مجالس الأدب ، فصار علماً من أعلامها ودعامة من دعائمها . وكانت قرطبة لا تزال في أوج عزها على الرغم من أفول شمس بني أمية بها ، وأهلها في رخاء من العيش ، أكثرهم يميل الى العلم والأدب ومجالسة الأدباء . فملتأت المحافل والمجامع بضروب اللهو والطرب ، وكان لابن زيدون خفة روح ودعابة وميل الى المجون ، فساعدته ذلك على أن يسبق غيره وأن ينال شهرة واسعة بين أترابه .

وكان للنساء أثر عظيم في هذه المجالس . فاتجه الناس الى الاندماج فيها واستعذبوا هذا المورد ، وانصرفت همم الأدباء الى التفوق في هذا الميدان فكان لذلك أثر عظيم في أخلاق الأدباء وصورة البلاغة من نظم ونثر . وكأنا ضاعت كل صبغة جدية في المجامع الأدبية فجزؤ الوزراء على المجاهرة بالمجون . وكان ابن زيدون أحد أبطل هؤلاء فنجذب اليه الانظار .

وكان لولادة بنت المستكفي الخليفة الاموى شهرة عظيمة في قرطبة لجمالها وعلمها وأدبها. فوقع ابن زيدون في شركها ووقعت في شركه واشتمل كل منهما على صاحبه، حتى حسد عليها وحسدها الناس عليه. وكان من هؤلاء الحساد الوزير أبو عامر بن عبدوس وهو كبير الحول والطول، فتقرب الى ولادة حتى آمأها اليه، واغتصبها من صديقها، وكانت ولادة ملت صداقة ابن زيدون وانهته بعدم الاخلاص لها، كما اتهمها بذلك أيضاً، فهبت عاصفة من الجفاء بينهما شتتت من شملهما وحالت بين قلوبهما. لذلك غلب ابن عبدوس ابن زيدون على أمره واستولى على قلب ولادة. ثم حدث ان رجعت الى ابن زيدون فكتب عن لسانها لابن عبدوس رسالته الشهيرة الهزلية. ثم استأثر بها ثانياً ابن عبدوس فكانت هذه الحال سبب اضطراب في حياة ابن زيدون العقلية والسياسية وهكذا كانت حال الوزراء وأرباب الدولة وعقول الادباء وأصحاب الاقلام والمفكرين. وهذه الحادثة من أكبر الحوادث في حياة ابن زيدون.

عاش ابن زيدون في بيئة كلها اضطراب ودسائس، وتربى ودرج في ذلك وتقلد الوزارة فيها، لأنه اشترك في حوادث الاضطراب التي كانت على أثر زوال دولة بنى أمية، فكان من اشباع ابن جهور أحد ملوك الطوائف الذي ادعى لنفسه الملك في قرطبة بعد انحلال الدولة الأموية سنة ٢٣١هـ وعملت منزلة ابن زيدون هناك فاتخذ ابن جهور وزيراً له فلك أزمة الامور، وكان أقرب الناس الى سيده الذي استعان به كثيراً في المسائل السياسية وتأمين الصلة بينه وبين الأمراء الآخرين لذلك كآته ودهائه، فكانوا يحسدون ابن جهور على الاختصاص به. وحدثت حوادث أغرت عليه ضدور كثير من منافسيه وحاسديه على فضله ومنزلته، فحملوا عليه عند ابن جهور حتى أمر بسجنه فسجنه طويلاً. فاستغفر واستعطف بما يلين من أجله

الحديد ، فلم يفلح في ارضاء الامير فعزم على اعمال الحيلة والهرب من السجن .
واختفى بقرطبة الى ان استشفع بابي الوليد بن جهور عند أبيه أبي الحزم
حتى شفّع له . وجعله أبو الوليد بعد موت أبيه من المقدمين في دولته . ولكن
ابن زيدون لم يأمن على نفسه من بقاءه في قرطبة . فهاجر الى اشبيلية سنة ٤٤١
ودخل في حاشية المعتضد بن عباد وصار وزيراً لابنه المعتضد وبقى هناك الى آخر عمره .
هذه حياته وأخلاقه وقد ذكرها في شعره ونثره ومنها يرى ان حركات
عقله كانت تقفو ذلك خطوة بخطوة . فكانت حياته العقلية نتيجة هذه
الحياة . لذلك يمكن أن تقسم آثاره الأدبية الى أقسام ثلاثة : عشقه لولاده وأثر
ذلك في نفسه وما كتبه في هذا . ثم مدحه لابن جهور وابن عباد . ثم أثر السجن
في حياته العقلية .

شعر ابن زيدون

كان لاختلاق ابن زيدون والبيئة التي عاش فيها وميول الناس الى اللهاث عظيم في شعره . فقد كان للمجون مسحة خاصة في النظم والنثر ، فبرع ابن زيدون في الغزل ، وكثير من شعره في ذلك كان منبعثاً عن ثوران في نفسه وغلجان في ميوله واهوائه ، أذكي ذلك كله حبه لولادة . فان عشقه هذا فتح له باباً واسعاً من الخيال قال فيه ماشاء وشاءت عواطفه أن توحى اليه . كذلك كانت آلامه وما لاقاه في السجن باعثاً من بواعث استنهاض ملكة الشعر فيه والهاماً من الهاماته الفنية .

وشى به أعداؤه وحاسدوه الى ابن جهور ، وكاد له منافسوه في حب ولادة حتى نالوا منه ، وشفوا غلتهم بحمل ابن جهور على سجنه بعد أن أحله منزلة الوزير يدبر ملكه ، وبعد ان ائتمنه وعرف له رأيه السيد وبراعته في ادارة الأمور وسلمه زمام الدولة . ولم يكن لابن جهور أن يخطئ في نظره لما اشتهر به نفسه من سداد الرأي وصحته ، فاذا نال ابن زيدون مكانة في نفس ابن جهور فقد كان ذلك عن جدارة واستحقاق . ولكن أعداءه تمكنوا من ابن جهور فغضب عليه وأمر بسجنه ، فأثار هذا السجن من نفس ابن زيدون عاصفة فنية جديدة رقت من خياله الشعرى أثارتها آلامه فأخذ يئن أيننا جيلاً ويفتن في آلامه ووصفها والتعبير عنهما شعراً ومرة ثراً ... والفنى يمزج فنه دائماً بكل ما يرى ويسمع ويشعر . ولقد كانت نفس ابن زيدون من النفوس الدقيقة الادراك ، التي اذا أنت تن أنين الموسيقى ، واذا شكت تشكو شكاة القلوب المملوءة شعوراً

الواسعة التصور والادراك الدقيق الجليل، الذى يجعل الشكوى جميلة والكلام فيها جميلا .

كتب ابن زيدون من السجن الى صديقه أبى حفص .^١ من برد يشكو وين من بلواه، وهو ينهض الأمل مرة ويقعده اليأس أخرى . ولا يترك شاردة تمر بخاطره الا أهدأ بها نفسه وتسلّى بها عن آلامه . يستسلم أحيانا الى القضاء فيشعر فى نفسه براحة واطمئنان، ويقلب أمامه صفحات الايام فلا يعجب من الحوادث التى ألمت به . ويرجع الى صديقه فيسليه هو بنفسه، ويسأله ألاّ يكف عن مجونه وتسلّيته ، لان السعادة خلّسة . ثم يعود فيذكر اعداءه ونييلهم منه ويبين ان ذلك ليس بالعجب لانه

ان قسا الدهر فللمساء من الصخر ابجاس

وبرى انه حسد لمكانته ، ويمزج ذلك بالعبور والحكم والسخرية والتهكم من أحوال العالم وحوادث الحياة ، ويرجع أنينه وألمه وحقده على الناس ولا سيما حاسديه، ويضرب المثل كي يسكن من نفسه، وهو فى ذلك كعادته فى الشكوى : يهبط مرة الى الدرك الأسفل من اليأس ، ويرتفع أخرى الى ذروة الرجاء ، وكأنه فى شجار مستمر بينه وبين نفسه وشعوره . كل هذه المعانى فى أبيات قليلة بأسلوب جميل رقيق ، يكاد يلمح الانسان فيها خاطره المضطرب المتماوج . حيث يقول :

ما على ظنّي باسُ . يجرحُ الدهرُ . ويأسوُ

ربما أشرفَ بالمرءِ . على الآمالِ يأسُ

ولقد ينجيك اغفا . لـ ويردّيك احتراسُ

والمحاذير سهامُ . والمقادير قياسُ^٢

ولكم أجدي قعودُ . ولكم أكدي التماسُ^٣

وكذا الحكم اذا ما . عز ناس ذل ناس

١ . يداوى من آسى الجرح داواه ٢ قياس هنا جمع قوس ٣ اكدى بخل أو قل خيره

وبنسو الأيام أخيا ف 'سَراة' و'حِساس'^٢
 تلبس الدنيا ولكن مُتعة ذلك اللباسُ
 يا أبا حفص وما سا واك في فهم ايلسُ
 من سنا رأيك لى في غسق الخطب اقتباسُ
 وودادى لك نص لم يخالفه القياسُ
 أنا حيران وللأم ر وضوح والتباسُ
 لا يكن عهدك ورداً ان عهدى لك آسُ
 وأدر ذكرى كأسا ما امتطت كفك كأسُ
 فعسى أن يسمح الدهر ر وقد طال الشَّماسُ^٣
 واغتنم صفو الليالى انما العيش اختلاسُ
 ما ترى في معشر حا لوا عن العهد وخاسوا
 أذوب هامت بلحمى فانتهاى وانتهاس^٤
 كلهم يسأل عن حا لى ولذئب اعتساس^٥
 ان قسا الدهر فلما ء من الصخر انبجاسُ
 ولئن أمسيت محبوسا فلغيت احتباسُ
 ويُفت المسك فى التر ب فيوطى ويداسُ

هذه نفحات القلوب ، وهذا هو الشعر الذى يستولى على النفس ويلهمها
 الحكمة والعبرة ، وهذا هو جمال القول . ليس ذلك لأنّه مطرب مرقص بوزنه
 وقافيته . بل لأنّه ساحر بمعانيه وجماله . كل معنى فيه تحتاج اليه النفس

١ مختلفون ٢ أشراف ٣ أدنياء ٤ العصيان ٥ غدروا ٦ مثل الانتهاش وهو الاكل
 بمقدم الاسنان ٧ تجسس

في مثل هذه المواقف . ولقد كانت هذه المعاني سائفة للنفس لأن الشاعر صادق في قوله ،
 معبر عن شعوره يرسم صورة من نفسه الحزينة المتأللة . لهذا كان الشعر جميلا .
 وقد بدأ قصيدة من قصائده في هذا بالفخر بنفسه ، وأمعن في ذلك ، وكأنما كان
 يبكي حظه ويندبه بهذا الأسلوب الفخري . أو كأنما كل معنى من هذه المعاني كانت ،
 تهدأ خاطره وتريح نفسه . فلما مدح ابن جهور مدحه في قالب استعطاف ،
 وتوسط بين المدح والعتب الجدى . وقد ظهر بنفسه كبيرة وأنف أشم
 حتى أنه مدح نفسه أكثر من ابن جهور ، فكان عاتبا أشد منه مادحا ، لانه
 كثيراً ما كان في مثل هذا الموقف لا ينسى الفخر بنفسه ، ولا يريد أن يعلى
 عليها ولو همسا أنه في موقف مذلة . وكأنه كان يتسلى بهذا ، لانه يرى ان أعداؤه
 لم ينالوا منه الا لأنه فاقهم بعلمه وفضله . حتى انه قال متكها .

ولو أنى أسطيع كي أرضى العدا شريت ببعض العلم حظاً من الجهل
 فقال:

ألم يأن أن يبك الغمام على مثل	ويطلب ثأرى البرق منصلت النصل
وهلا أقامت أنجم الليل مائماً	لتندب في الآفاق ماضع من نبلى
فلو أنصفتنى وهى أشكال همتى	لألقت بأيدي الذل لما رأت ذلى
لعمرو الليالى ان يكس طال عمرها	لقد قرطست بالنبل في مقتل النبل ^١
تحلت بآدابى وان مآربى	لسارحة في عرض امنية عطل ^٢
اخص لفهمى بالقلى وكأنما	يبيت لدى الفهم الزمان على ذحل ^٣
وأجنى على نظى لكل قلادة	مفصلة السططين بالمنطق الفصل

١ النبل بفتح النون السهم وبضمها الشرف ٢ لا فائدة فيها من عطلت المرأة اذا خلا
 حيدها من القلائد ٣ الذحل المحقد

ولو أننى أستطيع كي أَرْضَى العدا شريت ببعض العلم حظاً من الجمل
وان رجائى فى الأمام ابن جهور لمستحكم الاسباب مستحصد القتل
كريم عريق فى الكرام وقلما يرى الفرع الاستمداد من الأصل
يرف على التأميل لألاً بشره كما رف لألاً الحسام على الصقل
ويغنى عن المدح اكتفاء بسروه^١ غنى المقلة الحكلاء عن زينة الكحل
أبا الحزم انى فى عتابك مائل الى جانب تأوى اليه الملا سهل
حامى شكوى صبحتك هوادلا تناديك من أفنان آدابى الهدل
وكل قصائده التى أرسلها يستعطف بها ابن جهور هى أثر ذلك الشقاء الذى لقيه
فى سجنه ، وصورة من صور البؤس الذى حرك شعوره وفتق من لسانه ، وأثار
فى نفسه عواطفه الشعرية المظلمة المملوءة همماً وغماً .

ولكن أسلوبه فى الشكوى والاستعطاف واحد فى نظمه ونثره . وما أشبه قصائده
فى ذلك وما فيها من المعانى برسالته الجديدة . وكأنما كان فكره سجيناً مثله من شدة
تألمه فى السجن ، فانه لم يخرج عن عادته فى ضرب الأمثال والفخر بنفسه ، وانه
أفضل انسان وأكرم من دب على وجه الارض .

غير أن كلامه مع ذلك عذب المذاق ، رقيق الحاشية ، جذاب خلاب ، تظهر
عليه سيما الابتكار والصدق فى التعبير ، فانه ليس من الخيالات الشعرية الصرفة
بل به كثير من الحقائق التى كان يملها عليه شعوره كما قال :
ماجال بعدك لحظى فى سنا القمر الا ذكوتك ذكر العين بالآثر
ولا استطلت ذمأ^٢ الليل من أسف الا على ليلة سرت مع القصر
الى أن قال :

١ رفته وعلو شأنه ٢ الذماء بقية الروح يريد مابقى من الليل

فهمت معنى الهوى من وحى طرفك لى ان الحوار لمفهوم من الحدود
 لم يسأل الناس عن حال يشاهدها محض العيان الذى يغنى عن الخبر
 لم تطو يرد شبابي كبرة وأرى برق المشيب اعتلى فى عارض الشعر
 قبل الثلاثين اذ عهد الصبا كُثِبَ^١ وللشبيبة غصن غير مهتصر
 يا للرزايا لقد شافهت منهلها غمرًا^٢ فما اشرب المكروه بالغمير^٣
 لا يُهنئ الشامت المرتاح خاطره أى معنى الأمانى ضايغ الخطر
 هل الرياح بنجم الأرض عاصفة أم الكسوف لغير الشمس والقمر
 ان طال فى السجن ائداعى فلا عجب قد يودع الجفن حد الصارم الذكر^٤
 وان يثبط أبا الحزم الرضى قدر عن كشف ضرى فلا عتب على القدر
 من لم أزل من تأليه على ثقة ولم أبت من تجنبه على حذر

وكتب الى أحد أصدقائه وهو مخنف بقرطبة بعد قراره من السجن فقال
 «... ويلغنى أنك أحد اللائمين لى، ومن أمثالهم: ويل للشجى من الخلي^٥»
 وهان على الأملس ملاقى الدبر^٦. وعلمت ان العاجز من لا يستبد، فالمرء يعجز
 لا محالة. ولم أستعجز أن أكون ثالث الأذلين، العير والوتد، وتذكرت أن
 الفرار من الظلم والحرب مما لا يطاق من سنن المرسلين، وقد قال تعالى على لسان
 موسى: ففررت منكم لما خفتكم. فنظرت فى مفارقة الوطن، فقد يما ضاع الفاضل
 فى وطنه، وكسد العلق^٧ فى معدنه. كما قال:

أضيع فى معشري وكم بلد يكون عود الكيباء^٨ من خطبه
 فاستخرت الله فى انفاذ العزم. وأنا الآن حيث أمنت بمض الأمن، الا ان

١ قريب ٢ الغمر الكثير ٣ الغمر قدح صغير يريد انه كثير البلوى؛ سيف ذكر
 حاد ٥ الشجى المشغول ٦ مثل يضرب فى سوء اهتمام الرجل بشأن أخيه والدبر الذى فى
 ظهره قرحة والأملس صحيح الظهر ٧ العلق النفيس ٨ الكيباء العود المتبخرة

الغنى لم يرتفع، ومادة البنى لم تنقطع .

شحطنا وما بالدار نأى ولا شحط
أحبابنا ألوت^١ بجادث عهدنا
لعمركم ان الزمان الذى قضى
وأما الكرى مذلم أزرکم فهاجر
وشط بمن نهوى المزار وما شطوا
حوادث لا عهد عليها ولا شرط
بشت جميع الشمل منا لمشتط
زيارته غيب والمامه فرط
الى ان قال :

هرمت وما للشيب وخط بمفرق
وطاول سوء الحال نفسى فاذ كرت
وانى لراج أن تعود كبديها
وحلم امرئ، تعفى الذنوب لعفوه
فمالك لا تختصني بشفاعه
ولكن لشيب الهم فى كبدي وخط
من الروضة الغناء طاوها القحط
لى الشيعة الزهراء والخلق السبط^٢
وتحمى الخطايا مثل ما يحى الخط
يلوح على دهرى ليسمها علط^٣

الى آخر ما قال فى هذه القصيدة التى هى من أبدع قصائد الشكوى وأجمعها لذكر
الماضى والحاضر والاستغفار والاستعطاف، والسرور بذكر ما انقضى والبكاء
على الحاضر، وهى أيضاً أظهر فى لهجتها الجديدة من كثير من شعره . ولذلك
كانت أجف فى أسلوبها ومعانيها، ليس بها تلك الرقة المعهودة فى كلامه .
كل ذلك هاجه السجن وما تذوقه من الآلام، فرسه فى شعره . لأنه رجل
فنى عرف كيف يصور ما يشعر به ويعبر عما يجول بخاطره .

ولقد يلاحظ الانسان أن آراء ابن زيدون آراء عامة ليست ناشئة عن تفكير

١ يريد الخلق الكريم يقال رجل سبط اليدين كرمهما وسبط الجسم حسن القدر فهى من
صفات المدح ٢ الميسم أثر الحسن واللط سواد يزين به الوجه

طويل أو علم واسع . واثما هو خيالياً أكثر منه مفكراً ، وشاعراً أكثر منه عالماً .
وهذه كل حال شعره ونثره .

أما مدحه ورثاؤه فهما في الدرجة الأخيرة من شعره ، لانه على جمال أسلوبه
في ذلك ، وحسن تصرفه في المعاني ، لا يكاد يعثر الانسان فيه على مسمى جديد ولا رأى
خاص ، بل يكاد يكون كل ما جاء من المعاني من قبيل معارضة غيره من الشعراء
والاخذ بما يهيمهم ممزوجا ذلك بما له من البراعة والصناعة والافتنان .

ومن أجمل قصائده في ذلك كلامه في المعتضد بن عباد وابنه المعتمد^١
ومن أرق كلامه في الشكوى ، وأقرب عباراته وصولا الى القلوب بكأوه
على الماضي ، والتلذذ بذكره وما كان فيه من النعيم كقوله :

الهوى في طلوع تلك النجوم والمنى في هبوب ذاك النسيم
سراً عيشنا الرقيق الحواشي لو يدوم السرور للمستديم
وطراً ما تقضى الى أن تقضى زمن ما زمامه بالذميم
أيها المؤذنى بظلم الليالى ليس يومى بواحد من ظلوم
ولقد كان ينظر الى أيامه الماضية فيحن اليها حنيناً مؤلماً ، فاذا قرأت
شعره في ذلك رأيت نفسك كأنك واقف على أطلال سعادته البالية ، فبكى
وبكى معه . كما قال :

ألا هل الى الزهراء أوبة نازح تقضت مباينها مدامعه نزحاً
مقاصير ملك أشرقت جنباتها نخلنا العشاء الجون^٣ أثناءها صبحاً
يمثل قرطبيها لى الوهم جهرة فقبتها فالكوكب الرحب فالسطحاً

١ راجع قصيدته التى يرثى بها المعتضد ويمدح المعتمد ابنه فى نفع الطيب طبع أوروبا
ج ٢ صفحة ٦١٤ ٣ الجون يطلق على الأبيض والأسود والفرض منه الأسود

محل ارتياح يُذكر الخلدَ طيبه^١ اذا عزّ أن يمسي الفتي فيه أو يضحا
 هناك الحمام الورق^١ تندى خفافها ظلال عهدت الدهر فيها قى سمحا
 تعوضت من شدو القيان^٢ خلاها صدى فلوات قد أطار الكرى صبحا
 ومن حملى الكأس المندى مديرها تقحم أهوال حملت لها الرمحا

١ التى فى لونها يابض ممزوج بسواد ٢ الجوارى

الغزل في شعر ابن زيدون

يتبين من أحوال الاجتماع في الأندلس ، وميول النفوس واختلاط النساء بالرجال ، واندماج كثير من الأديبات في مجالس اللهو والطرب ، ان المرأة شغلت جزءاً عظيماً من أوقات الرجال المفكرين ، وملأت رؤوسهم كما أن مجالس الشرب كان لها سلطان عظيم على نفوسهم . فكانت المرأة تحرك العواطف والشعور ، والخر تدير العقول وتعمل عليها القول ، وتفتح أمامها طرق التصور والخيال . والمقول ثَمَلَةٌ بنشوة الغرام ، والرؤوس مُثْقَلَةٌ بحرارة المدام ، والناس لا يفوتهم الطرب ، ولا يريدون أن يتواروا عنه لمُلقته بنفوسهم ، حتى في أشد المحن . فقد رأينا ان ابن زيدون كتب وهو في سجنه لصديقه أبي حفص بن برد يقول :

وأدر ذكري كاساً ما امتطت كفك كاسُ

واغتنم صفو الليالي انما العيش اختلاس

وقع ابن زيدون في شرك ولادة بنت المستكفي بالله ، وكانت خليعة ماجنة بارعة في الجمال أديبة شاعرة ، ذات مكانة رفيعة بين الأدباء « تناضل الشعراء وتساجل الأدباء ، وتفوق البرعاء... خرجت على نهاية في الأدب والظرف حضور شاهده ، وحرارة أوابده ، وحسن منظر ومخبر ، وحلاوة مورد ومصدر . وكان مجلسها بقرطبة منتدًى لأحرار المصّر ، وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر ، يعيش أهل الأدب الى ضوء غرتها ، ويتهالك أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها وسهولة حجابها وكثرة منتابها ، تخلط ذلك بملو نصاب وكرم أنساب ، وطهارة أثواب ، على أنها أوجدت للقول فيها السبيل بقلة مبالاتها ومجاهرتها بلذاتها... » وقالوا « انها

كانت بالمغرب كملية بالمشرق ، الا أن هذه تزيد بمزية الحسن الفائق . وأما الأدب والشعر والنادرة وخفة الروح فلم تكن تقصر عنها . وكان لها صنعة في الغناء . وكان لها مجلس يشاه أدباء قرطبة وظرفاؤها، فيمرّ فيه من النادر وانشاد الشعر كثير لما اقتضاه عصرها وكانت من الأدب والطرف، وتمتيع السمع والطرف، بحيث تختلس القلوب والألباب ، وتعيد الشيب الى أخلاق الشباب « فنال ابن زيدون رضاها ، ووقع من نفسها كما وقعت هي من نفسه ، حتى كتبت اليه تضرب له موعداً فقالت :

ترقب اذا جن الظلام زيارتي فاني رأيت الليل أكرم للسر
وبى منك ما لو كان بالشمس لم تلح وبالبدر لم يطلع وبالنجم لم يسر
قال أبو الوليد : « فلما طوى النهار نوره ، ونشر الليل نيره أقبلت بقدر كالتضيق ، وردف كالكتيب ، وقد أظقت نرجس المقل ، على ورد الخجل . فلما الى روض مديح ، وظل سجسج ، قد قامت رايات أشجاره ، وفاضت سلاسل أنهاره ، ودر الطل منشور ، ورقيق الراح مزرور . فلما شبنا نارها ، وأدركت منا ثارها ، صرح كل منا بحبه وشكا ما بقلبه ... وأنشدتها :

ودع الصبر محب ودعك ذائع من سره ما استودعك
يقرع السن على أن لم يكن زاد في تلك الخطى اذ شيعك
ياأخا البدر سناء وسنا حفظ الله زماتا أطلعك
ان يطل بعدك ليلى فلکم بت أشكو قصر الليل معك
وكتبت اليه بعد ذلك تقول :

الاهل لنا من بعد هذا التفرق سبيل فيشكو كل صب بما لقي
الى ان قالت .

تمر الليالى لا أرى البين ينقضى ولا الصبر من ريق التشوق معتقى
سقى الله أرضا قد غدت لك منزلا بكل سكوب هاطل الوبل مغدق

لأنريد الآن أن نتكلم فى العشق وأثره فى النفس وما يوحىه من روائع القول وجمال الفكر حتى . عند عامة الناس ، فان تاريخ الانسانية حافل بمجواته . ولكننا نقول ان العشق فى كلام العرب أو شعر الغزل كما يسمونه ، ليس من المسائل الهزلية . لأن الشعر الذى هو وحي النفوس وجمال الادراك الانسانى ، أكثر ما يكون ظهوراً فى التعبير عن الحب ، ووصف هذا الضعف الانسانى الذى نسميه عشقاً ، . فان العشق ادراك أكبر مظاهر الجمال فى الحياة . ومن لم يفتح قلبه يوماً ما ، لم يدرك أسرار الحياة ، ولم يرغب ظواهرها ولم يتسرب الى نفسه بصيص ضوء من جمال الكون . ان جمال مظاهر الحياة وأسرار النفوس فى التألف ، وكثير من آمال الناس فى تلك الصلة النفسية . والعشق وما فيه من سعادة وجمال سر كامن فى الشعر ، لأنه مصدر الشعر الخيالى الجميل . لذلك كان أجمل الشعر ما يكشف عن سر من أسرار النفوس ، ويفتح القلوب . ويظهر مكنونات الانسان وأخلاقه وآلامه وآماله .

ان النساء منبع من منابع الشعر . والشعراء مدينون لمن بأفضل الصفات لديهم وهى وصف شعور الناس . والشاعر الذى يشعر بالحب لا يتكلم عن نفسه فحسب ، وإنما يجمع آلام العشاق وأنينهم فيتألم ويئن معهم . وليس أعذب من هذه الآلام ولا أحب للنفس من سماع هذا الأنين . ان الشاعر يصوغ بكلماته اهتزازات القلوب ورنات مايجول بها من المعانى ويدفعها الى النفوس فتصبو اليها ، ويندبها بين العشاق فيرى كل قلبه وكأنه ينظر فى مرآة يرى فيها صورته . وذلك لا يكون الا فى الشعر .

فاذا اخطأ العرب فى امعانهم فى هذا النوع والاكتثار منه ، فقد اخطأوا من جهة واحدة : وهى تكرار المعانى وتقليد بعضهم بعضاً فى ذلك ، وظنهم أن كل

قلب يحب بشكل واحد، وان صلة الحب بمظاهر الجسم قوية متينة ، وان المعاني محصورة في ذلك .

ولكن ابن زيدون ليس من هؤلاء المقلدين ، بل من الذين كانوا يجولون جولات واسعة في الخيال ، فكان فنياً مبدعاً. أرايت شعراء الغرب كيف يطنبون في وصف الأمكنة التي اجتمعوا فيها مع صديقاتهم، وهم يتخذون ذلك وسيلة لأمرين : الأول احياء ذكرى تلك الأيام والأمكنة وما فيها ، اذ كل شيء هناك كان يشهد حبهم ويعطف على عشقهم، وتلك الأمكنة جميلة لأنها احتوت عليهم، والأضواء التي كانت تسطع عليهم والأشجار التي كانت تظللهم، والكواكب التي كانت تتجسس أخبارهم ، جديرة بأن لا تنسى ، لأنها أثر من آثار العشق .

الثاني ان الشاعر الفنى يفر من التكرار، ويعرف ان معاني العشق والحب سرعان ما تنفد، فهو يتحایل على بث شيء من المعاني الأخرى التي لها صلة بذلك ، كي يتسنى له أن يجول في ميدان أوسع ليصل الى التعبير عن مراده ، أو يمنع العقول من أن يدركها الملل . فهو يستعين بذلك كما يستعين المصور الماهر بالألوان ل اظهار الصورة التي يريد أن يبرزها . كذلك كان ابن زيدون من هؤلاء الفنيين أو قريباً منهم . فقد التجأ الى مدينة الزهراء الجميلة في أيام الربيع ، يريد أن يسلي نفسه ويخفف عنها من أثر حبه ولآدة ، فذكر في شعر أرسله اليها كل ما كان يحيط به اذ ذاك ، وأبدع أيما ابداع ، وافتننا عظميا في ذلك . فقال :

انى ذكرتك بالزهراء مشتاقا	والأفق طلق ووجه الأرض قدراقا
وللنسيم اعتلال في أصائله	كأنما رَقَّ لي فاعتل إشفاقا
والروض عن مائه الفضى مبتسم	كما حَلَّتْ عن اللبات أطواقا
يوم كأيام لذات لنا انصرمت	بتنا لها حين نام الدهر سراقا
نلهوا بما يستميل العين من زهر	جال الندى فيه حتى مال أعناقا

كأن أعينه اذ عاينت أرقى بكت لما بى فجال الدمع رقرقاً
 ورد تألق في ضاحى منابيه فازداد منه الضحى في العين اشراقاً
 سرى ينافحه تيلوفر عبق وسانن بته منه الصبح أحداقاً
 كل يهيج لنا ذكرى تشوقنا اليك لم يعد عنها الصدر ان ضاقاً
 لو كان وفي المني في جمعنا بكم لكان من أكرم الأيام أخلاقاً
 لا أسكن الله قلبا عن ذكركم فلم يطر بجناح الشوق خفاقاً
 لو شاء حلي نسيم الريح حين هفا وأفاكم بفتى أضناه ملاقاً
 كان التجازى بمحض الود من زمن ميدان أنس جرينا فيه اطلاقاً
 فالآن أحمد ما كنا لعهدكم سلوتمو وبقينا نحن عشاقاً

واذا كان لابن زيدون ميزة في شعره الغزلى فليس ذلك في ابتكار المعانى
 التى لم يسبق اليها ؛ وانما هى في طريقة تصويرها بعبارات تملك النفوس وتستولى
 على القلوب . وكأن الانسان لم يقرأ مثلها ولم يسمع بما يشبهها لجودة الافتنان
 في التعبير و الأسلوب . كما فى قوله :

اليك من الأنام غدا ارتياحى وأنت من الزمان مدى اقتراحى
 وما اعترضت هموم النفس الا ومن ذكراك رينحائى وراحى
 فدينك ان صبرى عنك صبرى لدى عطش عن الماء القراح
 ولى أمل لو الواشون كفوا لأطلع غرسه ثمر النجاح
 وأعجب كيف يغلبنى عدو رضاك عليه من أمضى سلاحى
 ولما أن جللتك لى اختلاسا أكف الدهر للحن المتاح
 رأيت الشمس تطلع فى نقاب وغصن البان يرفل فى وشاح
 فلو أسطيع طرت اليك شوقا وكيف يطير مقصوص الجناح

وحسبى أن تطالملك الأمانى بأفئك فى مساء أو صباح
 فتؤادى من أسى بك غير خال وقلبي من هوى لك غير صاح
 وإن تهدي السلام الى شوقا ولو فى بعض أنفاس الرياح
 ولقد يسمع الانسان أئينه فى شعره ، ويرى نفسه الحزينة من خلال كلامه ،
 وكأته يرى تلك الحيرة وذلك القلق النفسى للذين يملآن نفوس العشاق ويمنعان
 عنهم راحة الحياة ولذاتها على أنه يلتذ لذكر محبوبته وتذوق الآلام فى سبيلها .
 فيقول :

متى أنبيك ما يى ياراحتى وعذابى
 متى ينوب لسانى فى شرحه عن كتابى
 الله يعلم أنى أصبحت فيك لما يى
 فلا يلد منامى ولا يسوغ شرابى
 يافتنبة المتعزى وحجة المتصاى
 الشمس أنت توارت عن ناظرى بالحجاب
 ما البدر شف سناه على رقيق السحاب
 الا كوجهك لما أضاء تحت النقاب

ولقد بلغ درجة من التعبير يحمل بها القارئ على الاعتقاد بأنه مخلص كل
 الاخلاص فى حبه ، وأن حبه هذا هو كل أمنيته . وأنه يرى فى سبيل العشق ما
 لا يراه غيره ، ويهون عليه كل شيء فى سبيل ارضاء حبيبه حتى حياته . وهو
 نفور بهذا كما قال :

أنى تضيع عهدك أم كيف تخلف وعداك
 وقد رأيتك الامانى رضى فلم تتعدك

يأليت شعري وعندي ما ليس في الحب عندك
هل طال ليلك بعدي كطول ليلي بعدك
سكني حياتي أهبها فلست أملك ردك
الدهر عبيد لَمَّا أصبحت في الحب عبدك

على أننا لا نبرئ ابن زيدون من التصنع أحيانا فيما يقول لأنه كان كغيره من الشعراء يعبر عن غير شعور، فان تمكنه من الصناعة كان يفتق لسانه بقول الشعر . كما قالوا ان السلطان أمره ان يعارض قطعاً كان يغني بها ، واستحسن ألقانها ، فانشأ أبياتا كأنها صادرة من عاشق متميم، وضمنها مدح السلطان . فقال :

يقصّر قربك ليلى الطويلا ويشقى وصالك قلبي البليلا
وان عصفت منك ريح الصدود فقدت نسيم الحياة البليلا
كما أننى ان أطلت العثار ولم يبد عذرى وجهاً جميلا
وجدت أبا القاسم الظافر الـ مؤيد بالله مولى مقبلا
لاقلامه فعل أسيافه يظل الصرير يبارى الصليلا

وفى بعض كلامه ، ما يدل على أنه كان يتصيد الالفاظ والمعاني التى قيلت فى العشق ، فينظمها ويلبسها ثوبا جديداً وكأنها له ، وقد برع براعة عظيمة فى ذلك كما . قال :

ياغزالا أصارنى موثقاً فى يد المحن
إننى منذ هجرتنى لم أذق لذة الوسن
ليت حظى اشارة منك أو لحظة تعين
شافعى يامعذبنى فى الهوى وجهك الحسن
كنت خلواً من الهوى وأنا اليوم مرتين
كان سرى مكتماً وهو الآن قد علن

ليس لى عنك مذهب فكأ شئت لى فكن
وهو فى كل كلامه مبدع مجيد متفوق على غيره ، خفيف الروح عذب
الالفاظ سهل الأسلوب .
أما نويته التى أرسل بها الى ولادة وبثها كثيراً من شعوره وآرائه المختلفة.
فهى على شهرتها وجمالها ككل شعره ولذلك لم نذكرها

نثر ابن زيدون

اشتهر ابن زيدون برساليته الجدية والهزلية . أما الأولى فهي التي كتبها في سجنه يستعطف بها ابن جهور ، وأما الرسالة الهزلية فكتبها على لسان ولادة يتهم على ابن عبدوس وينال منه لمشاركته في غرامه .

اشتهر ابن زيدون بهاتين الرسالتين لجودة أسلوبهما النادر المثال، ولاحتوائهما على كثير من الاسماء التاريخية والأمثال العربية، واقتباس أبيات من الشعر معروفة وقعت في صوغ الكلام وكأنها عملت من أجله، أو قيست على سمته . وليس من السهل معرفة الاقتباس وأمكنته ، ولا من الهين أن يخوض الانسان غمار الأدب الواسع ويسهل عليه الاختيار منه ، ويحفظ نفسه من الضلال في نواحيه ويميز بين الجيد وغيره، ويختار ما يناسب المقام ، ويكون ذلك مقبولا لدى النفس ثم يصوغ ذلك كله في قالب واحد ويضم بعض أجزائه الى بعضها ويمخضه كما يمحض الزبد فلا يتنافر منه جزء مع آخر .

ان الكلام على هذا النحو لأصعب من الابتكار في التأليف المبتدأ ، وكلما قرب الى القارئ الاسلوب وصعب عليه معرفة تأليفه ، شعر بسعة اطلاع الكاتب ، وأعجب به وكبرت في نفسه منزلته . وكلما فاجأه اسم لم يكن يخاطر له ببال ، أو رأى كان بعيداً عن ذهنه ، أو تلميح الى قصة لا يظن أن تذكر في مثل هذا الكلام ، أو عبارة تحرك من نفسه حب الاستطلاع ، أو مثل " اتعظ به ، أو ذكر رجل شهير يمجده ، أو نكتة تسربها نفسه ، أو مسألة فنية يرتاح لها ويلتذ بذكرها ، زاد أعجابه بالكاتب وما كتب ، ورأى أن كل انسان

غير قادر على ذلك ، وان هذه صفة يمتاز بها الكاتب عن سواه . كل ذلك في نثر ابن زيدون رهو من دواعي الإعجاب بأسلوبه في رسائله . فقد عرف كيف يأتي في كتاباته بالتناسق في المعاني والألفاظ ، بل عرف أن يأتي بهذا التناسق في التأليف والجمع وكيف يتصيد كلام غيره ويرصفه رصفا جميلا ، كما أمكنه أن يرسم لنفسه منهجاً جمع فيه كل معلوماته ، واختار منها ما يناسب حاجته وموضوعه ، فكانت رسائله أنيقة جميلة ، وكان كالمهندس الماهر الذي يعرف كيف يجمع بين الحجر والحجر ، والمصور الفنان الذي يؤلف بين اللون واللون .

ولقد حاول ابن زيدون في رسالتيه الوصول الى غرضه ، فلم يدع وسيلة ما يحسم بها المعنى في نفس القارئ لتنهال عليه المعاني ويكون غرضه أوضح ، ورأيه أظهر ، الا فعلها . فكل ما ذكره من الأمثلة المقتبسة والمعاني المختارة قصد به توضيح ما يريد .

ففي رسالته الجدلية أراد أن يستعطف ابن جهور ، ويبرئ نفسه مما اتهم به وينكل بأعدائه . فبدأ رسالته بالاستعطاف وهو يستدل نفسه تارة ، ويمدح ابن جهور ويظهر اخلاصه له ويتملق اليه أخرى . ويعتذر عنه فيما وقع منه في حقه ، ثم يبين له شدة ألمه من شناعة أعدائه فقال :

« يا مولاي وسيدى الذى ودادى له ، واعتمادى عليه ، واعتدادى به ، وامتمادى منه ، ومن أبقاه الله ماضى حد العزم ، وارى زَند الأمل ، ثابت عهد النعمة . ان سلبتنى أعزك الله لباس نعمائك ، وعطلتنى من حُلِي اِيناسك ، وأظلماتنى الى برود اسعافك ، ونفضت بى كف حياطتك ، وغضضت عنى طرف حمايتك ، بعد أن نظر الأعمى الى تأميلي لك ، وسمع الأصم ثنائى عليك ، وأحس الجمد باستحمادى اليك ، فلا غرو قد يَفْص الماء شاربهُ ، ويقتل الدواء المستشفي به ، ويؤتى الحذر من مأمنه ، وتكون منية المتمنى فى أمنيته ، والحين قد يسبق جهد الحريص .

كل المصائب قد تمر على الفتى وتهون غير شامة الاعداء
وأنى لأتجلد ، وأرى للشامتين أنى لريب الدهر لا أتضعض . فأقول: هل أنا
الأيدي أدمها سوارها ، وجبين عض به اكليله ، ومشرقي ألقه بالارض
صاقله، وسمهريّ عرضه على النار متقفه ، وعبد ذهب به سيده مذهب الذى يقول
قمسا ليزدجروا ومن يك حازما فليقس أحيانا على من يرحم»

ثم أخذ يتعلل بالآمال ، ويضرب فى ذلك الأمثال ، ليسلى نفسه ويهدئ
منها بعبارات شعرية يريد أن يؤثر بها فى نفس المرجو ، ويمجده على كل شيء ،
كما يحمده الله على السراء والضراء . فقال:

«هذا العتب محمود عواقبه، وهذه النبوة غمرة ثم تنجلي ، وهذه النكبة سحابة
صيف عن قليل تقشع . ولن يريني من سيدى أن أبطأ سنيّه ، أو تأخر غير
ضنين غناؤه ، فابطأ الدلاء فيضا أملؤها وأثقل السحائب مشيا أحفلها ، وأنفع الحيا
ما صادف جدبا ، وألذ الشراب ما أصاب غليلا ، ومع اليوم غد ، ولكل أجل كتاب .
له الحمد على اهتباله ، ولا عتب عليه فى اغتفاله

فإن يكن الفعل الذى ساء واحدا فأفعاله اللاتى سررن ألوف»

ثم وقف موقف المذلة وكانما يسمع الانسان بكاءه فى كلامه ، واستصغر ذنبه
فى ساحة عفو سيده ، وفى جوار ما ارتكبه غيره من الذنوب الكبيرة ، فقال :

«وأعود فأقول: ما هذا الذنب الذى لم يسمعه عفوك؟ والجهل الذى لم يأت من
ورائه حملك؟ والتطاؤل الذى لم يستغرقه تطولك؟ والتحامل الذى لم يف به
احتمالك . ولا أخلو أن أكون بريئا فأين العدل؟ أو مسيئا فأين الفضل؟
الا يكن ذنب فعد لك واسع أو كان لي ذنب ففضلك أوسع

فهبني مسيئاً كالذى قلتَ طالباً قصاصاً فأين الأخذ ياعز بالفضل
حنائيك . قد بلغ السيل الزبى ، ونالنى ما حسبى به وكفى ، وما أراى الا لوأمرت
بالسجود لآدم فأبيت واستكبرت ، وقال لى نوح اركب معنا ، فقلت سآوى الى
جبل يعصنى من الماء ، وأمرتُ ببناء صرح لعلى اطلع الى إله موسى ، وعكفت على
العجل ، واعتديت فى السبت ، وتعاطيت فعمرت ، وشربت من النهر الذى
ابتلى به جيوش طالوت»

والمعجب فى ذلك من حضور ذهنه وحديثه مما يدل على تيقظه
الشديد . ثم أخذ بعد ذلك يبرىء نفسه ، ويعجب من سيده الذى يصنى
الى أعدائه ، على ما كان له من المنزلة التى لم تدفع عنه ذلك ، وأخذ يلوم ابن
جهور لوما لا يظهر الا من خلال عباراته ، لشدة تمكنه من تصرف
الكلام واحتراسه فيما يقول :

« فكيف ولا ذنب الا نعمة أهداها كاشحٌ ، ونبأ جاء به فاسق ، وهم الهمَّازون
المشاءون بنميم ، والواشون الذين لا يلبثون أن يصدعوا العصا ، والغواة الذين
لا يتركون أديماً صحيحاً

والله ما غششتك بعد النصيحة ، ولا انحرفت عنك بعد الصاغية اليك ، ولا
ناصبت لك بعد التشيع فيك ، ولا أزمعت يأساً منك ، مع ضمان تكفلت به الثقة
عنك ، وعهد أخذه حسن الظن عليك . فقيم عبث الجفاء بأذمتى ، وعاث العقوق
فى موائى وتمسكن الضياع من وسائلى ؟ ولم ضاقت مذاهبى وأكثدت مطالبى ؟ وعلام
رضيت من المركب بالتعليق بل من الغنيمة بالاياب ؟ وأتئى غلبنى المغلب وفجر على
العاجز الضعيف ، ولطمتنى غير ذات سوار ؟ ومالك لم تمنع منى قبل ان افترس

وتدركنى ولما أمزق، أم كيف لا تتضرم جوامح الكفاء حسداً الى على الخصوص
بك ، وتتقطع أنفاس النظراء منافسة في الكرامة عليك ؟ »

ثم ذكره باخلاصه له ، ومدحه اياه ، وأخذ يرجع الى استعطافه ويعلقه
فقال :

« وقد زاننى رسم خدمتك ، وزهاني اسم نعمتك ، وأبليت البلاء الجليل في
سماطك ، ووقت المقام المحمود في بساطك

ألست الموالى فيك غرقصائد هي الأنجم اقتادت مع الليل أنجما
ثناء يُظنّ الزوض منه منورا ضحى ويخال الوشى فيه منمنماً
وهل لبس الصباح الا برداً طرزته بفضائك؟ وتقلدت الجوزاء الا عقداً فصلته
بما تركه؟ واستملى الربيع الا ثناء ملائته في محاسنك؟ وبث المسك الاحديثاً أذعته
في محامدك؟ ما يوم حليلة بسر. وان كنت لم أكسك سليبا، ولا حليتك عطفاً،
ولا وسمتك غفلاً. بل وجدت أجراً وجصاً فبنيت، ومكان القول ذا سعة فقلت .
حاشاك أن أعد من العاملة الناصبة ، وأكون كالدبالة المنصوبة تضىء للناس
وهي تحترق ، فلك المثل الأعلى وهو بى وبك أولى . »

ثم جاءته عزة نفسه فانتقل نقلة أخرى ، فبين له أن مثله لا يصبر على الهوان
وأنة يستطيع فراقه وهجر بلده الى مكان آخر ، ويخاطر في هجرته هذه بما عسى
أن يلاقى من الآلام مستأنساً بأدبه وفضله . فقال :

« ولمعرك ما جهلت أن صريح الرأى أن أتحول اذا بلغتني الشمس ونباني
المنزل، وأصفح عن المطامع التي تُقَطِّع أعناق الرجال، فلا استوطىء العجز، ولا أطمئن

الى الغرور . ومن الامثال المضروبة خَامَرَى أُمَّ عَامِر . واني مع المعرفة بأن الجلا
سباً ، والنُّقْلَةُ مُثْلَةٌ

ومن يفترب عن قومه لم يزل يَرَى مَصَارِعَ مَظْلُومٍ بَحْرًا وَمَسْحَبًا
وقد فن منه الصالحات وان يسيء يكن ما أساء النار من رأس كَبْكَبًا

عارف أن الأدب الوطن لا يخشى فراقه ، والخليط لا يتوقع زِيَالَهُ ، والنسيب
لا يُخْفَى ، والجمال لا يُخْفَى . ثم ما قران السعد للكواكب أبهى أثراً ، ولا أسنى خطراً
من اقتران غنى النفس به ، وانتظامها نسقاً معه ، فان الحائز لها ، الضارب بسهم فيهما ،
وقليل ما هم ، أيما توجه ورد منهل بر ، وحط في جانب قبول ، وضوحك قبل انزال
رحله ، وأعطى حكم الصبي على أهله
وقيل له أهلاً وسهلاً ومرحباً فهذا مَيِّت صالح ومقيم

وكأنه شعر بأن هذا يدعو ابن جهور الى أن ينسى استعطافه لما يظن في
هذا الكلام من عُجْب ابن زيدون بنفسه . فأخذ يلفظ من حديثه ، ويسكن من
هياجه ، ويظهر تمسكه بجوار سيده لأنه أفضل شيء لديه في الحياة . فقال :
غير أن الوطن محبوب ، والمنشأ مألوف ، واللبيب يحن الى وطنه ، حنين
النجيب الى عطنه ، والكريم لا يجفو أرضاً فيها قوابله ، ولا ينسى بلدة فيها مراضعه ،
قال الاول :

أحب بلاد الله ما بين مَنَعَجٍ الىَّ وسلمى أن يصوبَ سحابها
بلادها حل الشباب تَمَائِي وأول أرض مس جلدى تراها
هذا الى مغالاة بقصد جوارك ، ومنافسة بلحظة من قربك ، واعتقادي
أن الطمع في غيرك طَبَعٌ ، والغنى ممن سواك عُنَا ، والبذل منك أعور ، والعوض
لَقَاءٌ ، وكل الصيد في جوف الفرا

وإذا نظرت الى أميري زادني ضنا به نظرى الى الامراء »

ثم أخذ يقوى أمله في اجابة طلبه، ويضرب الامثال في ذلك، ويمدح في جوار سيده بقوله :

« أعينك ونفسى من أن أشيم خلِّباً وأستمطر جَهماً ، وأكرم غير مكرم ، وأشكو
شكوى الجريح الى العقبان والرخم ، فما أبَسْتُ لك الالندر ، وحركت لك الحوار
الالتحن ، ونهنتك الا لأنا ، وسريت لك الا لأحمد الشرى لديك ، وانك ان
سنيت عقد أمرى تيسر ، ومتى أعذرت في فك أسرى لم يتعذر ، وعلمك محيط بأن
المعروف ثمره النعمة ، والشفاعة زكاء المروءة ، وفضل الجاه يعود صدقة
وإذا امرؤ أهدى اليك صنعة من جاهه فكأنها من ماله »

هذا أكثر ما في هذه الرسالة الجديدة . وأعظم ما فيها تأليفها الذى يرى من
خلاله تلك النفس الحائرة المضطربة ، التى تهيج مرة وتسكن أخرى ، وتجد أحيانا
ثم ترجع وتلين ، وكأنما الكاتب فى نزاع مستمر بين نفسه وأهوائه ، أو كأنه هو
ونفسه قرنان : يشتد كل منهما عند ما يخاف قوة صاحبه

هذه صورة نفس ابن زيدون يراها القارئ اذا وقف على كشب ونظر الى
حركات نفسه وهو يكتب أو يفكر فى هذه الرسالة . يرى نفسه الأبية وهو
يفخر بها ويظن أنه من أهل الفضل ، ويرى نفسه المتهكة ، وهو يحسب ويعد
الذنوب الكبيرة التى تستحق مثل عقوبته ، لا يريد أن يقول هذا ظلم ، ولكن
يريد أن يقول هذا حق وخرق فى رأى . ويرى نفسه الكثيبة التى أخذتها
الاكدار فذلت وأخذت تستعطف وتستشفع وتملق . يرى الانسان كل ذلك
فى هذه الرسالة . ومن هنا جمالها وابداعها . لا ما بها من الاسلوب البليغ أو
العبارات المختارة لا غير ،

أما رسالته الثانية التي كتبها لابن عبدوس عن لسان ولادة . فقد دل فيها على اطلاع واسع بالأمثال والأخبار ، وعلى باع أوسع في الهجاء . لأنه أقذع في ذم ابن عبدوس اقتداعا ، وتهكم به تهكما لامثيل له ، حتى انه ليخيل الى الانسان أنه جمع كل ما يمكن أن يقال في الذم والتهكم وأفرغه على ابن عبدوس واستعمل أسلوبا جريلا خلايا يدل على تمكنه من التصرف في الكلام ومعرفة امتلاكه عقول القراء ، لان هذه الرسالة على طولها وكثرة الاقتباس فيها ، الذي يستغرق أربعة أخماسها أو أكثر ، وعلى ما فيها من الأمثال المعروفة والايات المشهورة ، والاطناب في ذكر الاسماء التي يكفي منها القليل ، ليس فيها ما يدعو الى الملل ، ولا ما يشعر بالاستهجان والابتذال . على أن بها شيئا كثيرا من تلك العيوب ، فقد ذكر أكثر من خمسين اسما لمشهورى الرجال ، سردها سردا ، وكان يكفي عشرها ، وأكثر أيضا من صفات الذم مما كاد يكون ثرثرة ولغوا . ولكنه ستر كل ذلك ببراعته في الصناعة . وليس أدل على جفاء الطبع وغلظه من هذه الرسالة . فقد ابتدأها بسفاهة نادرة ولكنها سفاهة أدبية فنية فقال :

«أما بعد أيها المصاب بعقله . المورط بجهله . البين سقطه . الفاحش غلطه العائر في ذيل اغتراره ، الأعمى عن شمس نهاره . الساقط سقوط الدباب على الشراب . المتهافت تهافت الفراش على الشهاب . فان العجب أ كذب . ومعرفة المرء نفسه أصوب . وانك راسلتني مستهديا من صلتى ماصفرت منه أيدي أمثالك . متصديا من خلتي لما قرعت دونه أنوف أشكالك . مرسلا خليلتك مرتادة ، مستعملا عشيقتك قوادة . كاذبا نفسك انك ستنزل عنها الى . وتخلف بعدها على

ولست بأول ذى همة دعت له لما ليس بالنائل
ولاشك أنها قلتك اذا لم تضن بك . وملتلك اذا لم تعز عليك . فانها أعذرت

في السفارة لك . وما قصرت في النيابة عنك . زاعمة أن المروءة لفظ أنت معناه .
والانسانية اسم أنت جسمه وهيولاه . حتى خيلت أن يوسف عليه السلام
حاسنك ففضضت منه . وأن امرأة العزيز رأتك فسلت عنه . وأن قارون أصاب
بعض ما كنزت . وكسرى حمل غاشيتك ، وقيصردعى ماشيتك....»

وسار على هذا النحو وأكثر من ذكر هذه الاسماء . ثم أقذع في الدم وأفحش
في صفاته فقال :

« وهبالم تلاحظك بعين كليلة عن عيوبك ملؤها حبيبها حسن فيها من تود .
وكانت انما حلتك بجلاك ، ووسمتك بسيماك . ولم تعرك شهادة... ولم تكن كاذبة فيما
أثنت به عليك ، فالعبدى تسمع به خير من أن تراه . هجين القذال ، أرعن السبال .
طويل العنق والعلاوة . مفرط الحق والغباوة . جافى الطبع . سىء الجابة والسمع .
بغيفض الهيئة . سخييف الذهاب والحيئة . ظاهر الوسواس . منتن الأنفاس .
كثير المعاييب . مشهور المثالب . كلامك نممة . وحديثك غمغمة . وبيانك فقهة .
وضحكك قهقهة . ومشيك هرولة ، وغناك مسألة . ودينك زندقة . وعلمك مخرقة
مسار لو قسمن على الغوانى لما أمهرن الا بالطلاق »

واستمر على هذا النحو الى آخر الرسالة يضرب الأمثال للاستهزاء
والتهكم . ولقد كشف ابن زيدون في هذه الرسالة عن نفس حقودة محبة للانتقام
وانه شديد الحفيظة ، ودل على غلظة في طبعه ، وخشونة في أخلاقه . مع ذلك
فهي رسالة تمتاز بأسلوبها . وتناسق عباراتها . ولعل ابن زيدون أخذ هذا
الاسلوب عن الجاحظ في بعض رسائله ، كما في رسالة التبريع والتدوير

احمد ابن عبد ربه^(١)

عاش ابن عبد ربه في أيام نضارة دولة بني أمية في الأندلس ، زمن عبد الرحمن الناصر ، وكان أكرم الناس لديه ولدى وليّ عهده الحكم ، واشتهر ذكره بما كان له من العلم والفضل . تعلم في قرطبة قاعدة العلوم اذ ذاك . ودرس جميع الفنون العربية ، ولا سيما علوم الأدب ، حتى أصبح اماما فيها ، وكان محبا للاطلاع فصار أعلم أهل زمانه ، وأكثرم معرفة بآداب العرب ولا سيما التاريخ والنوادر والملح . وكان في أول أمره ككل الادباء والظرفاء الذين يميلون الى اللهو فكان كثير من شعره في صباه شعراً رقيقاً غزلياً^٢ وقد رجع عن لهوه في شيخوخته وتاب عما فعله في أيامه الماضية . وقالوا انه عمل على أعاريض شعره الذي قاله في صباه أشعارا في الزهد وسماها بالمحسسات

١ هو احمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب كان جده من موالى هشام بن عبد الرحمن الداخل ثاني خلفاء بني أمية بالأندلس . ولد في سنة ٢٤٦ هـ وتوفي سنة ٣٢٨ هـ ودفن بقرطبة بعد أن عاش ٨٢ سنة . ذكره ابن خلكان في الجزء الاول . وياقوت الحموي في كتابه معجم الادباء في الجزء الثاني ، والغني في كتابه بنية الملتبس صفحة ١٣٧ . وذكر في عدة مواضع من نفع الطيب ولا سيما في الجزء الثاني ، وفي الجزء الاول من يتيمة الدهر طائفة من شعره ٢ شهد له المتلبي بهذا . روي في ذلك وذكره صاحب نفع الطيب في الجزء الثاني وياقوت في كتابه معجم الادباء جزء ثاني انه اجتمع مع أبي الطيب في مسجد عمرو بن العاص أحد الادباء ففاوضه قليلا ثم قال له أنشدني للمليح الأندلس يعني ابن عبد ربه فأنشده :

ياؤواؤا يسى العقول أنيقا ورشا بتعذيب القلوب رقيقا
ماان رأيت ولا سمعت بمثله دارا يمود من الحياء عقيقا
واذا نظرت الى محاسن وجهه أبصرت وجهك في سناه غريقا
يا من تقطع خصره من رقعة ما بال قلبك لا يكون رقيقا
فلما أكل انشادها استمادها ثم صفق يديه وقال: يا ابن عبد ربه لقد تأتيتك العراق حبوا .

وقال عنه صاحب اليتيمة: «أحمد محاسن الأندلس علماً وأدباً ونبلاً . وشعره في غاية الجزالة والحلاوة ، وعليه رونق البلاغة والطلاوة » وأورد له طائفة من شعره .
والحق ان مقطوعاته الشعرية في الغزل والوصف من أرق الشعر المعروف في ذلك وأحسنه . وأجمل شعره في هذا النوع ، وكل هذا من قبيل الصناعة وحب الكلام الجميل لأنه كان من الذين يميلون الى قول الشعر ونظم الكلام ، لا ممن خلقوا شعراء ، بل هو أديباً أكثر منه شاعراً . وإنما جاءه الشعر من كثرة حفظه وإطلاعه وأمثالته بأقوال الشعراء . وكان بطبيعته ميالاً الى الرقة ، فأنحدر الى قول الشعر الرقيق ، وأغرب بعض الاغراب فيه ككثير ممن يسميهم الأدباء شعراء . فهو رقيق الذوق حسن الديباجة

وكثير من كلامه أبيات قليلة تدل على انه كان شغوفا بقول الشعر ولكنه شغف فني . حتى لقد يقول البيتين أو الثلاثة فيعرف كيف يختار الالفاظ والمعاني المرقصة ، وكأنما يشرب الانسان خمرأ لا يقرأ شعراً . أو كأنما انفتح أمامك منظر جميل ، أو لحظة من لحظات الحياة اللذيذة . أو كأن الكأس وما فيه والحبيب وجماله كل شيء في الحياة . كما قال :

اشرب على المنظر الأنيق وازجُ بريق الحبيب ريق
واحلل وشاح الكماب رفقا خوفا على خصرها الرقيق
وقل لمن لام في التصابي خل قليلا عن الطريق
وقد أجاد في هذا النوع من الغزل ، كقوله :

بزمام الهوى أمت اليه وبحكم المقار أقضى عليه
بابي من زهى على بوجه كان يدمى لما نظرت اليه
كلما علني من الراح صرفا علني بالرضاب من شفتيه

ناول الكأس واستمال بلحظ فسقتنى عيناه قبل يديه
كذلك كان رقيقاً في شعره وميلاً إلى الرقة في كل شيء ، وإلى الابتكار
في المعاني والأساليب . فقد قالوا عنه ، ورواه ابن بسام في « الذخيرة » وابن
خلدون « في مقدمته » : انه أول من سبق إلى اختراع الموشحات .
ولقد كان يصف مواقف العشاق ومحدثهم ويصور ذلك بشكل ساحر
خلاب وعبارات جذابة . كقوله :

ودعتنى بزورة واعتناق ثم نادى متى يكون التلاق
وبدت لى فأشرق الصبح منها بين تلك الجيوب والاطواق
ياسقيم الجفون من غير سقم بين عينيك مصرع العشاق
ان يوم الفراق أفضح يوم ليتنى مت قبل يوم الفراق
وله قصائد طويلة في العقد الفريد .

وأفضل ما جاء به ابن عبد ربه ، وعد من أجله أكبر أدباء الأندلس ، كتابه
الشهير «العقد الفريد» الذي هو من أمهات كتب الأدب العربية ، وهو كتاب
فد بين هذه الكتب جرى في تأليفه على أسلوب لم يسبق إليه . وهو تقسيمه
إلى عقود وجواهر ، خص كلا منها بكلام في موضوع خاص واستوعب هذه
الموضوعات بقدر ما سمحت له مباحثه ، فجاء كتاباً وافيالمن يريد أن يطلع على ما قيل
في الأدب العربي : من أخبار وقصص ورسائل وكل أنواع النثر والشعر : من
كلام الأعراب والمستعربين . ومن رسائل أدبية وفنية ، وكلام في السياسة
والملك والوعظ والفكاهات والحكم والنوادر . ونقل شيئاً عن بعض الأمم
الأخرى مما كان معروفاً في كتب الجاحظ وغيرها . وأودعه كثيراً من
كلامه . وهو مع هذا كتاب سهل خفيف الروح جم الفائدة ، أسهل تناولاً من

غيره وأدل في جلته عل أدب صاحبه ورقة ذوقه في الاختيار . وفي هذا الكتاب من مسائل التاريخ ما ليس في غيره ، ويكفي الاطلاع عليه للوقوف على شيء عظيم من الأدب العربي وعقول العرب ونفسياتهم . ومعظم الكتاب ، أوكله من مختار كلام الناس ، وقد ذكر المؤلف ذلك فقال :

« وقد ألفت هذا الكتاب وتخيرت جواهره من متخير جواهر الآداب ومحصل جوامع البيان ، فكان جوهر الجواهر ولب اللباب . وإنما لي فيه الاختيار وحسن الاختصار . وفرش لدور كل كتاب وما سواه فما أخوذ من أفواه العلماء ، ومأثور عن الحكماء والأدباء . واختيار الكلام أصعب من تأليفه ... وقد نظرت في بعض الكتب الموضوعة فوجدتها غير متفرقة في فنون الأخبار ، ولا جامعة لجل الآثار ، فجمعت هذا الكتاب كافيًا جامعًا لأكثر المعاني التي تجري على أفواه العامة وتدور على السنن الملوك والسوقة ، وحليت كل كتاب منها بشواهد من الشعر تجانس الأخبار في معانيها وتوافقها في مذاهبها . وقرنت بها غرائب من شعري ... »

وقد أخذوا على المؤلف أنه لم يذكر شيئًا في كتابه عن أحوال بلاده ولا اقتبس فيه من أهل بلده . وقالوا إن صاحب بن عباد سمع بكتاب العقد فلما حصل عليه وتأمله قال هذه بضاعتنا ردت إلينا ، ظننت أن هذا الكتاب يشتمل على شيء من أخبار بلادهم وإنما هو يشتمل على أخبار بلادنا ، لا حاجة لنا فيه ورده . وعابه في ذلك أبو علي الحسن محمد التميمي القيرواني صاحب الرسالة التي كتبها إلى أبي المغيرة بن حزم .

ابن دراج القسطلي^(١)

هو ابو عمر احمد بن درّاج القسطلّي . آدب أهل زمانه ، وأشهر من عرف في عصره بطلاقة اللسان وبلاغة الشعر . قال عنه الثعالبي في يتيمة الدهر: « بلغني أن القسطلّي كان عندهم بصقع الأندلس كالمتنبّي بصقع الشام »

ولد ابن درّاج سنة ٣٤٧ هـ وتوفي سنة ٤٢١ هـ وأدرك عز الدولة الأمويّة ، لانه ولد في آخر أيام عبد الرحمن الثالث وعاش في عصر الحكم ابنه ، ذلك العصر الذي بلغت فيه حضارة العرب منتهىها ، وفي عصر المنصور بن أبي عامر ، وكان كاتبه وشاعره وأكبر شعراء دولة بني عامر كما يقولون ، بل قالوا انه كان آخر شعراء هذا العصر المجتهدين . واشتهر ذكره في الشام والعراق^٢

كان ابن دراج يعيش بشعره ، فكانت صناعته قول الشعر ومدح الملوك . وناهيك بمن تكون هذه صناعته ، يفد على من يعرف ومن لا يعرف ، ويمدح كل الناس ويقول غير ما يعتقد . ولعل تهافتة على المدح وتسابقه في هذا الميدان ووقوفه بين أيدي الملوك والأمراء هو الذي أكسبه هذه الشهرة . على أن عصره كان عصر الشعراء المداحين ، لأنّه مبدأ الاضطراب بخروج الأمر من يد بني أمية وتآلب الناس على دولة بني عامر ، والاشتغال بالدسائس . ذكر مؤرخ الأندلس

١ راجع ابن خلكان ج ١ والنخبة ج ١ وفهرس الجزء الثاني من نفع الطيب طبع أوروبا وبنية المتنس ص ١٤٧

٢ ويقول فيه ابن بسام انه كان في وقته لسان الجزيرة شاعرا وآخر حامل لواء شعرائها ومدحه كثيرا وقال عنه ابن خلكان انه من جملة الشعراء المجيدين والعلماء المتقدمين وكان يجيد ما ينظم ويقول . وقال ان له ديوانا في جزئين

الشهير أبو حيان ابن دَرَّاج بقوله: « أبو عمر القَسْطَلِيّ سابق حلبة الشعراء العامرين ،
وخاتمة محاسن أهل الأندلس أجمعين ، كان ممن طوحت بهم تلك الفتنة الشنعاء
واضطرت به الى النجعة فاستقرأ ملوكها أجمعين ... يهز كلا بمدحه ، ويستعينه على
نكبته ، وليس منهم من يصنى له ، ولا يحفظ ما أضيع من حقه ، وأرخص من عقله
وهو يخطبهم بمقوله ، فيصون عنه . الى أن أناخ بساحة منذر بن
يحيى أمير سرقسطة فألقى عصا سيره عند ما بواه ، ورحب به وأوسع قراه ولم
يزل عنده وعند ابنه بعده . »

أما شعره فهو في جملته شعر من يتردد على موائد الأدب ليتذوق من كل
لون طعماً ، ويجمع هذه الطعوم ليجعل له مائدة خاصة به يدعو اليها الآكلين
وكأنما يأكلون من مائدته . حتى ان بعض الباحثين استدل بقصيدته التي مدح
بها المنصور بن أبي عامر على تقليده الشعر القديم . ويقولون انه عارض بها قصيدة
أخرى في المدح على انه أجاد اجادة عظيمة في هذه القصيدة التي دلت على براعته
في التقليد . ولعله أراد أن يبين للمنصور انه أفضل ممن مدحه ذلك الشاعر ، وان
مدحه خير من مادح ذاك . والقصيدة في غاية السبك وحسن البيان ، وهي من
أجمل قصائده . تشبه الشعر القديم بما فيها من الروح البدوية التي تدل على أخلاق
العرب من الشهامة وصدق العزيمة ، وعزة النفس والجلد والصبر على تحمل الآلام ،
ومخاطبة النساء ووصف الوداع . حتى لقد يظهر من عباراتها انها من كلام أهل
البدو لثانة أسلوبها ونزعتها العربية الخالصة ، وكأنها صادرة من عربي يجوب القفار
وتقطع الضحارى أعناق مطايه . ويلفحه الهجير فيحرق وجهه . وتهب عليه
النكباء فيستنشقها وكأنه يستنشق الموت . ويتلظى حرارة الرمضاء بقدميه وكأنما
يطأ حظائر الجحيم . يقطع المفاوز طولا وعرضا . وكأنه في بحر يزخر . مياهه
الرمال وأمواجه السراب

يكاد ياصح الانسان من كلامه صورة متقنة الصنع لتلك الصحارى التى يسمع
بذكرها، ويظن انه أمام منظر من تلك المناظر البعيدة الرهيبة. فإذا امتلأت نفسه
من هيبة هذه القفار وهول الاسفار وهبوب الرياح ، سمع فى كلامه ما هناك
من زفير الاسود وأصوات الحيوانات المفترسة وكأنه يرى الشاعر يعانى الخلاص
من تلك الأهوال ويحاول الفرار ، من مخالب الموت الزؤام . ولم ينس وهو
يخوض غمار هذه الأخطار وصف الكواكب فى هذا الليل البهيم والقصيدة هى :

ألم تعلمى أن الشواء هو التوى وأن بيوت العاجزين قبور
تخوفنى طول السفار وأنه لتقبيل كف العامرى سفير
ذرىنى أرد ماء المفاوز آجنا الى حيث ماء المكرمات نيمر
فان خطيرات المهالك ضمن لراكبها ان الجزاء خطير

ومنها فى وصف وداعه لزوجته وابنه الصغير

ولما تدانت للوداع وقد هفا بصبرى منه أنه زفير
تناشدنى عهد المودة والهوى وفى المهد مبغوم النداء صغير
عيني بمرجوع الجواب ولفظه بموقع اهواء النفوس خبير
تبوأ ممنوع القلوب ومهدت له أذرع محفوفة ونحور
فكل مفدات الترائب مرضع وكل محياة المحاسن ظير
عصيت شفيع النفس فيه وقادنى رواح لتدآب السرى وبكور
وطارجناح البين بى وهفت بها جوانح من دعر الفراق تطير
لئن ودعت منى غيورا فأننى على عزمقى فى شجوها لغيور
ولو شاهدتنى والهواجر تلتظى على ورقراق السراب يمور

اسلط حر الهاجرات إذا سطا	على حروجهى والأصيل هجير
واستنشق النكباء وهى لوافح	واستوطى الرمضاء وهى تفور
وللموت فى عين الجبان تلون	والذعر فى سمع الجرىء صغير
لبان لها أنى من البين جازع	وأنى على مضى الخطوب صبور
ولو بضربى والسرى جل عزمى	وجرسى لحنان الفلاة سمير
واعتسف المومة فى غسق الدجى	وللاسد من غيل الضباب زئير
وقد حومت زهر النجوم كأنها	كواكب فى خضر الحدائق حور
ودارت نجوم القطب حتى كأنها	كؤوس مهى وآلى بهن مدير
وقد خيلت طرق الحجر أنها	على مفرق الليل البهيم قدير
وقد أيقنت ان المنى طوع همتى	وانى بعطف العامرى جدير

هذا فى جلته أسلوب عربى صميم، من أمثلة الشعر العربى الخالص من شوائب التكلف . ولكنه يدل على أن ابن درّاج لم يكن شاعراً فطرياً يقول الشعر عن شعور صحيح أو دافع نفسى، وإنما هو مقلد بارع، حتى فى المعانى التى لم تشعر بها نفسه، وفى وصف الامكنة التى لم يرها الا فى كلام الشعراء . فهو من الذين اتخذوا الشعر صناعة لفظية، وآلة من آلات الكلام ليمدح من يريد

ومما قاله فى قصيدة مدح يذكر فيها حضور صاعد اللغوى من بغداد الى الأندلس قوله :

وأهدت لنا بغداد ديوان علمها	هدية من والى ونخفة من حيا
فكانت كمن حيا الرياض بزهرة	وأهدى الى صنعاء من نسجها وشيا
ويبكي ملوك الأرض من كان مفخرا	إذا امثلوا من بعض أفعاله شيا
وحسب رواة العلم أن يتدارسوا	مآثره حفظا وآثاره وعيا

اذا لمعت زرق الأسنة حوله كاضرام ييران المهوم جواليا
 وقد لاز أبطال الجلالد بمطفه كما لاز أطفال الجلالد بمطفيا
 وما قصرت عنه رماح عداته كما قصرت عنهم رياش جناحيا
 فيالك من ذكرى سناء ورفعة اذا وضعوا في التراب أيمن شقيا
 وناحت ليالى الدهر منى ميتا بآخر أيام دفنت بها حيا
 وكان ضياعى حسرة وتندما اذا لم يفد شيئا ولم يغنى شيا
 وأصبحت فى دار الغنى عن ذوى الغنى وعورضت فاستقبلت أسعد بوميا
 فياعبرنى سحى لعلى مبلل بجريك ما انزفت من ماء خديا
 الى آخر ما قال

وقد أجاد فى أساليب المدح اجادة لا يقدر عليها الا من انقطع لها .
 فلقد تجده يمدح مدحا يحرك الاطماع ويدفع الممدوح الى الغرور، ويجعله يعتقد
 فى نفسه ما ليس أهلا له . وهو يتظاهر له بالتواضع والحمد والشكر ، ويجعله فوق كل
 انسان ، حتى كأنه ليس فى خلق الله من يدانيه أو يجاريه فى صفات الكمال .
 قال من كلام يمدح منذر بن يحيى :

فلئن تركت الليل فوقى داجيا فلقد لقيت الصبح بعدك زاهرا
 وحلت أرضا بدلت حصباؤها ذهبا يرف لناظرى وجوها
 ولتعلم الاملاك انى بعدها ألفيت كل الصيد فى جوف الفرا
 ورمى على رداه من دونهم ملك تخير للعلا فتجيرا
 ضربوا قباهم على فعاذنى من كان بالقدرح المعلى أنجدرأ
 وكأنما تابعت تبع رافعا أعلامه ملكا يدين له الورى
 وحططت رحلى بين نادى حاتم أيام يقرى موسرا أو معسرا
 ولقيت زيد الخليل تحت عجاجة يكسو غلائلها الجياد الضمرا

وأقيمت بمجدل وهو يرفع منبرا للدين والدنيا ويخفض منبرا
تلك البدور تتابعت وخلقتها سعيًا فكنت الجوهر المتغيرا
كل هذا من الكلام السهل الجميل الذى تتسابق الى الاسماع رنته وحسن
سبكه . ولقد جعل ابن دراج كل أغراضه الشعرية المدح ، ولكنه ذكر فيه
كل خواطره وأفكاره ؛ وكأنه اتخذ وسيلة للتعبير عن آرائه التى لا تخرج عن
الشكوى والحقد على الأيام وبعض الآراء المعروفة ، ولقد كان يتأثر بالحوادث ،
ونفسه توحى عليه بأخيلة مظلمة فيقول :

ومن دوننا آنسات الديار نهاب الحى موحشات الطلول
مغائى السرور لبسن الحداد على لابسات ثياب الدهول
خطيبات خطب النهى والمهوز مهارى عليها رجال الرحيل
فمن حرة حليت بالجلال وغدراء نصت بنص الزميل
ولا حلى الا جمان الدموع تسيل على كل خد أسيل
فيبدلن من طول خفض النعيم بشق الحزون ووعث السهول
ومن قر الليل تحت الحجال بهول السرى تحت ليل طويل

وفد جرى فى وصفه على الطريقة الخيالية المعروفة عند شعراء العرب . كما وصف
أسطول المنصور بن أبى عامر . فقد كان يستطيع أن يتكلم عن عز الدولة ، وان
ذلك من آثار تقدمها ، ومن وسائل حمايتها ، ومن المسائل الحيوية لصيانتها ، أو يذكّر
شيئاً من الآراء الجدية ، أو الاجتماعية أو السياسية . ولكنه لم يقل شيئاً من
ذلك ولم يفكر فى هذا ، وإنما كان يفكر فى مدح الأمير لا غير . ولو انه كان
مدفوعاً بشعور صحيح وأراد أن يمدح عمل الأسطول وهو يعتبره من آلات
الدفاع عن وطنه لكان له غير هذا الخيال . ولكنه قال :

تحمل منه البحر بجرا من القنا يروع بها أمواجه ويهول
بكل معالات الشراع كأنها وقد حملت أسد الحقائق غيل
إذا سابت شأو الرياح تخيلت خيولا مدى فرسانهن خيول
معائب تزجها الرياح فان وفيت أنافت بأجساد النعام فيول
ظباء سهام ما لهن مفاحص وزرق حمام مما لهن هديل
سواكن في أوطانهن كأن سما بها الموج حيث الراسيات تزول
كما رفع الآل الهوادج بالضحي غداة استقلت بالخليط حول
أراقم تفرى ناقع السم مالها بما حملت دون الغداة مقيل

هذه نظرة تدل على أن ابن درّاج وإن لم يكن من الشعراء المبتكرين ، أو من أصحاب الصفات الشعرية الممتازة ، فهو بارع في صناعته متين ، في أسلوبه ، مادمح يجيد الاختيار في اللفظ والمعنى . وله قصائد كثيرة وبعض رسائل نثرية ، ذكرها صاحب الذخيرة في الجزء الأول . وكلها من باب الخيال ونقل معاني غيره في نظمه ونثره . ومع ذلك يحسبه الأدباء من أكبر الشعراء .

المعتمد بن عباد^(١)

نشأ المعتمد في عز أبيه ، وترعرع في أبهة الملك ، وورث كثيراً من صفات والده . فقد كان أبوه نبيل الطبع شريف النفس ، شجاعاً مهاباً داهية في السياسة اتسع الملك على يده ، وصارت دولته أكبر دولة اذ ذاك ، وكان مع هذا أدبياً فاضلاً ، كريم الاخلاق ثاقب الذهن حاضر الخاطر ، شاعراً رقيق النوق حسن

١ هو أبو القاسم محمد المعتمد على الله بن المعتض بالله بن عباد صاحب قرطبة وأشبيلية وأشهر ملوك الطوائف

ولد المعتمد سنة ٣٤١ هـ بمدينة باجة وتوفي في السجن بأغمات من بلاد البربر سنة ٤٨٨ هـ ويحل خبره في ذلك أنه تولى الامر والحال في اضطراب وشقاق ، والدولة في ضعف : فقد كان تابعاً للملك الافرنج يدفع اليه اتاوة سنوية : حتى طمع ذلك الملك في أخذ بلاد المعتمد وأبى قبول ضريبتها . وأرسل الى المعتمد رسولا ، ف ضرب المعتد الرسول وقتل من معه ، فتاهب ملك الافرنج للاغارة على قرطبة . فلما علم كبار الناس اجتماعوا الى أحد القضاة هناك وتشاوروا فيها بينهم لينفذوا بلادهم من شر العدو . واتفقوا على أن يستجدوا بملك مراكن يوسف بن تاشفين ، وأخبروا المعتمد بذلك وبينوا له خطورة الحال فوافق على رأيهم وطلب من ذلك القاضي أن يذهب بنفسه لقضاء ذلك . فتوجه وقابل ابن تاشفين وأخبره بخبر المسلمين هناك ، فأرسل جيشاً الى الأندلس ، وتقابل هذا الجيش بجيش المعتمد بن عباد ثم تقابل جيش المسلمين بجيش الافرنج ، فانهزم الافرنج وفرملسكهم هارباً ، وقوى أمر المسلمين . وقد أبلى المعتمد في هذه الموقعة بلاء حسناً . وقاوم مقاومة الأبطال ، ولم يبال الموت حتى أنه أصيب بكثير من الجروح وهو ثابت ثبات الوائق بالظفر .

ولقد كان هذا لانتصار العظيم الذي سر به للمعتمد بن عباد أعظم سرور في حياته من أكبر الأسباب لشقائه : لأن يوسف بن تاشفين ذلك البربر طمع في بلاد الأندلس ولا سيما عند ما اطلع على ما هناك من الأموال والدخائر والبساتين وأصناف الاموال وأسباب الترف التي لم يرها في بلاده . وزاده طمعا في ذلك تزين حاشيته تلك البلاد وما فيها حتى كان يسيل لعابه عند ذكرها . واشتد به الطمع والحقد على المعتمد لما رأى من قوته هو وضعف ذاك وانهزت بطانته هذه الفرصة فأوغروا صدره على

الاختيار طلى العبارة ، جميل الصورة بهيج الطلعة ، جذابا بهيئته وشكله، جواداً كريماً :

عاش المعتمد بن عباد فى هذه البيئة فأكتسب منها شيئاً كثيراً، ومال بطبعه الى الأدب والمجون . فكان كأبيه فى كل صفاته . ولكنه كان أشعر منه وأرق ذوقاً وأخف ظلاً ، وأحب للأدب من أبيه ، حتى قالوا انه لم يجتمع الأدياء والشعراء عند أحد كما اجتمعوا عنده ، وناهيك بأمير شاعر من أفضل الشعراء ديباجة ، وأرقهم ذوقاً ، وأحبهم الى مجالس الأدب . ألا يكون ذلك من الأسباب التى تساعد على نمو الأدب ورقة الشعور والاهتمام بالأدياء ؟^١

وقد كان المعتمد يعيش عيشة ترف وترف^٢ مبالاً لأن يصرف وقته فى اللهو الأدبى ومجون الشعر ومجازاة الشعراء فى قولهم . وكان يعجبه كثيراً أن يكون شاعراً وأديباً بين هؤلاء الأدياء والشعراء ، ويجتهد فى أن يقول

المعتمد حتى عزم على الانتقام منه ، فحاصره وهو بأشيلية . ولما علم المعتمد بذلك أخذ يدافع عن نفسه وبلده وجالد مجالدة لا تعرف . وأظهر من البسالة والشجاعة ما اشتهر به . ولكن ماذا يعمل انسان رقيق أمام هؤلاء الاجلاف ؟ على أنه ألقى بنفسه الى الموت وهو ثابت الجأش . والناس فى رعب وفزع يترامون فى الانهار من شرفات الاسوار ، الى أن نزل القضاء بهذا البلد ودخلها البربر سالبين ناهبين آخذين كل شئ رأوه ووجدوه . وقبضوا على المعتمد وأهله بعد أن نالوا من أسرته وحاصروا ولديه المأمون والراضى وقتلوهما وأرسل المعتمد مقيداً مع أهله الى بلاد مراکش بعد أن شيعه أهل بلده ومحبه بالبكاء والنحيب وأرسله ابن تاشفين الى مدينة الغمات وبقي فيها الى ان مات سنة ٤٨٨ هـ

١ راجع سؤاله عن كلمة مسهب فى نفح الطيب طبع أوربا جزء ثانى صفحة ٤٧٣
٢ قالوا انه أمر بصياغة غزال وهلال من ذهب فكان وزنها سبعمائة مثقال وأهداهما الى فتاتين . وحضر أبو العرب الصقلى عند المعتمد وقد حل اليه حولة وافرة من قراريط الغضة فأمر له بكيس منها وكان بين يديه تماثيل عنبر من جلتها جل مرصع بالذهب واللائى فقال له أبو العرب معرضاً ما يحمل هذين الكيسين الا جل فتبسم المعتمد وأمر له به فارتجل شعراً فى ذلك وقالوا ان هذا الجمل بيع بخمسمائة مثقال

الشعر فكان حبه لقول الشعر وميله الى ذلك من الأسباب التي جعلت شعره رقيقاً .

وكان صافي الذهن نقي الذوق ، شريف الطبع عليه مسحة من الجلال ، عذب الحديث اذا تكلم ، حسن الاختيار في نظم الألفاظ والمعاني ، فكان شعره في جلته رقيق الحاشية صادقا في معناه ، خاليا من التكلف ، أكثره مأخوذ من حوادث حياته :

فهو صورة من حياته وصفحة من صحفه اليومية . كانت تملئ عليه الحوادث فيقول ، وتدفعه ميوله أو توخزه آلامه فيفتق لسانه بقول الشعر الجميل الخالي من كل تصنع ، أو معنى ليس له أثر في نفسه ، أو خيال لم ينشأ من شعور صحيح . فكان شعره أياماً من حياته يشمل أوقات سروره ولذاته وساعات محنته وبؤسه . وأجاد في كل ذلك اجادة تدعو الى الاعجاب بركة شعره ورقى خياله .

أما مجونه فلم يخرج فيه عن الوصف الجميل والأدب اللائق بمثله . يشعر الانسان عند تلاوته بخفة روحه وحسن ذوقه ، وبراعته في سهولة الكلام والتعبير عما يريد ، بدون تكلف وحسن في الصناعة واقتنان في التعبير . وهو كل جمال شعره وقد اكتسب أسلوبه من أساليب زمانه المعروفة عند أكثر الشعراء في حسن الوصف ودقته .

فقد كان حلو الفكاهة في جميع أوقاته تشمله الخمر أحياناً فتزيد من رقة أدبه . ولقد كانت تنزل به عواطفه النفسية من عظمة جلاله فتحمله على مدح جواريه ، وبديته تملئ عليه جميل القول . فقد جاءت اليه جارية تسقيه وكان كلنا بها ، اذ لمع البرق فارتفعت فقال :

يزوعها البرق وفي كفها برق من القهوة لماع

كل ذلك كان له أثر عظيم في شعره . وإذا لم يكن المعتمد من كبار الشعراء الذين كانت صناعتهم الشعر وكل ميولهم في الحياة قول الشعر ، ولا من المكثرين ، فهو وجه من وجوه الأدباء ، وصورة من صور الشعراء الظرفاء عشاق الشعر والأدب . ودليل على ما وصلت إليه حال الأدب في تلك البلاد ، وعلى تأثير الحضارة في النفوس وتهذيبها الاخيلة والتصور ، ورقة الشعور وجمال القول .

كما كتب الى أبي محمد المصرى يدعوه الى مجلسه :

أيها الصاحبُ الذي فارقتُ عي نى ونفسي منه السنا والسناء
نحن في المجلس الذي يهَبُّ الرا حة والسمع والغنى والغناء
تعاطى التي تُسمى من الل نة والركة الهوى والهواء
فأته تلف راحة ومحيا قد أعدا لك الحيا والحياء
وقال في ساق وذكر ذلك صاحب قلائد العقيان بقوله :

انه دخل عليه في دار المزينة والزهر يحسد اشراق مجلسه ، والدر يحكي
انساق تأنسه ، وقد رددت الطير شدوها ، وجددت طربها وشجوها ، والفصون
قد التحفت بسندسها ، والأزهار تحي بطيب تنفسها ، والنسيم يلم بها فتضعه
بين أجفانها ، وتودعه أحاديث آذارها ونسيانها ، وبين يديه فتى من فتيانه ، يفتنى
تثنى القضيبي ، ويحمل الكأس في راحة أبهى من الكف الخصيب ، وقد توشح
وكان الثريا وشاحه ، وأنار فكان الصبح من محياه كان انضاحه ، فكلما ناوله
الكأس خامره سوره ، وتخيل ان الشمس تهديه نوره ، فقال المعتمد :

لله ساق مهفف غنيج قام ليسقى فجاء بالعجب
أهدى لنا من لطيف حكته في جامد الماء ذائب الذهب

وأما يؤسه وما ألم به في آخر حياته فقد وصفه وقد نالت منه الآلام وأذابت
مهجته، حتى لم يبق في نفسه بقية من الصبر، واستولى عليه الجزع، وكأنما ينظر إلى
عزه الماضي، وملكه الزائل فيتملكه اليأس، ويكاد يقضى على كل مافي نفسه من
شجاعة وبأس، وقد نحل الضعف وملكه البكاء، وذابت نفسه حسرة على ما هو عليه
وما أصاب أهله وبنيه من الذل، حتى أصبحوا خدما لخدمهم، وقد كانت تذلل
لهم الجبابرة، وتخدمهم خاصة الناس .

يصف ابن عباد ذلك في شعره ، وكأنك تراه في أشد ما يكون الرجل من
البؤس واليأس، فلا يرجو الخلاص الا الى الموت . فقد بلغ من أمره ان أكرم
بناته دعاها الحال الى أن تطلب غزلا من الناس تسد بأجرته بعض مالها . فأدخل
عليها فيما أدخل غزل لبنت شُرطة أبيها . واتفق ان السيدة الكبرى أم بنيه
اعتلت وكان الوزير أبو العلاء زُهر بمرأ كش قد استدعاه ابن تاشفين لعلاجه ،
فطلب اليه المعتمد راغباً في علاج زوجته، فكتب اليه الوزير رسالة باجابه طلبه ،
ودعاه فيها بطول البقاء . فقال المعتمد في ذلك :

دَعَا لِي بِالْبَقَاءِ وَكَيْفَ يَهْوَى	أَسِيرٌ أَنْ يَطُولَ بِهِ الْبَقَاءُ
أَلَيْسَ الْمَوْتُ أَرْوَحَ مِنْ حَيَاةٍ	يَطُولُ عَلَى الشَّقَى بِهَا الشَّقَاءُ
فَمَنْ يَكُ مِنْ هَوَاهُ لِقَاءَ حَبِيبٍ	فَإِنْ هَوَايَ مِنْ حَتْفِي اللَّقَاءُ
أُرْغَبُ أَنْ أُعِيشَ أَرَى بَنَاتِي	عَوَارِي قَدْ أَضَرَّتْ بِهَا الْحَفَاءُ
خَوَادِمَ بَنَتْ مَنْ قَدْ كَانَ أَعْلَى	مَرَاتِبِهِ إِذَا يَبْدُو النَّدَاءُ
وَطَرْدَ النَّاسِ بَيْنَ يَدَيَّ مَمْرَى	وَكَفَّهُمْ إِذَا غَصَ الْفَنَاءُ
وَرَكُضَ عَنْ يَمِينٍ أَوْ شِمَالٍ	لِنَظْمِ الْجَيْشِ أَنْ رَفَعَ اللَّوَاءُ
وَلَكِنْ الدَّعَاءُ إِذَا دَعَاهُ	ضَمِيرٌ خَالِصٌ نَفَعَ الدَّعَاءُ

جزيت أبا العلاء جزاء بر نوى يرا وصاحبك العلاء
سيسلى النفس عن ما فات على بأن الكل يدركه الفناء

ودخل عليه في سجنه بنائه يوم عيد في أطمار بالية وحالة يؤس ، وكن يغزلن
للناس بالاجرة في اغمات . فلما رآهن المعتمد في اطمار رثة شعر كأنما تمزقت
أحشاؤه وانصدع قلبه . فقال :

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا فساءك العيد في اغمات مأسورا
ترى بناتك في الأطمار جائعة يغزلن للناس ما يملكن قطميرا
برزن نحوك للتسليم خاشعة أبصارهن حسيرات مكاسيرا
يطأن في الطين والأقدام حافية كأنها لم تطأ مسكا وكافورا
أفطرت في العيد لاعادت إساءته فكان فطرك للأ كباد ففطيرا
قد كان دهرك ان تأمره ممثلا فردك الدهر منهيا ومأمورا
من بات بعدك في ملك يسر به فانما بات بالأحلام مغرورا

وهكذا عرف كيف يصدع القلوب بكلامه ، وكيف يفتح قلبه ليرى مكنوناته
وأن لنا كيف أن الآلام تدفع بالقلوب الى الكلام وتجسم المعاني . « دخل عليه
وهو في تلك الحال ولده أبو هاشم والقيود قد عضت بساقيه عض الأسود ،
والتوت عليه التواء الأساور السود ، وهو لا يطيق اعمال قدم ، ولا يريق دمعاً
الا ممزوجاً بدم ، بعد ما عهد نفسه فوق منبر وسرير ، وفي وسط جنة وحرير ،
تحقق عليه الألوية ، وتشرق منه الأندية ، فلما رآه بكى وقال : »

قيدي أما تعلمنى مسلما أبيت ان تُشفي أو ترحمنا
دمى شرابك والحم قد أكلته لا تهشم الأعظما
يبصرنى فيك أبو هاشم فيثنى والقلب قد هُشما

أرحم طُفَيْلاً طائِشاً لَبُّهُ لم يَخْشَ أَنْ يَأْتِيكَ مُسْتَرْجِماً
وَأَرْحَمَ أُخَيَّاتٍ لَهُ مِثْلُهُ جَرَعَتْهُنَّ السُّمُّ وَالْعَلَقَمَا

أليست هذه نفس شاعر عرف كيف يعبر عما يجول في نفسه من المعاني ،
ويصف آلامه وصفاً قريباً من الحقيقة ؟ واستعان على ذلك بما رآه من البؤس
وآثاره الظاهرة . فذكر حالته وماهى عليه ، وذكر أولاده وما يعانونه ، ولم يلتجئ
الى الخيال ولا الى الاحلام . ولكن شعره جميل لأن الحقائق اذا ألبسها الشعراء
ديباجة الشعر أصبحت شعراً جميلاً . وليس الشعر الجميل الا حقائق شعرية .

ولقد كانت تملك ابن عباد عزة نفسه ورفعة شأنه ، فيستعذب هذه الآلام
ويفضل الاستئثار بها على الخضوع لعدوه ، وتملكه الشجاعة وكرم المحتد
فيستصغر كل شيء يلاقيه ، لأنه انما خرج الى القتال بهذه النفس التي يحملها
بدون أن يتحصن بشيء سوى قوة بأسه ، عالم بأنه سيجود بها يوماً ما في موقف
يرى الموت فيه خيراً من الحياة . نظم ذلك كله بعبارة جميلة مؤثرة . فقال عند ما
أخذ أسيراً .

لما تماسكت الدموع وتنهنه القلبُ الصديق
قالوا الخضوع سياسة فليبد منك لهم خضوع
وأذ من طعم الخضوع على فم السم النقيع
ان تستلب عني الدثنا ملكي وتسلمني الجموع
فالقلب بين ضلوعه لم تسلم القلب الضلوع
لم أستلب شرف الطبّا عأيسلب الشرف الرفيع
قد رمت يوم نزالهم ألا تحصنني الدروع
وبرزت ليس سوى القميص عن الحشا شيء دفع
وبذلت نفسي كي تسيل اذا يسيل بها النجيع

أَجْلِي تَأْخِرَ لَمْ يَكُنْ بهوى ذلى والخشوع
شِبْمُ الْأُولَى أَنَا مِنْهُمْ والأصل تتبعه الفروع
وله فى الحنين الى شلب وقت ان كان يرتع فى بحبوحة العيش مع صديقه
ووزيره ابن عمار كلام سهل رقيق ، صادر عن قلب مقروح ، وقد فارقة ابن عمار
فأرسل اليه يقول :

ألا حىَّ أوطانى بشلب أبا بكر وسلهن هل عهد الوصال كما أدرى
وسلم على قصر الشراجيب عن فقى له ايداً شوق الى ذلك القصر
منازل آساد وبيض نواعم فناهيك من غيل وناهيك من خدر
وكم ليلة قد بت أنعم جنبها بمخضبة الاردا فمجدبة الخصر
وبيض وسمر فاعلات بمهجتى فعال الصفايح البيض والأسل السمر
وليل بسد النهر هوا قطعتة بذات سوار مثل منعطف البدر
نضت بردها عن غصن بان منعم نضير كما انشق الكمام عن الزهر
ومما قاله وهو يبكي على نفسه :

قد كان كالثعبان رمحك فى الورى فغدا عليك القيد كالثعبان
قلبي الى الرحمن يشكو بـه ما خاب من يشكو الى الرحمن
يا سائلاً عن شأنه ومكانه ما كان أغنى شأنه عن شانى
هائيك قينته وذلك قصره من بعد أى مقاصر وقيان
من بعد كل عزيمة رومية تحكي الحائم فى ذرى الأغصان

كذلك كانت حسرته على أيامه الماضية ، وحالته الحاضرة منعباً من منابع
شعره ، هو يتسلى عما ما يتذوق من الآلام . وليس فى البؤس معين غير الشكوى
ولا للمعكوب ارتياح لغير أبنه ونظره الى أيامه الماضية ، والى تلك اللحظات التى
كان ينعم فيها ، فترتاح نفسه الى ذكرها ، فيشعر كأنه لا يزال فى نعيمها ولذاتها .

فلقد تكون ذكرى السعادة سعادة أخرى في أوقات البؤس، يتسلى بها البائس في
محنته ، فيرى انه كان وفي الحظ فيها ، وان الدهر يومان ، فاذا كان يوم
السعادة قد انقضى فانه لا يزال يذكره . وهكذا تتناوبه الافكار فيستسلم للقضاء
وتخف آلامه وهو يتغنى بحوادث الايام

هذه حال ابن عباد في شعره الذي يبكي فيه ويندب حظه . كما في قوله :

غريب بأرض المغرين أسير	سيبكي عليه منبر وسرير
وتندبه البيض الصوارم والقنا	وينهل دمع بينهما غزير
مضى زمن والملك مستأنس به	وأصبح منه اليوم وهو نفور
برأى من الدهر المضلل فاسد	مضى صلحت للصالحين دهور
أيا ليت شعري هل أبيت ليلة	أمامي وخلق روضة وغدير
بمنبتة الزيتون موروثه العلا	تغنى قيسان أو ترن طيور
بزاهرها السامي الذرى جاده الحيا	تشير الثريا نحونا ونشير
ويلحظنا الزاهي وسعد سعوده	غيورين والصب المحب غيور

ولقد كان كل خاطر يمر به وكل منظر يراه يذكره شيئاً من آلامه أو حنينه الى
أهله، فيفتق لسانه بقول الشعر الذي يمزق القلوب ويذيقها حسرة

ولما قتل المرابطون ابنه المأمون في قصر قرطبة وألقوا بجسده على الارض ،
ومالوا الى رندة حيث ابنه الثاني الراضى وقضوا عليه ، قال المعتمد برئيهما ، وقد
دأى قرية تنوح ، وأمامها وكر فيه طائران يرددان نغماً

بكت ان رأت الفين ضمها وكر	مساء وقد أخنى على الفها الدهر
وناحت فباححت واستراحت بسرها	ومانطقت حرفاً يبوح به سر

فألى لا أبكى ؟ أم القلب صخرة وكم صخرة فى الأرض يجرى بها نهر
بكت واحداً لم يشجها غير فقدته وأبكى لآلاف عديدهم كثر
بنى صغير أو خليل موافق يمزق ذا فقر ويفرق ذا بحر
ونجمان زين للزمان احتواهما بقرطبة النكداء أو رندة القبر
عذرت اذا أن ضن جفنى بقطرة وان لؤمت نفسى فصاحبها الصبر
فقل للنجوم الزهر تبكيهما معى لملهما فلتحزن الأنجم الزهر

هذا بعض ما فى نفس المعتمد بن عباد ، وهذا بعض شعره المنبعث من
قلبه المقروح . فكان شاعراً وجدانياً ، ولكن وجدانه امتزج بالحقائق وحوادث
الحياة . فكان شعره جميلاً له علقه بالقلوب ، لان الوجدان والحقيقة اذا تألفا فى
الشعر وامتزجا فى ساحة الخيال ، أظهرتا الحقيقة شعراً جميلاً ، والشعر حقيقة مريئة
فى ثوب خيالى جميل .

الوزير بن عمار

كان ابن عمار في أول أمره فقيراً خامل الذكر ، فلم يرد أن يعيش عيشة العامة كغيره ، فقصده الى تلك السوق الرائجة ، سوق الأدب ، وورج فيها ، وكان أديباً يقول الشعر فأخذ يسأل بشعره ، وكان من الأذكياء كثير المجون كجميع الأدباء في ذلك العصر فانفتح له باب آخر في الشعر والغيلال ، وقال في ذلك كما قال غيره ،

١ هو أبو بكر محمد بن عمار من أسرة يقولون أنها عربية الاصل وقد عاش الى سنة ٤٧٩ حيث قتله المعتضد بن عباد يده . ويظن أنه عمر ٥٠ عاماً تأدب على بعض علماء قرطبة ككل الأدباء . لان رواج سوق الادب في تلك الايام وسهولة مواردها كانت تحمل أمثال ابن عمار على ورود ذلك المنهل . وقد أراد أن يعيش على متون القوافي ومصاريح القريض . فحمله ذلك على أن يجيد الشعر . وكان بطبعه ميلاً الى ذلك فبلغ مبلغ غيره من مشهوري الشعراء وقد كانت حياته حياة حركة واضطراب : فقد كان في أول أمره يسأل بشعره ليعيش . ويتدلى الكبير والصغير ويمدح الامير والصلوك طالباً عطايهم .

قالوا عنه . . انه لم يزل يحول في الأندلس مسترفداً لا يخص بمدحه الملوك دون غيرهم ، بل لا يبالى ممن أخذ ولا من مدح من ملك أو سوق ، وأنه ورد في بعض سفراته شلب لا يملك الا دابة لا يجيد علفها ، فكتب بشعر الى رجل من وجوه أهل السوق : فكان قد مره عند ذلك الرجل أن ملأ له الخلة شعيراً ووجه بها اليه ، فرآها ابن عمار من أجل الصلات وأسنى الجوائز . ثم اتفق أن علت حال ابن عمار وساعده الجدة ونهض به البخت . وانتهى أمره الى أن ولاد المعتضد على الله مدينة شلب وأعمالها ، فدخل في موكب ضخمة وجملة عبيد وحشم ، وأظهر نخوة لم يظهرها المعتضد على الله حين دخلها أيام أبيه المعتضد بالله . فكان أول شيء سأل عنه صاحبه . صاحب الخلة . فقال ما صنع فلان اهو حي : قالوا نعم ، فأرسل اليه بمخلاته نفسها بعد أن ملأها دراهم وقال لرسوله قل لو ملأناها برأ ملأناها تبرا

وما زال ابن عمار على هذه الحال في كسب الاموال ، يدفعه الطمع الى السير في طريق الوصول الى مراكز العظمة فتشج من لسانه لانه هو السلاح الوحيد لديه . حتى علا ذكره بين الشعراء ، واشتهر في عالم الادب ، ومدح المعتضد بن عباد بقصيدة اعجب بها اعجاباً وجملة

حتى أخذوا عليه الامعان في المجون ، والادمان في الشرب ، فقال يدفع عن نفسه ذلك ويذكر مآثرها

نقسم على الراح أدمن شربها وقتم قى راح وليس قى مجد
ومن ذا الذي قاد الجياد الى الوغى سوى ومن أعطى كثير ولم يكن
فديتكم لم تفهموا السر انما قليتكم جهدى فأبعدتكم جهدى

من أجل ذلك في جملة شعرائه . ومنذ ذلك الوقت اندمج في حاشية الامراء ، وخلع عن نفسه لباس البؤس . ثم اتصل بالمتعمد بالله بن المعتضد ، وكان شاباً أديباً يحب الشعر ويميل اليه فأجبه المتعمد لاتفاقه معه في البيوت والاهواء وفنون الادب والشعر والملاهي وانواع السرور . ولما تولى المتعمد ولاية شلب جعل ابن عمار وزيراً له هناك وترك له الحكم والأمر والنهي ، وهناك عاش مع المتعمد عيشة الاصدقاء وعيشة اللهو والطرب والمجون ، وقد كان مجلس الامير هناك مجتمع الادباء والشعراء الذين كانوا يملأون الجو لكثرتهم ، ولا يكاد يخلو مكان منهم وكانت مجالس الادباء هناك كل شيء في الحياة . فأنفصر ابن عمار والمتعمد بن عباد في السرور واللهو انغمارا ، وصارا كأنهما شخص واحد ، حتى غاب ابن عمار المتعمد على أمره ، وملك منه كل شيء ، وساءت السمعة بينهما . فلما علم المتعمد بذلك فرق بينهما ، ونفى ابن عمار في أقاصي بلاد الأندلس ، وما زال في منفاه الى ان مات المتعمد وتولى الامر بعد أبيه المتعمد فدعا اليه ابن عمار واختص به . وامتزج به امتزاجاً لا يكون بين رجل وأقرب الناس اليه ، حتى لقد كانا ينامان أحياناً على وسادة واحدة . ولكن ابن عمار على الرغم من ذلك كان سعى الظن غير مخلص في وده . فكان يترقب من المتعمد الفتك به ، رغم اخلاصه له . وقد ولاه المتعمد ولاية شلب ثم لم يقدر على بعده فدعاه اليه واستوزره ، وكان معه كما كان جعفر البرمكي مع الرشيد وسلم له كل شيء في السياسة وأمر الدولة ، حتى انه أصبح من قواد الجيش واتصر على الاعداء في وقائع معروفة ، وكان له حيل في الخداع ومهارة في التغلب على غيره . ولما رأى علو أمره خطر له أن يستبد بالملك وأن يكون ملكاً ، فأراد أن يأخذ بنفسه ويملكها بعد أن فتحها ويخضع طاعة المتعمد ، ونسى كل ما كان بينهما ؛ ولكن لم يتمكن من ذلك . وبلغ المتعمد أمره فهرب ولجأ الى سرقسطة . فخافه هناك بنو هود . فأخرجوه . فالتجأ الى حصن ثم قبض عليه صاحب هذا الحصن وسجنه ثم بعث المتعمد من تسلمه ودخل ابن عمار قرطبة أشنع دخول على بقل بين عدلى تبين وخرج الناس جميعاً لرؤيته على هذا الحال ، بعد ان كان يهرع اليه الكبير والصغير لتقبيل يده . ولما مثل بين يدي المتعمد أخذ يعد أيديه عليه وابن عمار مطرق رأسه خجلاً . ثم أمر به فدخل أشبيلية على الحال التي دخل بها قرطبة . وسجن في غرفة في قصر المتعمد . ومنذ هذا الحين كتب قصائده الشهيرة في الاستمطاف حتى لان منها المتعمد ولكنه رجع عن عنوه وقتله بيده في السجن سنة ٤٧٩ هجرية .

مع ذلك فقد برع في المجون ، وكان شعره فيه أصدق منه في غيره
 واجمل ديباجة وأسلوباً لانه صادر عن شعور صادق . وله في ذلك خيالات
 ومعان جميلة .

وقد كلف بالفناء ومجالسه ، وكلف الناس بحضوره لأنه كان حلواً للفكاهة
 عذب الحديث ، يهرع الأدباء الى مجالسه ويسرون بحضوره . فقد روى ان
 بعض الكتاب اصطبج يوماً والجلوس في العوارف ، لازوردي المطارف ،
 والروض أنيقة لباته ، رقيقة هباته ، والنور مبتل ، والنسيم معتل ، ومعه قومه ،
 وقد راقبهم يومه ، وصلاته تصافح معتفيه ، ومبراته تشافه موافيه ، والراح
 تشعشع ، وماء الامان ينشع ، فكتب الى ابن عمار وهو ضيفه :

ضمانٌ على الأيام أن أبلغ المنى إذا كنت في ودي مسراومعلنا
 فلو تسأل الأيام من هو مفرد بود ابن عمار لقلت لها أنا
 فان حالت الأيام بيني وبينه فكيف يطيب العيش أو يحسن الفنا
 فلما وصلت الرقعة اليه تأخر عن الوصول ، فقال أحد الحاضرين : اني
 لأعجب من ابن عمار ، كيف قعد عن هذا المضمار ، مع ميله الى السماع ؟ فلما
 كان من الغد ورد ابن عمار ومعه الجواب وهو :

هضرت لي الآمال طيبة الجنى	وسوغتني الأحوال مقبلة الدنيا
وأبستني النعمى أغض من الندى	واجمل من وشى الربيع وأحسننا
وكم ليلة أحظيتني بحضورها	فبت سميلاً للسناء وللسنا
اعل نفسي بالمكارم والعلی	وأذني وكفى بالفناء وبالغنى
مأقرون بالتمويل ذكرك كلما	تعاورت الأسماء غيرك والكُنَى
لأوسعتني قولاً وطولاً كلاهما	يطوّق أعناقاً ويخرس ألسنا
وشرفتني من قطعة الروض بالي	تناثر فيها الطبع وردا وسوسنا

هذا كلام وجداني جميل ، يسوغ للنفس تذوقه ، لأنه طلى العبارة ، عذب سهل في لفظه ومعناه . مدح ولكنه ليس من المدح الجاف المقصور على ذكر الفضائل وجميل الأوصاف التي ربما لم يكن للمدوح حظ وافر فيها ، بل هو مدح مزوج بوصف جمال أوقات السرور والسعادة وآثار النعيم في النفوس وأثر النعمة على المنعم عليه . أو هو شكر يراد به المدح ، أو هو نوع من الافتنان في المدح وأساليبه

وكانت له خفة روح تظهر في كلامه ، وكأنه لا يبالي بما يقول ، ولا سباً إذا ذكرت الراح . فقد كان في حضرة الرشيد بن المعتمد فلما دارت الكأس وتمكن الأنس ، وغنيت أصوات ، ذهب الطرب بأبن عمار كل مذهب . فارتجبل يخاطب الرشيد .

ما ضر ان قيل اسحق وموصله ها أنت أنت وذى حصص واسحق
أنت الرشيد فدع ما قد سمعت به وان تشابه أخلاق وأعراق
لله درك داركها مشعشة واحضر بساقيك ما قامت بناساق
هكذا كان يفعل السرور في رأس ابن عمار ، فكان لأثره في نفسه وشعره شيء كثير ، وكان شعره في اللهو والغزل من أحسن ما قيل في نوعه ، وان كانت معانيه ككل المعاني ، الا ان له بهاء في أسلوبه ككل الشعراء الفتيين . ولقد يقول المعنى فيخيل اليك انه شيء جديد . كما قال يتغزل :

قالوا أضربك الهوى فأجبتهم يا حبيداه وحبذا اضراره
قلبي هو اختار السقام لجسمه زياً نخالوه وما يختاره
غير تموني بالنحول وانما شرف المهند أن ترق شفاره
من قد قلبي اذ تثنى قد وأقام عذري اذ أطل عذاره
أم من طوى الصبح المنير نقابه وأحاط بالليل البهيم خماره

أما مدحه، فله أسلوب خاص في تصور المعاني وترتيبها : يعرض صوراً مختلفة من الأخيلة التي كانت معروفة في الأندلس بعبارة سهلة رشيقة ، كما في قصيدته التي مدح بها المعتضد ، وهي تدل على مقدار ملكة الشعر وقوتها في نفسه ، وأنه شاعر بفطرته . يشعر بجمال القول ، ويعرف كيف يصل الى اقتناص المعاني الجميلة ، ويضعها في أسلوب جميل ، وخيال جميل ، ورقة في الذوق ، وكأنك تقرأ كلاماً منشوراً لا شعراً منظوماً . أو كأنك تسمع نغمات الأوتار ، أورنات القوافي أو حفيف الأشجار والنسيم يسحها ويلقها . أو أنك في روض تفتحت فيه الأزهار ، ومالت عليك ظلال الاشجار ، أو كأنك ترى كتاباً مفتوحاً سطرت فيه حياة المعتضد أو مرآة تنعكس فيها أعماله ، أو مصوراً يرسم لك بالقلم والبيان لا بالريشة والألوان. كما قال :

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى	والنجم قد صرف العنان عن السرى
والصبح قد أهدى لنا كافوره	لما استردّ الليل منا العنبرا
والروض كالحناء كساه زهره	وشيا وقلده نداه جوهره
أو كالغلام زهى بورد رياضه	خجلا وتاه بأسهن معذرا
روض كأن النهر فيه معصم	صاف أطلّ على رداء أخضرا
وتهزه ريح الصبا فتخاله	سيف ابن عباد يبدّد عسكرا
عباد المخضر نائل كفه	والجوّ قد لبس الرداء الاغبرا
علق الزمان الاخطر المهدي لنا	من ماله العلق النفيس الاخطرا
ملك اذا ازدحم الملوك بمورد	ونحاه لا يردون حتى يصدرا
أندى على الاكباد من قطر الندى	والذفي الاجفان من سنة الكرى
يختار اذ يهب الخريدة كعابا	والطرف أجود والحسام مجوهره
قدّاح زبد المجد لا ينفك عن	نار الوغى الا الى نار القبرى

لاخلق أفرى من شفار حسامه
 أيقنت انى من ذراه بجنة
 وعلمت حقاً انّ ربهى مخصب
 من لا توازنه الجبال اذا احتبى
 ماض وصدر الريح يكهم والظبا
 قاد الكتاب كالكوكب فوقهم
 من كل أبيض قد تقلد أبيضاً
 ملك يروك خلقه أو خلقه
 أقسمت باسم الفضل حتى شمته
 وجهلت معنى الجود حتى زرته
 فاح الثرى متعطراً بثنائه
 وتوالت بالزهر صلع هضابه
 همرت يدي غصن الندى من كفه
 حسبي على الصنع الذى أولاه أن
 يا أيها الملك الذى حاز المنى
 السيف أفصح من زياد خطبة
 ما زلت تغنى من غنى لك راجيا
 حتى حللت من الرياسة محجرا
 شقيت بسيفك أمة لم تعتقد
 أثرت ربحك من رؤوس كتابهم
 وصبغت درعك من دماء ملوكهم
 تحقها وشيا بذكرك مذهبها

ان كنت شبهت المواكب أسطرا
 لما سقاني من نداء الكوثر
 لما سألت به الغمام المطرا
 من لا تساقه الرياح اذا جرى
 تنبوا وأيدى الخيل تعثر في البرى

عضبا وأسر قد تأبط أسمرا
 كالروض يحسن منظرا أو مخبرا
 فرأيت في بردتيه مصورا
 فقرأته في راحتيه مفسرا
 حتى حسبنا كل ترب عنبرا
 حتى ظننا كل هضب قيصرا
 وجنت به روض السرور منورا
 أسعى بجدة أو أموت فأعذرا
 وحياه منه بمثل حمدي أنورا
 في الحرب ان كانت يمينك منبرا
 نيلا وتفنى من عتا وتجبيرا
 رحبا وضمت منك طرفا أحورا
 الا اليهود وان تسمت بربرا
 لما رأيت الفصن يعشق مشمرا
 لما علمت الحسن يلبس أحمرا
 وفتقتها مسكا بحمدك أذفرا

من ذا يناغنى وذكرك صنبل أوردته من نار فكري مجرا
فلئن وجدت نسيم حمدي عطرا فلقد وجدت نسيم برك أعطرا
واليكها كالروض زارته الصبا وحنا عليه الطل حتى نورا
وكان ابن عمار يتخذ الشعر وسيلة للتعبير عن كل شيء ، فلم تكن تمر به
حادثة من الحوادث الا ذكرها في شعره . فكان اذا أراد أن يكتب للمعتمد
كتب له شعرا ، واذا أراد أن يشكو ، شكاف في شعره ، واذا أراد أن يذكر خبرا
ذكره في شعره . وكأنا كان شعره صحيفة من صحفه اليومية .

ويخيل الى من يقرأ كلامه أن المعاني كانت تنهال عليه انهيالا ، أو أن الشعر
صقل لسانه وتمكن منه ، حتى أصبح لا يقول الا شعرا ، أو لا يقدر على التعبير الا
بنظم المعاني ، أو أن الشعر عنده كالنثر في سهولة التعبير . وأكثره خال من
الخيالات الشعرية ، ولكنه يحسب من صميم الشعر لأن به جمال الشعر : وهو
امتلاك النفوس بهذه العبارات السهلة ، واعجاب الانسان بزلاقة لسانه وتناسق
ديباجته . اذ ليس كل شعر خيالا ، وليست بهجة الشعر وصناعته محصورة في
الخيال : من تشبيه حسن أو كناية عجيبة أو مجاز غريب . فقد يكون الشعر معرفة
التعبير عما في النفس وكشف ما بها . وحسب الشاعر أن يصل بعبارته الى امتلاك
الاسماع واعجاب النفوس بقوله . وليس الشعر غير ذلك . كقوله :

أأسلك قصدا أم أعوج عن الركب	فقد صرت من أمرى على مركب صعب
وأصبحت لأدري أفي البعد راحتي	فأجعله حظي أم الحظ في القرب
إذا اقتدت في أمرى مشيت مع الهوى	وان أتعبه نكصت على عقي
على انني أدري بأنك مؤثر	على كل حال مايزحزح من كربى
أهابك للحق الذى لك في دمي	وأرجوك للحب الذى لك قلبي
أبظلم في وجهي لذا قمر الدجى	وتنبو بكفى صفحة الصارم العضب

حنانيك فيمن أنت شاهد نصحه وليس له غير انتصاحك من حسب
وما جئت شيئا فيه بغي لطالب
سوى أننى أسلمتني للمسة فقلت بها حدى وكسرت من قربى
وما أغرب الايام فيما قضت به تربى بعدى عنك آنس من قربى
أما انه لولا عوارفك التى جرت جريان الماء فى الغصن الرطب
لماسمت نفسى ما أسوم من الأذى ولا قلت ان الذنب فيما جرى ذنبى
سأستمنح الرحى لديك زراعة وأسأل سقيا من تجاوزك العذب

وكان لآلامه أثر عظيم فى شعره، فكانت قصائده فى استعطاف المعتمد وسيلة
من وسائل التعبير عن كل آرائه وخطرات نفسه. وليس أرق فى كلامه من
استعطافه ، ولا أشد أثرا فى النفس من كلامه حين تضيق فى وجهه الدنيا على
رحبها. فمن ذلك قوله للمعتمد

سجايك ان عافيت أندى وأسمح وعذرك ان عاقبت أجلى وأوضح
وان كان بين الخطتين مزية فأنت الى الأذى من الله أجنح
حنانيك فى أخذى برأيك لاتطع 'عدائى وان أثنوا علىّ وأفصحوا
وما ذا عسى الاعداء أن يزيديا . سوى أن ذنبى واضح متصحح
نعم لى ذنب غير أن لحظه صفاة يزل الذنب عنها فيسفرح
وان رجائى ان عندك غير ما يخوض عدوى اليوم فيه ويمرح
ولم لا وقد أسلفت ودا وخدمة يكران فى ليل الخطايا فيصبح
وهبنى وقد أعقبت أعمال مفسد أما تفسد الأعمال ثمت تصلح
أقلنى بما بينى وبينك من رضا له نحو روح الله باب مفتح
وعف على آثار جرم جنيتسه بهبة رحى منك تمحو وتصفح

ولا تلتفت رأى الوشاة وقولهم فكل انا بالذى فيه يرشح
وما ذاك الا ما علمت فانى اذا ثبت لأفئك آسو وأجرح
وقالوا سيجزيه فلان بفعله فقلت وقد يعفو فلان ويصفح
ألا ان بطشا للمؤيد يتقى ولكن حلما للمؤيد أرجح
وبين ضلوعى من هواه تميمية ستنفع لو أن الحمام مجلح
سلام عليه كيف دار به الهوى الى فيدنو أو على فينزع
ويهنيه ان مت السلو فانى أموت ولى شوق اليه مبرح
وقال يصف سجنه لصديق له وكأنما هى أنة من أئنه ، ولوعة من لوعاته ،
وهى من الشعر المطبوع :

أدرك أخاك ولو بقافية كالظل يوقظ نائم الزهر
فلقد تقاذفت الركاب به فى غير مومة ولا بحر
طاحت صحابته بلا سنة وتساقطوا سكرًا بلا خر
بمعارض أدت الى جرد حتى من الأنواء والقطر
عال كأن الجن اذ مردت جعلته مرقاة الى النسر
وحش تناكرت الوجود به حتى استربت بصفحة البدر
قصر تمهد بين خافيتى نسرين من فلك ومن وكر
متحير سأل الوقار على عطفيه من كبر ومن كبر
ملككت عنان الريح راحته فجياها من تحتها تجرى
مأوى العزيز وقد نصحت فان يهمل فقد أبليت فى العذر
واصلت خدمة قاطع سبى وأطعت أمر مضيع أمرى
دع ذا وصلنا غير مؤتمر مستأثرا بالحمد والشكر
وله مدائح كثيرة فى المعتضد وابنه كلها من جميل القول .

هذا شئ عن ابن عمار وهذه صورة من حياته وميوله النفسية ، يمكن بها معرفة ما في شعره من الرقة والمعاني الوجدانية ، وما له من السهولة في الأسلوب ولا سيما خلو كلامه من المعاني الجديدة أو الفلسفية أو الاجتماعية، فقد قصر كلامه على الوجدانيات في شكواه وبث آلامه. فليس هو من الشعراء المفكرين، ولا ممن كان للتربية العالمية أثر في نفوسهم، وكأنه لم يطلع على شئ سوى أوزان الشعر وعبارات البلغاء . حتى امتلأت نفسه من ذلك ، ومال الى قول الشعر. فأصبح من أكبر الشعراء الوجدانيين

عبد الجليل بن وهبون^(١)

عاش عبد الجليل ابن وهبون في حاشية المعتمد بن عباد، ومر بتلك الأحوال التي مر بها ابن عمار وغيره . من مجون ولهو وطرب ، فكان له نصيب في ذلك . وقالوا عنه ما قالوا في غيره من حب اللهو والميل الى الغلمان . وذكروا له شعرا كثيرا في ذلك . وكأن كل نفسه كانت منصرفة لهذا ، وليس بعجيب أن ينغمس ابن وهبون في هذه البيئة لانه عاش فيها ، ولأن كل الناس كانوا على تلك الحال.

١ لم نقف على تاريخ مولده ولا تاريخ وفاته . ولكن عرف عصره الذي عاش فيه ورفاقه الذين عاش معهم .

عاش ابن وهبون في عصر المعتمد بن عباد وكان من المقدمين في حضرته ، وصديقا للوزير ابن عمار . فهو إذاً من أهل القرن الخامس الهجري ويقولون انه توفي في أوائل القرن السادس قبل سنة ٥٣٣ . هاجر من بلاده كورة تدمير واستقر بأشبيلية حيث عزة الملك والمال كانت في أوجها ، وسوق الادب والعلم رائجة ، وكان من أصحاب الرحلات والنقلة ، يند على الملوك والامراء مع عزة في نفسه . فقد اجتاز مرة بالمرية وقد ملكها المعتمد بن صمادح فاهتزله وعرض عليه مالا وافرا فلم يقبل وكان اليوم عيداً فقال :

دنا العيد لو تدنو به كعبة المنى وركن المعالي من ذؤابة يعرب
فيا أسفا للشعر ترمى جواره وبأبعد ما بيني وبين المحصب

وقد صاحبه ابن عمار وأخلص له ورفع قدره وأكرمه . وسبب ذلك أن ابن وهبون لما قدم شبيلية قصد الاستاذ أبا الحجاج الاعلم مؤدب أولاد ابن عباد . وكان في نفس ابن وهبون أن يكون له بهذا الاتصال شيء من الرفعة . وعلق آمالا كثيرة على ذلك . وحدث أن مدح المعتمد بقصيدة من أحد كبار الشعراء الذين كان يستثقل ظلهم الاستاذ الاعلم ، وقالوا انه عرض في هذه القصيدة به . فغرضها على ابن وهبون وولاه أمر الرد عليها ، فقال في ذلك قصيدة سمعها بطن بها وطار بذكره ، وأعجب به . ولما علم المعتمد به أنزله منزلة عظيمة وقصره على هواه فلم ير حل الى ملك سواه . وبقي في حضرة المعتمد . ولما بدت الفتنة هناك خرج هاربا ثم تلاقى بعصبة وجيش من جيوش الأعداء فاستشهد على أيديهم .

ولكنه مزج بين الجد والهزل في شعره. فتراهم تارة خليعاً ماجناً ، حلوا الكلام عذب .
المعبارة ، منغمساً في ملاذ ومسراته انغماس الرجل الذي تسيره أهواؤه ، وكأنه
لا ينظر الى الدنيا وما فيها غير نظر الماسجين . فاذا أتعبتك خفة روحه ،
وأفعمت نفسك سرورا من خلاعته ومجونه ، ونظرت نظرة أخرى الى شعره ،
رأيت ينابيع الحكمة تنفجر من غضونه ، وظننت أنك تقرأ في كتاب حكمة
وفلسفة ، لا في ديوان شعر وخيال ، أو كأنما تقرأ كلام شاعر حكيم ، بلسان عربي
مبين ، أو انه نفحة من نفحات المعرى ، أو حكمة من حكم المتنبي
لم يترب ابن وهيون تربية خاصة ، ولم يعيش عيشة غير عيشة من كان معهم .
ولكن آراءه ليست كأراء غيره ممن عاشوا معه ، بل ذلك شيء غير معروف
عند أكثر شعراء الأندلس . فقد عهدنا الأندلسيين برعوا في نوع جميل
من الخيال ورقة الاسلوب وجزالة اللفظ ، والأوصاف التي دعهم اليها آثار تلك
المدنية الحديثة ولم يمهدها شعراء العرب . أما ابن وهيون فقد برع في نوع آخر وهو
الشعر الفلسفي على انه لم يقصر في ذلك النوع ولم يتأخر عن السبق في هذا الميدان

١ شاعر روائعه انه ركب بأشبيلية زورقا في ليلة مظلمة مع جماعة كان بينهم غلام جميل بيده
شمعتان . فقال ابن وهيون في ذلك :

أعجب بمنظر ليلة ليلاء	تحيا بها اللذات فوق الماء
في زورق يزهي بغرة أعيد	يختال مثل البانة العينا
قرنت يده الشمعتين بوجهه	كالبدر بين النسر والجوزاء
والتاح تحت الماء ضوء جبينه	كالبرق يخفق في غمام سماء

وقال في فتي وقد تابطه وزير جميل .

يا هلال استتر بوجهك عني	ان مولاك قابض بشمالى
هيك تحكي سناء خيرا بخير	قم لجفنى لقده بشمال

وقال متفزلا وقد أبدع ابداع المفرمين الفنين .

زعموا الغزال حكاك قلت لهم نعم	في صدمه من عاشقيه وهجره
وكذا يقولون المدام كريقه	يارب ماعلموا مذاقة نقره

ميدان الخيال. حتى رموه باحجونه أكثر من غيره ، وقالوا ان ذلك حط من شأنه .
ولكنه رغم ذلك من الشعراء المفكرين. وفي الحق ان ذلك لم يكن ناشئاً من تربية فكرية
أو اطلاع واسع على علوم الدين والفلسفة ، ولكنه كان ذكياً مفكراً ، وشاعراً صافى
القرينة ، قادراً على نظم المعاني نظماً شعرياً . ولا بد أن يكون قرأ كثيراً من شعر
المتنبي وأبي العلاء فأخذ يعارضهم في أساليبهم ، أو يجاريهم فيما كانوا ينظمون من
المعاني والموضوعات ، مع بلاغة عبارته. كما قال :

نفسى وجسى ان وضعتها معا	آل يذوب وصخرة خلقت
لوتعلم الأجل كيف مآلها	علمى لما امتسكت لها أرجاء
انا لنعلم مايراد بنا فلم	تعبيا القلوب وتغلب الأهواء
طيف المنايا فى أساليب المنى	وعلى طريق الصحة الا دواء
تتعاقب الأضداد مما قد ترى	جلبت عليك الحكمة الشفاء
ماذا على ابن الموت من ابصاره	ولقائه هل عقت الانشاء
أيعرفنى أن يستطيل بى المدى	وانا بحث تواطت الغبراء
لم ينكر الانسان ماهو ثابت	فى طبعه لو صحت الآراء
ونظير موت المرء بعد حياته	ان تستوى من حسنه الاعضاء

هذه فلسفة منظومة . واذا كان هذا يحسب من الشعر الجميل فذلك لمعانيه
وما فيه من الآراء التى تجذب النفوس اليها ، كما يجذبها الخيال الجميل ، والبلاغة
الساحرة ، فهو من هذه الجهة شعر جميل أيضاً

ولكن الأديب لم يفهموا هذا النوع من الشعر ، بل لا يقولون انه من باب
الشعر . وقد ظنوا أن الشاعر الذى يحوم حول هذه المعاني انما دفعه العجز الى

ورودها، ورماء اليها ضيق التصور وجفاف الفكر^١

قال ابن وهبون هذه القصيدة في رثاء أبي الحجاج الاعلم ، وأتمها في مدحه .
ورثاؤه يشبه في جملته رثاء أبي العلاء من حيث معانيه . وقد يكون قرأ
شعر أبي العلاء أو المتنبي . ولكن مهما كانت الحال فليس ادراك ابن وهبون
كادراك غيره من الشعراء . وان كان جارا هم في أساليبهم الشعرية ، فان له ميزة ظاهرة
في المدح نفسه ، الذي هو شكل معروف وطابع اتفق عليه في الادب والخيال ، من
تعداد الفضائل والأوصاف الكريمة كما قال من قصيدة في مدح ابن عمار قال :

قَتَلْتُ بَنِي الْأَيْلَمِ خَيْرًا فَبَاطِي	مَشَيْبٌ وَمَا يَبْدُو عَلَى شَبَابٍ
وَلَمَّا رَأَيْتُ الزُّورَ فِي النَّاسِ فَاشِيًا	تَخِيلُ لِي أَنَّ الشَّبَابَ خَضَابٌ
وَأَلَيْتُ لَوْلَا مَلِكٌ نَحْمُ مُحَمَّد	لَمَا كَانَ مَلِكٌ فِي الْأَنَامِ لِبَابٍ ^٢
وَلَوْلَا ابْنُ عِمَارٍ وَفَاضِلٌ سَعِيهِ	لَأَصْبَحَ رَجُلُ الْمَجْدِ وَهُوَ خَرَابٌ
وَمَا كَانَ يُؤْتَى الْأَمْنُ مِنْ حَيْثُ يَلْتَقِي	وَلَا كَانَ يَدْرِي لِلْحَوَادِثِ بَابٌ
وَلَا أَحْرَقَتْ أَرْضَ الْعَدُوِّ صَوَاعِقُ	وَلَا أَمْطَرَتْ أَرْضَ الْعَفَاةِ سَحَابٌ
وَمَا كَانَ هَرُونَ أَصْحَ وَزَارَةَ	لِمُوسَى وَهَلْ دُونَ السَّحَابِ حِجَابٌ
نَهَوْضٌ وَلَوْ أَنَّ الْأُسْنَةَ مَرَكَبٌ	وَرُودٌ وَلَوْ أَنَّ الْحِمَامَ شَرَابٌ

١ قال صاحب النخبة في ذلك :

وهذا معنى فلسفي قلما عرج عليه عربي . انما نزع اليه المحدثون من الشعراء حين ضائق
عنهم منهج الصواب : وعدموا رونق كلام الاعراب ، فأسرعوا الى هذا الهذيان اسراع الجبان الى
تنقص أفرانه . واستجادة سيفه وسنانه . وقد قال بعض أهل النقد انه عجيب في الشعر والنثر أن
يأتى الشاعر أو الكاتب بكلمة من كلام الحكماء أو بألفاظ الفلاسفة القدماء . وانى لأعجب من
أبي الطيب على سعة نفسه ، وذكاء قلبه ، فانه أطال قرع هذا الباب والتمرس بهذه الاسباب .
وكذلك المعرى كثر به انتزاعه وطال اليه ابطاعه ، حتى قال فيه أعداؤه وأشياعه وحسبك من
شرسبائه ،

٢ كذا في الاصل

مضى مثل ما يمضى القضاء وهزه همام يهز الجيش وهو هضاب
كما اقترنت بالبدر شمس منيرة له عن سناها في الخطوب مآب
أنافت به فوق السما كين همة أناف عليها عنصر ونصاب
فلفظته يوم المباهاة خطبة ولحظته يوم اللقاء ضراب
له سنة في الجدد والهزل مثلما تدار كؤوس أو تدق حراب
وقد نزع أيضاً في بعض شعره نزعاً أبى العلاء والمتنبى في الفخر بنفسه
ومدحها ، لان تلك كانت الطريقة الجديدة أو بدعة الشعر في ذم الناس والفخر
بالنفس كقول المتنبى .

الخليل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم
وقول المعرى .
ولما رأيت الجهل في الناس فاشيا تجاهلت حتى ظن انى جاهل
فقد قال ابن وهبون:
أتخفى على الأيام غر مناقبي وقد بد شأوى شأو كل نقاب
ويركبنى رسم الخول وقد غدت خصال العلى والمجد طوع ركابي
سأرمي بهماتي قصارى مراتبي وان كان أذناها يطيل طلاي
لتعلم أطراف الأسنة اننى كنيل بها عند الصدى بشراب
وتشهد أطراف اليراعات اننى بهن مصيب فصل كل خطاب
وليس ندى غير أبيض صارم وليس سميرى غير شخص كتاب
مضمخة لا بالخلق أناملى مزعفرة لا بالعبير حرابى
ولكن بنفح ينجل الروض زاهرا ولكن بدعس في كلى ورقاب
وربما كانت تملأ نفسه حكم المتنبى وأسلوبه فينسج على منواله ، حتى لقد

يخيل اليك أنك تقرأ شعر المتنبي وقوافيه . ولعل ذلك كان من ضرور التقليد
والحاكاة أكثر منه من باب التفكير والابتكار . ولكنه يدل على ميل ابن
وهيون الى التفكير وحب الكلام فى المعانى الجديدة ، والبحث فى بعض أحوال
الناس ووصف بعض الأخلاق ونقدها ، وإظهار عدم رضاه عما يرى ويسمع فى
الحياة وهو يتخذ الشعر وسيلة من وسائل التعبير وجمال القول . كما قال :

أطلتُ فى الدهر تصعيدى وتصويبي	ودهر ذى اللب مضمار التجارب
ورُبَّ آخر لا يُهدى إلى فـه	أصاب غرة مأمول ومرغوب
وأفتى أدب باد فضيلته	من حيث يشفع لى قد صار يغرى بى
كفى من الحظ أنى لا أنافس فى	حظ ومخبرتى تكفى وتجري بى
وقد أرى صوّراً فى الناس مائلة	أشيمها بين تحقيق وتكذيب
لمّا ملأت يدى منهم لأخبرهم	نفضت كفى باشباه اليعاسيب
بيض وجوههم سود ضماهم	فما حصلت على عُرْب ولا نوب
الصدق أولى بمن يدى ضعيفته	لا تجعل الصدق من نعت الأصحاب

مع هذا فكان ابن وهيون يجارى الشعراء فى صناعتهم من مدح صناعى
وكلام صادر من غير شعور . وذلك لنمكن ملكة الشعر منه واحتياجه الى هذه
المجاراة . ولمكن ذلك لم يكن يخلو من نظراته وملاحظاتة ، مما يدل على انه كان كثير
التفكير . ولقد يمزج بعض آرائه النقدية بعباراته الشعرية مع شىء من التهمك ،
فتجد كل ذلك جميلاً . كما قال وقد توقف مرتبه عند العامل

ألستم ممشّر الاملاك طائفة	تقضى بتخليدها هذى الأناشيد
فان نقصتم أناسا من نوالكم	فحق منكم لأهل الشعر تزويد
لكم خلقنا ولم نخلق لأنفسنا	فانما نحن تحميد وتمجيد
يا صاحب المجد ان المجد سائمة	تضل اذ لم يكن بالشعر تقيد
خذنى بما شئت من غراء شاردة	يصغى الأصم اليها وهو مفؤود

واعذر بتقصيرها من لا يزال له
لا يدرك القوت مما أنت واهبه
وليس للشعر الا خاطر يقظ
وما المدائح الا بالملوك وهل
وكما قال:

قل للرشيـد وقد هبت نواخه
أشكو لـديك النـدى من حيث أحـمه
يا قاتل الشكر بالاحسان يغمره
عجبت من كرم في راجتيك بدا
آثرت عندك من جاه ومن نسب
يلواحداً تقتضى آلاؤه مجلا
للناس بعدك في العليا منازلهم
أسرفت ياديمة المعروف فاقتصد
لوفاض فيضاً على البحرين لم يزد
مهلاً أما لقتيل الجود من أود
اسرافه كيف لا يعزى الى الفند
حتى وجدت الغنى في همى ويدي
برحت بي وبنظم الشعر فانتد
والواحد الفرد يحوى مبدأ العدد

وبرع في الوصف وفي كل ما قال فيه ، فقد وصف قصراً بقصيدة طويلة
جيدة المعنى ، ولم تخل من بعض الآراء لأنه لم يكن يسرد الكلام سرداً بدون
فكر . قال في هذه القصيدة :

وللزاوى السـكـال سنا وحسنا
يحاط بشكله عرضاً وطولاً
تواصلت المحاسن فيه شتى
وقدر مثل ركز الطود ثبت
تدافع من جوانبه اثلافا
فلو أدنوا حرام السحر منه
سما ترمى بعباب تبر
كما وسع الجلالة والسكالا
ولكن لا يحاط به جمالا
فوفد اللحظ ينتقل انتقالا
ومختال من الحسن اختيالا
يكاد المستبين يقول مالا
لأضحى يعبد السحر الحلالا
كأن بها اكاما أو تلالا

فقد كاد اليبس يهاب منه ويحسب ان بحر الجو سالا
فما أبقى شهابا لم يصب ولا شمساً نير ولا هلالا

ومنها فى الحكم

تزاحمت الميوس خلال صدرى فما تركت لأفاسى مجالا
وما خلت الزمان يكون ثقلا ولا نفحاته تأتى وبالا
كأنى كلما استنشقت منه أردُّ به الى كبدى نصالا
وكيف يصح ذو قلب أبى اذا كان الابهاء له نكالا

هذا هو عبد الجليل بن وهبون . وهو وان لم يكن من الشعراء المعروفين
بكثرة الكلام ، فان شعره صورة من صور الأدب فى الأندلس القليلة المثال.
بل هو من الشعراء الذى كانوا يحاولون الانتقال بالشعر من الخيال الصرف الى
المعانى العامة . أو الى نوع من فلسفة التفكير التى تدل على ان حسن الديباجة
وجمال الأسلوب يجعلان الفلسفة شعراً ، والتفكير العميق فى باب الخيال الجليل

ابن حمديس الصقلي^(١)

ولد عبد الجبار بن حمديس بجزيرة صقلية. ولم يكد يتنسم ريح الشباب حتى وقعت بلاده في يد النرماندين، الذين لم تكد تظا أقدامهم تلك الجزيرة حتى نكلوا بأهلها كل تنكيل، وأذاقوهم العذاب الأليم، وحلّوهم على ترك دينهم، وفتكوا بأعراضهم، وأذلّوهم وأهانوهم في شرفهم. فشاهد ابن حمديس، ذلك ورأى بعينه كيف تسلب الأوطان من أهلها، وكيف يجرؤ القوى على سلب حقوق الضعيف، وينقضّ عليه كما ينقضّ اللص ذو القوة والطول، على الضعيف السليب من كل قوة وحول

لذلك آثر الهجرة على البقاء بين قوم اغتصبوا بلاده. وكان لهذا أثر عظيم في نفسه وخياله الشعري وأخلاقه حتى أصبحت نفسه من النفوس المظلمة، وصدره من الصدور المنقبضة، واستولى عليه البؤس بسبب هذه الحوادث. فهاجر الى أسبانيا ونزل بأشبيلية، وعاش في حاشية المعتمد بن عباد وصار في جملة شعرائه، وتبعه في منفاه. ولم يكن ابن حمديس معروفا عند قدومه الى أشبيلية. فقد قال:

«أقمت بأشبيلية لما قدمت على المعتمد بن عباد مدة لا يلتفت الى، ولا يعبا بي، حتى قنطت لخيتي مع فرط تعبي، وهممت بالنكوص على عقبي. فاني لكذلك ليلة

١ ولد أبو محمد عبد الجبار بن أبي بكر بن محمد بن حمديس الازدي الصقلي سنة ٤٤٧ هـ في جزيرة صقلية وفي سنة ٤٧٦ هـ هاجر الى أسبانيا وعاش في أشبيلية وتوفى سنة ٥٢٧ هـ بجزيرة ميورقة

من الليالى فى منزلى اذ بنلام معه شمعة ومركوب، فقال لى أجب السلطان. فركبت من فورى ودخلت عليه فأجلسنى على مرتبة فَنَكَّ^١، وقال لى افتح الطاق اتى تليك ففتحتها، واذا بكُور زجاج على بعد والنار تلوح من بابيه، وواقدة تفتحهما تارة وتسدهما أخرى، فحين تأملتُها. قال لى أجز .

انظرهما فى الظلام قد نجما . فقلت: كما رنا فى الدُّجْنَة الأسد فقال: يفتح عينيه ثم يطبقها . فقلت: فعل امرى فى جفونه رمد فقال: فابتزه الدهر نور واحدة . فقلت: وهل نجا من صروفه أحد فاستحسن ذلك وأمر لى بجائزة سنّية وألزمى خدمته^٢»

أما نفسه فنفس رجل ربه الحوادث ونالت منه الايام. وأذاقته مرها قبل حلوها . فنقلت عليه الحياة . ولوت من ظهره بعد ان أخرجه من وطنه وليس له اللسانه وخياله . وقد كان لبلاده أثر طيب فى نفسه ومنزلة رفيعة وحب جم. فلما اضطر الى الهجرة والنزول فى غير أهله تعست نفسه، وأظلمت فى وجهه الدنيا وكثر حنينه الى بلده، وصار ذلك من أظهر صفاته النفسية مهما حاول الخروج منه الى وصف الملمات أو التظاهر بالمسرات . ولقد يلمح الانسان هذا فى كل شعره حق فى الغزل والخريات والمدح والوصف .

وأما عقله فكان ميالا الى ادراك الاشياء والمعانى ادراك من يحاول فهم ما يرى ويفكر . فقد كان يرغب دائماً فى تشبيه المحسوسات بالمعقولات، والمعقولات بالمحسوسات^٣ . وهذه طريقة من طرق المحاولة فى الادراك . وأكثر اهتمامه فى تشبيهاته موجه الى وصف المراثيات وادراكها . ولقد تظهر حركة عقله عند قراءة شعره بسبب انتقاله من معنى الى آخر، ومحاولة الخروج من طريق واحد الى طرق

١ دابة فروتها أطيب أنواع الفراء

٢ نفج الطيب جزء ٢ صفحة ٤١٦

متشعبة . أما قوته الشعرية التي بها تكوين هذه الاشياء ووضعها في أسلوب خيالي جميل فتابعة لنفسه وعقله ، وأكثر اعتماده في ذلك على ما يكتسبه من التأثر بظواهر الأشياء وما فيها من التشابه بالجمال .

ذلك أسلوبه في شعره أو أن هذه هي صفات شعره : يشكو الزمان ونصيب الحر منه وكثرة نوبه ، ويأتي في خلال ذلك بعبارات شعرية جميلة تدعو القارئ الى الشعور بما يشعر به هو

وعلى الرغم من صبغته الجدية في شعره ، فإن كثرة كلامه في الحر ومجالسه والعشق وآثاره ، تدل على انه كان يميل الى شيء من المجون ، ولكنه كان أقل من غيره في ذلك فإن الانسان لا يكاد يرى للتهتك أثراً في كلامه . ولولا انه عاش في هذا العصر وفي حاشية المعتمد بن عباد ، لقننا انه كان بعيداً عن اللهو والمجون ، ولعلنا شعره الذي جاء في هذا على نوع من الصناعة والخيال ، اذ اننا نجد في كثير من شعره يميل الى الكلام في المواعظ والعبر ، أو الى بعض الآراء التي تدل على انه كثيراً ما كان يدفعه الفكر الى خوض المعاني النفسية أو الخواطر الفلسفية ، ويمزج هذه الافكار ويصوغها في أنواع شعره . ويظهر من شعره انه أنضج من غيره وأكثر تأثراً بالمعاني الاجتماعية من سواه . ولهذا أيضاً نراه شاعراً مفكراً من أصحاب الملاحظات والنظر في الحياة والاجتماع أكثر منه شاعراً وصافاً كما هو معروف عنه . ويمكن الاستدلال من هذا على تربيته العقلية وحالته الفكرية .

وقد أبدع في هذا الشعر الجدي المملوء بالعبر والحكم . كما دل على انه مفكراً أكثر منه خيالياً لاشتغال شعره على جولات فكرية مملوءة بأحواله النفسية ، والآلام التي يشعر بها ، وكثيراً ما تظهر هذه الآلام آلاماً لجميع الشاكين والمتألمين من الحياة ، كما نظهر آلام العاشق الشاعر آلاماً لكل العاشقين . لذلك كان ابن حمديس شاعراً نفسياً نالماً على الحياة وما فيها . كما قال

هل أقصر الدهر عن تمنيت ذى أدب أو قال حسبي من ائمال ذى حسب
 لا يلحظ الحر الا مثلما وقعت على أخى سيئات عين ذى غضب
 وكيف يصفو لنا دهر مشاربه يخوضها كل حين جمحل النوب
 ان الزمان بما قاسيت شيني ولم أشبه . هذا والزمان أبى
 ولو خلا الدهر ذو الأنباء من عجب أكرت منه ومن أنبائه عجبى
 قرأت وحدى على دهرى غرائبه فما أعاشر قوماً غير مغرب
 أحلت عزمى على همى فقطعه كأن عزمى على صمصامى الذرب
 ماقر بن السير فى سهل ولا جبل الا كما قر جارى الماء فى صلب
 ولم أضق فى السرى ذرعا بمعضلة قد زاحتنى حتى ضاق مضطربى
 وترتقى حر أنفاسى فابعثه برداً وان كان مستبقى من اللهب
 وأحر بالحر ان تلقاه ذا جلد وان تبطن داء قابل الوصب
 ولقد تنقبض نفسه فتحرك خياله حركة البأس الذى ينظر الى الأيام نظرو
 الحاقد ، ويعدد مساوئها ويندب أوقات الشباب ، وكأنه واقف على أبواب الموت
 يودع الحياة ويطلب المغفرة من الله ذلك وهو فى حالة كآبة نفسه متأثرة بهنمه
 الخواطر . كما قال :

وُعظت بلمَّتكَ الشائبة وفقد شبيبتك الذاهبة
 وسبعين عاماً ترى شمسها بعينك طالعة غاربة
 فويحك هل عبرت ساعة ونفسك عن زلة راغبة
 فرغت لصنعك ما لا يقيق كأنك عاملة ناصبة
 وغرتك دنياك اذ فوضت اليك أمانيتها الكاذبة
 أصاحبة خلها ؟ انها باحداثها بثت الصاحبة

اما سلبت منك برد الشباب فهل يسترد من السالبة
وان دقائق ساعاتها لعمر ك آكلة شاربة
وان المنية من نحوها عليك باظفارها واثبة
ألم ترها بمحصاة الردى لكل حليم لها حاصبة
كأن لنفسك مغنيطسا غدت للذنوب به جاذبة
فيا حاضرًا ابدا ذنبه وتوبته أبدا غائبة
أذب منك قلبا تجارى به سوا كب عبرتك الساكبة
على كل ذنب مضى في الصبا وأتعب اثباته كاتبه
عسى الله يدرك عنك العقاب والا فقد ذمت العاقبة

وقد يكون ابن حمديس من أكبر شعراء العرب وأفضلهم، لأن لشعره صبغة خاصة ليست معروفة كثيراً في الشعر العربي : تلك الصبغة هي محاولة الخروج من الوجدانيات التي هي أكبر مظاهر الشعر العربي ، الى الكلام عما يجول بالنفوس ، لا من جهة الخيال وما به من الجمال لا غير ، بل من جهة التفكير أيضاً وما يمر بنفس الانسان وما يشعر ويحس من حوادث الحياة وأشكالها ، وما يعتريه من حيرة وشك و يقين ، وكراهة للوجود أحيانا ، وميل الى البقاء تارة . ذلك بعرض صور الحوادث المؤلمة التي تزهد في الدنيا وتنفر الانسان من رؤيتها وتلك بوصف أوقات الانس ولحظات السرور ، من حسن الذكرى ووصف مجالس اللهو والطرب والخر ولذتها ، والجمال وأثره في النفس وغير ذلك من أصفى وجوه الحياة وأجمل صورها .

فهو في كل أنواع شعره جاد لا مازح . ولذلك تجد أثر فكره وحركة عقله في كل كلامه ، وتشعر بنفسه المفكرة اذا قرأت شعره ، كما تشعر بتلك الحيرة التي هي أصل كل تفكير ، وكما تشعر بسعة خياله الشعري واذا اجتمعت قوة الفكر

وسمة الخيال لانسان كان من أكبر الشعراء ،فاذا كانت حاسته النفسية التى هى رقة شعوره قوية أيضاً كان فى مقدمة الشعراء . كل ذلك فى شعر ابن حديد . فهو شاعر نفسى فى مقدمة شعراء العرب المفكرين . بين فى شعره ما تنطوى عليه نفسه ، ولكن لا بصفته الشخصية الفردية ، بل بصفته انساناً أمثاله كثيرون . واذ كان كثير التفكير فى ظلمات الحياة وجوهاها العابسة وميالا الى التأمل فى ذلك أكثر من التفكير والنظر فى وجوها النضرة الباسمة غلبت على شعره صبغة التشاؤم . أكان كذلك لأن نفسه كانت مريضة وأعصابه مضطربة ؟ قد يكون هذا . وربما كانت رقة شعوره تقود عقله وتملك منه ادراكه ، وكان اغترابه عن وطنه ونزوح الأعداء اليه ووقوعه فى غير قبضة أهل من الأسباب التى أثرت فى نفسه واستولت على عواطفه . فكان يشعر بضيق ويكره الحياة وينحى باللوم على نفسه وينهرها . ولكنه لم يكن فى ذلك فيلسوفاً ، بل كان يميل الى أمثال أفكار المتصوفة فى لوم النفس والنيل منها . ولقد كانت تملكه هذه العاطفة أحياناً ، عاطفة الندم أو توبيخ النفس ، فىرى نفسه ذليلاً حقيراً ، وكأنه يبكي على ذنوبه وهو حزين كئيب . ولكن ما أجمل حزنه الشعرى وأرقه فى هذا الأنين . حيث يقول :

ياذنوبى ثقلت والله ظهري	بان عذرى فكيف يقبل عذرى
كلما تبت ساعة عدت أخرى	لضروب من سوء فعلى وهجرى
ثقلت خطوقى وفودى تفرى	غنيب الليل فيه من نور فجرى
ربّ موت السكون فى حركاى	وخبا فى رماده 'خر جمرى
وانا حيث سرت آكل رزقى	غير ان الزمان يأكل عمرى
كلما مر منه وقت برىح	من حياتى وجدت فى الريح خسرى
يارفيقا بعبده ومحيطا	علمه باختلاف سرى وجهرى

هل بقلبي الى صلاح فسادى منه واجبر برأفة منك كسرى
وأجرنى بما جناه لسانى وتناجت به وسوس فكرى
أو كقوله وهو يفكر فى نفسه وحياته وكأنه متصوف ، ولكنه مع ذلك شاعر
جهيل القول :

كملت لى الخسوس والخس ووقعت فى مرض له نكس
ووجدت بالاضداد من جسدى غصنا يلين وقامة تقسو
وتنافرت عني الحسان كما لحظ المصور جاذر خنس
وأبيض من فودى من شعري وحف كأن سواده النفس
والعمر يذبل فى منابته غرس ويلبس نضرة غرس
الى أن قال

وأقل ما يلقى الجدار اذا ما انهد تحت بناءه الأس
يارب ان النار عاتبة ولكل سامعة لها حس
لا تجعل جسدى لها حصبا فيه تحرق منى النفس
وارفق بعبد لحظه جزع يوم الحساب ونطقه همس
وكقوله فى الشكوى :

أسامنى الدهر للرزايا وغير الحادثات قفشى
وكننت أمشى ولست أعيا فصررت أعيا ولست أمشى
كأننى اذ كبرت نسر يطعمه فرخه بعش
ومن دعاياته فى ذلك :

نومى على ظهر الفراش منغص والليل فيه زيادة لا تنقص
من عاديات كالذئاب تذاءبت وسرت على عجل فما تتربص
جعلت دمي خرا تداوم شربها مسترخصات منه مالا يرخص
فترى البعوض مغنيا برابة والبق تشرب والبراغث ترقص

وكانت تثور نفسه ثورانا وتغلى غليان الرجل فتنتطق بالشعر وكأله زاهد
في صومعة . أو ناسك في دير أو تقي من كبار التقاة . فيقول :

يبتك فيه مصرعك	وفي الضريح مضجعتك
غرتك دنياك التي	لها شراب يخدعك
همت بحب فارك	وقلما تمتعك
يضررك الحرص بها	والزهد فيها ينفعك
لا تأمن منية	ان عصاها تفرعك
مغربك القبر الذي	يكون منه مطلقك
ان فرقتك تربة	فالله سوف يجمعك
وللحساب موقف	أحواله ترزعك
كم جر ما أشفقت من	لسك منه أصبعك
فكيف بالنار التي	من كل وجه تلذعك
يراك ذو العرش اذا	ناديته ويسمك
فثق به ولا يكن	لغيره تضرعك

وقد تجول نفسه جولات في ذكر أيامه الماضية ، فيذكر كل ما يخطر بباله ،
ويسطر الماضي كما يسطر الكاتب مذكراته في كتاب ، أو كما يرسم المصور
صورة من ماضيه على اختلاف أحواله . وهو يخرج من معنى ليدخل في معنى آخر
بين جد وهزل ، ولكن كل ذلك بصيغة الرجل الجاد المفكر ، وكأنما تمر أمام
القارئ سلسلة حوادث ، أو صور جميلة يتمتع بها ويتعظ منها . قال في إحدى هذه
القصائد :

قضت في الصبا النفس أوطارها	وأبلغها الشيب اندارها
نعم وأجملت قداح الهوى	عليها فقسم أعشارها

وما غرس الدهر في تربة غراساً ولم يجن أثمارها
 فأنيت في الحرب آلاتها واعدت للسلم أوزارها
 كمينا لها مرج بالفتى اذا حثَّ باللهو أدوارها
 تناوها الكوب من دنها فتحسبه كان مضارها
 وساقية زررت كفها على عنق الظبي أزارها
 تدبر بياقوتة درة فتغمس في مائها نارها
 وفتيان صدق كزهر النجوم كرام النجائر أحرارها
 يدرون راحاتفيض الكؤوس على ظلم الليل أنوارها

ثم أخذ في وصف دير وصاحبة هذا الدير وما عندها من خمر، وأبدع في وصف الخمر بابتكارات عجيبة، وخیالات غريبة. ووصف ملهى من الملاهي وفيه القيان ترقص وتغنى وهو يقص ذلك ويحكى حكاية، وكأنك جالس في ذلك الملهى ترى خطرات الراقصات وتسمع أصوات الغناء، ولقد تشعر بشدة تمكنه من صناعة الشعر ودقة وصفه وسهولة أسلوبه . قال .

وراهبة أغلقت دبرها فكنا مع الليل زوارها
 هداها إليها شذى قهوة تذيع لأنفك أسرارها
 طرحت بميزانها درهمي فاجرت من الدن دينارها
 تفرس في شمشها طيبها مجيد الفراسة فاختارها
 فتى دارس الخمر حتى درى عصير الخمر وأعصارها
 يعد لما شئت من قهوة سنيها ويعرف خمارها
 وعدنا الى هالة أطلعت على قضب البان أقارها
 يرى ملك الله وفيها الميوم ثور فيقتل ثوارها
 وقد سكنت حركات الأسي قيات تحرك أوتارها

فهذى تعانق لى عودها وتلك تقبل رزمها
وراقصة لقطت رجلها حساب يد نقرت طارها
وُقُضِبَ من الشمع مصفرة تريك من النار نُورُها
كأن لها عمداً صفت وقد وزن العدل أقطارها

الى ان قال

ذكرت صقلية والأسى يهيج للنفس تذكارها
ومنزلة للتصابى خلت وكان بنو الظرف عمارها
فان كنت أخرجت من جنة فأنى أحدث أخبارها
ولولا ملوحة ماء البكا حسبت دموعى أنهارها

وشكى فى قصيدة طويلة آلامه فذكر صبره على ذلك، وذكر غربته، وهجر
وطنه ، وان ذلك كان من أكبر محنه . ثم ذكر شكاته من الناس وهو يضرب
الامثال فى أثناء ذلك ، وفيالاق من الأهوال بانفراده فى عزله حتى عن خيال
كان يزوره . ثم أخذ يتسلى بمدح نفسه ويتغنى بفضله الجم وذكر لىاليه الماضيه،
وعرج على ذكر وطنه ونكبة بلاده باستيلاء الاعداء عليها وأخذ يصف أهل بلده،
وما كان لهم من صفات الكمال والشهامة ومنازلة الحرب بافضل وأجل ما يصف
شاعر قوما يعتز بهم ، ويشرف بالانتماء اليهم . وختم كلامه بالحنين الى وطنه ،
والبكاء على أهله . فقال :

تدرعت صبرى جنة للنوائب فان لم تسالم يازمان فحارب
عجبت حصاة لا تلين لعاجم ورضت شموماً لا يذل راكب
كأنك لم تقنع لنفسى بغربة اذا لم أنقب فى بلاد الأغارب
فطمت بها عن كل كأس ولذة وأنفقت كنز العمر فى غير واجب
بييت رياش العضب فى ثنى ساعدى معاوضة من جيد غيداء كاعب
وما ضاجع الهندى الا مُثَلِّماً مضاربه يوم الوغى فى الضرائب

فكست وفدّى في الصّبّا مثل قدّه عهدت اليه أن منه مكاسبى
فان تلك لى في المشرقى ما رب فكم في عصى موسى له من مآرب

ثم أخذ ينسكلم عما في نفسه من ذكرى الحوادث الماضية ، وخيانة الناس
والأيام ، وهو يتمثل أثناء الكلام ببعض الحقائق المعروفة للناس جميعاً ليثبت
بها معانيه ويجسمها للقراء . ولم يخرج في مجموع أسلوبه عن الأسلوب العربى
المعروف من كثرة استعمال المجاز والغموض في بعض العبارات ، وذكر الركب
والرحل والنوى وركوبه القلاص وهزلها . كقوله

أتحسبى أنسى وما زلت ذا كراً خيانة دهرى أو خيانة صاحبى
تغدى بأخلاق صغيراً ولم تكن ضرائبه الاخلاف ضرائبى
ويلربّ نبت تمرته مرارة وقد كان يسقى عذب ماء السحاب
علمت بتجريبى أموراً جهلتها وقد تجهل الاشياء قبل التجارب
ومن ظن أمواه الخضارم عذبة قضى بخلاف الظن عند المشارب
ركبت النوى فى رحل كل نجيبة تواصل أسباى بقطع السباب
ولما رأيت الناس يهرب شرم تجنبهم واخترت وحدة راهب

وعجيب تلك العادة التى ابتلى بها الشعراء فى مدح أنفسهم مدحاً يخجل
منه القارئ . فكيف بالشاعر وهو يضع نفسه فوق كل شىء ؟ هل هذا من
الأماليب الشعرية ؟ لعله من وسائل التسلية ، على ما فيه من المبالغة والتغنى
بمدح النفس . ولكن مهما يكن من شىء فى هذا فإنها بدعة عجيبة فى الشعر العربى
وأسلوب غريب .

وبينا الشاعر يكيل لنفسه المدح كيلاً ، ولا يقنع بشىء منه تراه فلجأك
بذكر الخمر ووصفها ومدحها . وانك لنكاد تشمل من ذلك ، وإذا هو ينتقل الى
الكلام فى وطنه ويذكر بلده ويمدح أهله . فيقول .

ولى فى سماء الشرق مطلع كوكب
 متى تسمع الجوزاء فى الجو منطقى
 وكم لى به من صنود محافظ
 أخى ثقة لا دسه الراح والصبأ
 معتقة دع ذكر أحقاب عمرها
 اذا خاض منها الماء فى مضر الحشا
 ولو ان أرضى حرة لأتيتها
 ولكن أرضى كيف لى بفنكاها
 الا فى ضمان الله دار بنوطس
 أمثلها فى خاطرى كل ساعة
 أحن حنين النيب للموطن الذى
 ومن يك أبقى قلبه رسم منزل
 جلا من طلوعى بين زهر الكواكب
 تُصخ فى مقالى لارتجال الغرائب
 لذى العيب من أعدائه غير عائب
 له من يدى الأيام غير سوالب
 فقد ملئت منها أنامل حاسب
 بدا الدر منها بين طاف وراسب
 بعزم يعد السير ضربة لازب
 من الاسرفى أيدى العلوج الغواصب
 ودرت عليها معصرات الهواصب
 وأمرى لها قطر الدموع السواكب
 مغافى غوائيه اليه جواذى
 تمنى له بالجسم أوبة آئب

هذا خلط فى تركيب القصيدة ، ولكنه خلط معهود عند شعراء العرب ،
 فالقصيدة من هذه الوجهة من الشعر العربى الجميل . على ان هذا شاعر عرف
 كيف يتكلم عن شعور ، وكيف يطبع نفسه حين تدفعه الى الكلام ليصور
 خفاياها ويبين مكنوناتها .

وله فى الوصف براعة معروفة ، واستحضار عجيب لصور الأشياء والتشبيهات ،
 ودقة فى جمع الأشياء وتنسيقها ، كأنما تراه يجمعها وينسقها بيده أو كأنه يفوس على
 المعنى الخفى فىأتى به ويضعه فى موضعه . ولقد يتكلف أحيانا جمع هذه المعانى ، حتى
 كأن كل كلمة أختطف من مكانها لتوضع فى مكان آخر . ولكنك تراه
 كالعقد يؤخذ من عنق الحسناء الى عنق العانية ، فلا يفقد قيمته ولا تضارته

وكأنك وأنت تقرأ كلامه ترى بعينك ما يصف وتحس ما يقول . لأنه كان ذا شعور قوى ونظر ثاقب . لا يكاد يشعر بشيء الا ذكره في شعره ، ولا تكاد تمتلئ عينه بمنظر الا وصفه كأنه كان مملوءا بذلك ، وكأن هذه كانت كل حياته ، لذلك كان يقول في المعنى الطريف ، كما يقول في المعنى المتبدل . ولكن الابتدال يضعف أمام شعوره بالجمال وحسن صناعته .

ولا تكاد تقف له على غور في الوصف ، ولا على أسلوب واحد ، لأنه يميل الى الاختراع : ويصف الصيد والليل ، ويدكر رفاقه ، ثم يعرج على السرور والكلام في الخمر ، ثم يرجع الى الطبيعة ، فيحن اليها ، ويصف طلوع الصبح . ثم يصف الخليل وكلاب الصيد وحركاتها ووثبتها . وكثيراً ما يكون وصفه حقيقياً ، أكثر منه خيالياً كأنما يرسم ما يرى . كما قال :

وليطة حالكة الارار مدت جناحاً كسواد القار
تجذب عنا غرة النهار عقرت فيها الهمم بالعقار
بجسم ماء فيه روح نار في مجلس ضم بنى الفخار

كما في قوله يصف شجرة

١ قناة من الشمع مركوزة لها جربة طبت من لب
تحرق بالنار أحشائها فتدمع مقلتها بالذهب
تمشى لنا ورما في الدجى كما يمشى الرضى في الغضب
عجبت لآكلة جسمها بروح تشاركها في العطب

وكما قال يصف ساقية

دساقية تنقى الندامى بعدها كؤوسا من الصبء طاغية السكر
يمود فيها كل جام كأنما تفسن روع الشمس في جبد البدر
إذا قصدت ما نديما زجاجة تناولها رفقا انملة العشر
وهرسلها في مائها فيعيدها الى راحتى ساق على حكمه تجري

كحالة تفضحك عن أقمارٍ تراحت بالنجم دراري
من كل يَمِر في حى الدمارِ مهين مالٍ ومعزٍّ جارٍ
يُسقون من ساطعة الأنوارِ كثيرة الأسماء والأعمارِ

الى ان قال :

قنا لننسى عرض الخنار عن جوهر الأنفس فى الصحارى
بكل طرف سَلَب مطَّارٍ موجه الاقبال والأدبارِ
الى ان قال :

فر بى غيم من الغبار يشكل فيه أحرف الآتِ
كأنما يطلبه بشار ماذا يريد الظبى بالفرارِ
يمدحه بيزمَعٍ صغار حذف المولى باليد اليسارِ
من ابن ريمح فى قيص نارٍ وهو مع الاجهاد والاضرارِ
فلو ترانا فى اقتراح الدار فى روضة كالغادة المطارِ
أأكل من صيد أبى العقار ونشرب الصهباء بالكبارِ

ما كنت الا خالغ العذارِ

ويصف مجلس أنس وما يدور فيه ، فتجده ينسى أحياناً نفسه المظلمة ،
ويكب على اللهو والمجون وكأنه من أكبر رجاله ، ويندكر العبارات التى تدعو
الى الخوض فى غماره ، والى انتهاء هذه الاوقات حتى بعد فوات الشباب الذى
يبكى عليه، بما لا يكون ارق منه ولا أدعى للحسرة وهو يتنفس الصعداء ، ويسلى
نفسه بهذا الكلام ، ووصف هذه المجالس ، ثم يرجع على نفسه بالميرة والعظة
أو تمود اليه نفسه المتشائمة أثناء هذا الهرج والمرج فيفتيق من ثورة سروره
ومجونه ، ويندكر أنه وصاف وصانع من صناع الكلام ، وأنه ليس من أهل

١ سلهب طويل عظيم ومطار عداء سريع السير

هذه المجالس ، ولا من شراب الخمر ، ويرجع الى التقوى والندم على الذنوب .
فيقول :

بمذاوى من سلافتِ الخمر	حبذا فتيات صدق عرسوا
فانقاه السكرُ عنهم بالسرور	عزبد الصبحُ عليهم بالأسى
يتمشى فيه بالشيب دثور	عمرُوا ربع الصبا من قبل أن
بلفت لم تمن منهن صدور	ان للأعمار أعمازا إذا
للصبا نار وفي الوجنة نور	كل نافي العسر في شرته
ذات عمر كثرت فيها الدهور	يقتنون العيش من قانية
أنجم الكساة في أيدي البدور	أطلع الساقى عشاء منهم
في يد الآنس عنهن نفور	عدُّ بالاكواب عفى ان لي
بنجوم طلع ليست تفور	عمر الشيب الدجى من لمي
مات من عمرى الى يوم النشور	لا نشور لشبابى بعد ما
إنه في شقرى شاهد زور	وخضاب الشيب لا أقبله
أذرف الدمع رواحا وبكور	أنا من وجدى بأيام الصبا
لوعة منه الى ماء الثغور	فكأنى ذو غليل تلتظي
وهى بالشدو على الشرب تدور	أصف الراح ولا أشربها
يصطلى نار الوغى حيث تفور	كالذى يأمر بالكر ولا
وذوى اللهو مغيبي والحضور	فسواء بين اخوان الصفا
وان استغفرت فالله غفور	أنا من كسب ذنوبى وجل

وقد اشتهر بوصف القصور . كما قال :

من دوحة نبتت من العقيان	كم شاخص فيه يطيل تعجبا
نبتت من الثمرات والاغصان	عجبا لها تسقى الرياض ينابعا

١ مكداء الى الامل

خضت بظائرة على قن لها حسنت قافرد حسنها من ثان
قُس الطيور الخاشعات بلاغة وفصاحة من منطق وبيان
فاذا أُنِيج لها الكلام تكلمت بخرير ماء دائم الهملان
وكان صانعها استبد بصنعة نغر الجناد بها على الحيوان
أوفت على حوض لها فكأنها منها الى العجب العجائب روائى^١
فكأنها ظننت حلاوة مأجها شهدا فذاقته بكل لسان
الى ان قال :

كم مجلس يجرى السرور مسابقا منه خيول اللهو في ميدان
يجلو دماء على الحدود ملاحه فكأنه المحراب من غمدان
فسماؤه في سكبها علوية وقبابه فلكية البنيان
وكفوله :

واذا نظرت الى غرائب سقفه أبصرت روضاً في السماء نضيرا
وعجبت من خطاف عسجده التي حامت لتبنى في ذراه وكورا
وضعت به صناعه أقلامها فأرتك كل طريدة تصويرا
وكانما للشمس فيه ليقة مشقوا بها التزويق والتشجيرا
وكانما للأزورد مخرم بالخط في ورق السماء سطورا
وكانما وشوا عليه ملأه تركوا مكان وشاحها مقصورا
يامالك الارض الذي أضحي له ملك السماء على العداة نصيرا
كم من قصور للملوك تقدمت واستوجبت لقصورك التأخيرا
فعمرتها وملكت كل رئاسة منها ودمرت العدا تدميرا^٢

١ كذا في الاصل

٢ راجع القصيدة في الديوان المطبوع في رومه من ٤٨٢

وقد يتغزل فيخاطب حبيبته بما في نفسه من ألم، وما يلاقيه في سبيلها من
شهامة الاعداء، وما يتمناه من الصبر في سبيل ذلك. ثم يستحلفها بما لها من الدلال
أن تكف عن أسر قلبه . وهو يستعطفها ويدل في آن واحد . فيقول .

عذبت رقة قلبي	ظلما بقسوة قلبك
وسمت جسمى سقما	وما شفيت بطبك
أسخط كل عدو	رضيته لمحبيك
من لي بصبر جميل	على رياضة صعبك
فيا تشوقاً بعدى	الى تنسم قربك
ووجنة غمستها	في الورد صنعة قربك
لقد جنحت لسلمى	كما جنحت لحربك
فبالدلال الذى زاد	في ملاحه عجبك
فكفي من الأسر قلبا	عليه طابع حبك
ونعمينى بعنبي	فقد شقيت بعقبك

ويمدح على الأسلوب المعروف من حيث البدء بالنسيب. وقد يطيل في ذلك
وربما لم يكن له ميزة في غير الاسلوب ، وربما كان مدحه كفرله ، ولكنه مدح
جميل على الرغم مما يشعر به القارئ من الثثرة . غير أن المعانى تنهال عليه انهيالا
فيعذب الكلام . كما قال .

غيرته غير الدهر فشاب	ورمته كل خود باجتنا
فغدا عند الغواني ساقطا	كسقوط الصفر من عد الحساب
وتولى عنه شيطان الصبا	اذ رماه الشيب رجما بشهاب
وكأن الشعر منه سعف	يلتظى فيه شواظ ذو التهاب

أَيُّهَا الْغُرَى بِتَأْيِيبِ شَجْ	سلط الوجد عليه نهل أناب
هَامَ لَامَتِ مِنَ الْغَيْدِ بَعْنِ	حبها عذب وإن كان عذاب
لَمْتُ لَا لَمْتُ عَمِيدًا قَلْبُهُ	عن سماع اللوم فيها ذو انقلاب
وَالْهَوَى بَاقٍ مَعَ الْمَرْءِ إِذَا	كان من عصر الصبا عنه ذهاب
بَابِي مِنْ أَقْبَلْتُ فِي صُورَةٍ	ليس للتائب عنها من متاب
كُلِّ حَسَنِ كَامِلٍ فِي خَلْقِهَا	ليتها تنجو من العين بعباب
فَالْقَوَامُ الْغَصْنَ وَالرَّدْفَ التَّقَا	وَالْأَقْلَاحَ الثُّغْرَ وَالطَّلَ الرُّضَابَ
ظُبِيَّةٍ فِي الْعَقْدِ إِمَّا التَّفَتُّ	ومهاة حين ترنو في النقاب

ويذكر الخمر وكان الناس جميعاً سكارى ، وفي كل رأس نشوة وحيرة .
وكان الخمر حلال لا حرام ، أو كأنها أكل شيء في الوجود ، لانه يصفنها بأكل
الصفات وأجمع سمات الكمال واللذات . ويخيل الى الانسان انه لم يبق كلمة
تمت الى الخمر بقراءة الا ذكرها ، أو معنى يدب في النفس بديدها الا قاله ،
والقارئ يشمل بذكر الخمر كما يشمل بأسلوب الشاعر وعذوبته ، وكأن أحدا لم يقل
منه في ذلك كما قال :

وجسم له من غيره روح لذة	سليل ضروع أرضعت حَلَبَ السحب
إذا قبض الأبريق منه سلافة	تقسمها الشراب حويله بالقُصْب
شربنا وللأصباح في الليل غرة	تريد اندماجا بين شرق الى غرب
على روضة تحيا بحية جدول	يفيء عليه ظل أجنحة القضب

أو كما قال الشاعر

أشهب في دجى الليل ثقب	أم سراج ناره ماء العنب
أم عروس فوق كرسى بدا	يجتليها اللهو في عقد الحب
ياشقيق النفس أنفاس الصبا	بردت والمبعج لاشك اقترب
قم امتعك بعيش لم تقع	في صفاء منه اقضاء النوب

بلزهر يجلو اللهو فيه عرائساً
 كأن لها في الخمر حمراً غلائلاً
 وكم من كميت اللون تحسب كأسها
 إذا مزجت لانت لنا وتحولت
 جرى في عروق النار ماء كأنما
 وان نال منها ذو الكآبة شربة
 كراسيها أيدي الكرام من الشرب
 مزردة الأطواق بالؤلؤ الرطب
 لها شفة لساء ذات لمي عذب
 بأخلاقها عن قسوة الجامع الصعب
 رضى السلم منها يتقى غضب الحرب
 تسربت الأرواح منه إلى القلب

فلقد حان لضوء الفجر أن
 فأدركها تحت ليل سقفه
 أو على برق سماء ضاحك
 سكر الروض وغنى طيره
 هات درا فيه ياقوت وخذ
 فموة لو سقيتها صخرة
 يجذب الروح إليه روحها
 ولدت بالشيب في عنقودها
 علما موجها المزج أرت
 مادري خاها عاصرها
 خندريس عثقت في أجوف
 ومليح الدل ان عل بها
 شمع القهوة في صوب الحيا
 فتلاقي في فسي من كآسه
 يضرب السرحان فيه بذنب
 ظلمة فيها من النور ثقب
 غيمه بالدمع منه منسكب
 أفلا ترقص قامات القضب
 جسم ماء حاء لا روح لهب
 أورقت باللهو منها والطرب
 ألطف الشيشين عند ما يجذب
 وهي اليوم عجوز لم تشب
 حبب الفضة في ماء الذهب
 فحديث الصدق فيها كالكذب
 من دم العنقود مملوء نجب
 قلت نجم في فم البدر غرر
 وسقاني فضلة مما شرب
 ماء كرم وغمام وشند

ابن برد الأصغر^(١)

بنو بُرد أسرة معروفة بالأدب كبنى شهيد وبنى حزم. وكانت هذه الأسر جماعات وأحزاباً أدبية تستخدم عمالاً للملوك والأمراء، يكتبون لهم ويساعدونهم في أغراضهم. والأمراء أنفسهم أدباء وشعراء، فكانت تربطهم بهؤلاء صلة الأدب، للاستعانة بهم في مسائل السياسة والكتابة فيما يكون من أمر الدولة والاستفادة بأرائهم، ولاحتياجهم اليهم في أوقات الطرب ومجامع اللهو والمسامرة والشرب والحديث والأسفار. ولذلك كان الوزراء جميعاً كتاباً وأدباء وشعراء ورجال جد وهو. وكانت هذه المجموع تحتوي على كثير من الناس المختلfi المذاهب والعقائد في كثير من المسائل، كما كانت مسرحاً للدسائس والملق، ومثاراً لغضب الملوك والأمراء، وبعثاً من بواعث الرضى، وجد الناس بالحظوة عند الرؤساء.

بهذا وغيره رقى الأدباء الى مراكز الوزارة، وقبضوا على أزمة الامور، كما سبق وتكلمنا عن بعضهم. وقد انتشرت هذه المجالس الأدبية وكثر الأدباء فيها، وانتمى الى الأدب والكتابة كثير ممن كانوا يرون أنفسهم أهلاً

١ هو حفيد أبى حفص الأكبر كاتب يحيى بن على بن حود الذى خرج على عمه القاسم بن حود وأسره ستة أعوام ثم قبض عليه ستة عشر سنة ثم قتله خنقاً سنة ٤٣١ هجرية. وكان بين يحيى هذا وعمه حروب ومنافسات طالت زمناً وانتصر كل منهما على صاحبه مرات وغدل مرات (راجع المعجب فى تلخيص أخبار الغرب) ولم يكن هناك وقت أكثر اضطراباً من هذا الوقت الذى خرجت منه السلطة من بنى أمية ثم رجعت اليهم ثم خرجت منهم نهائياً الى ملوك الطوائف وكاذ. أبو حفص الأكبر من أشهر الادباء

لان يجولوا في هذه الميادين . وعرف بنفسه من لم يكن معروفا ، واستعان على ذلك بالحاجة الى أمثاله . وكان ذلك وقت أن كانت الفتن يدب ديبها في جسم الدولة هناك ، والفرقة بين الناس تعمل فيهم ، والأمة آخذة في التدهور ، وسلطان بني عامر قد قام على دعامة من الدسائس والخداع ، والمنصور يحاول هدم ملك بني أمية ، وكانت بقية العلوم والآداب من عصر عبد الرحمن الثالث وابنه الحكم لا تزال وافرة . فاندس في هذه الفتنة نفر من الأدباء أرادوا أن يعيشوا من ألسنتهم . فقصدوا الأمراء والملوك ، فرحب هؤلاء بهم وافسحوا لهم صدورهم . فكان من جراء ذلك انتعاش حركة الأدب في عصر كانت الدولة مائلة فيه الى السقوط ، والدسائس تتطلب مثل هؤلاء الكتاب والشعراء . فطال عمرهم بطول الحاجة اليهم . وهذا سر بقاء الأدب في الأندلس حافظاً شكله ومكانته الى أواخر الدولة هناك . ومن الذين عاشوا في هذه البيئة وتربوا فيها وكانوا يرتمون في ساحاتها بنو برد . وأشهرهم أبو حفص الأكبر وحفيده أحمد أبو حفص الأصغر

كان أبو حفص بن بُرد الأصغر من كبار الكتاب والأدباء ومن النبهاء الأذكياء ، ومن الشعراء أصحاب الديباجة الحسنة وأهل الظرف في الشعر . أخذ عن جده أبي حفص الأكبر وسلك مسلكه . وكان يفخر به وبالاتقاء اليه ١

(توفي سنة ٤٢٨ هـ بقرسطة) ومن كتاب ديوان الانشاء في دولة العامين وكتب للمظفر بن أبي عامر . وكان من أقطاب البيان وله عدة رسائل شهيرة تدل على طول باعه في السياسة . (ومن رسائله الشهيرة ما كتبه لعبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر وكان قد استبد بالامر وحجر على الخليفة هشام الاموي وأراد أن يستأثر بما بقي من رسوم الخلافة . فطلب من هشام المؤيد أن يوليئه عهداً فأجابه وأحضر لذلك الملا من أرباب الشورى وأهل الحل والعقد فكان يوما مشهودا فكتب عهداً من انشاء أبي حفص بن برد

١ حيث يقول

من شاء خبري فأنا ابن برد حد حسامي قطعة من حدى
وأرفع الناس بناء جدى من نظم الالفاظ نظم القمد
ونقد الكلام حق النقد وكف بالاقلام ايدي الاسد

وهو من المقدمين بين الادباء والشعراء ذكره ابن بسام بقوله
« كان أبو حفص بن برد الأصغر في وقته فلك البلاغة الدائر . ومثلها
السائر . ينفث فيها بسحره . ويوردها بناصع نظمه وبارع نثره
وكان يفخر بامتلاك أعنة البلاغة ^١ . فقد كان الأدب ولا سيما الشعر
والنثر أشبه بما يسمونه الآن فنون الجمال ، التي تقاس بها أذواق الأمم الفنية
ودقة الإدراك لديهم ، وفهمهم أسرار الوجود الخفية
وأسلوبه النثرى هو في جملته أسلوب خطابي ، يسلك فيه مسلك توارد الجمل
والمترادفات ليملك الأسماع ، ويؤثر في نفس القارئ . وإن كان كثير من هذه
الجمل مكررا خاليا من معنى جديد . وهذا طريق طويل . ولكنه أحد طرق البلاغة
الذي يسموه بالأطناب ، ويريدون أنه في نهايته يصيب الغرض المقصود من
التعبير ، ويوصل الى ما يؤدي اليه الإيجاز : من معرفة مواقع الكلام الدال
على المعنى تَوْأ . وقد يكون هذا الأسلوب آتق في لفظه ، لكثرة اختيار الكاتب
الجمل الفصيحة وأثبت في أذهن ، لكثرة تردد المعنى الواحد في ذهن السامع
بصيغات مختلفة .

١ كتب يقول في كتاب سماء (سر الادب وسبائك الذهب) ... وأصبحتا بعد نرى أغراض
الكلام بأسهم أزرها شديد . ونمقد مناظم القول بالسن برى منها التعميد . ونسيل من
المنثور جد اول النطاف . ونجيد من المنظوم جواهر الاصداف ، وكان جدى احمد بن برد رحمه
الله لطول ممارسته هذه الصناعة برحاء الله ، ونهية الطلب . ودعة الزمان واقبال السلطان ...
كأنه وقد أقبسني من مصاييح وصاياه فيها .. وصرف لي ضوا من هداياته مأفاه الله به نفعاً
وأوسع معها ارشادا . ثم ان الايام اثم مصابه . وبعد ذهابه . باكرتني بهروفا . وشغلتنى ..
برقع خروقه . ومكابدة ضيقها ؛ وسوق الادب قد كسدت ، والى أمضى من البيان ، والاساءة
أحد من الاحسان . وأفلامنا يومئذ في عطلة . ومحارنا في عقله . وكنتنا في رقدة .. الخ ...
راجع الجزء الاول من الذخيرة

وأدل على قدرة الكاتب وسعة خياله ، لكثرة ما يجد من هذه الألفاظ ذات المعنى الواحد ، وعلى الافتنان في معرفة الفرار من ملل التكرار ، وعلى إبراز هذه الجمل المتحدة المعنى كأنها مختلفة الدلالة ، مما لا يقدر عليه الموجز بإيجازه المملوء بالعبارات الدقيقة والمعنى الكبير في الألفاظ القصيرة لعدم ضلال الفكر في كثرة الجمل وإدراك معانيها .

أما أبو حفص فانه من أصحاب الأطناب ، الذين يميلون الى قرع الأسماع بنغمات البلاغة في كثرة الجمل وتعاقبها على المعنى الواحد . وهذا كثير في نثره ، وربما كان ميالا الى زينة اللفظ أكثر من ذكر المعاني . ولكنه في جملته حسن الديباجة ، وأسلوبه من أحسن ما يكون في نوعه

والظاهر انه كان يعشق هذا الأسلوب . فان نثره يكاد يكون كله من هذا النوع مفصلاً ، جملاً ، جملاً ، وكأنما كل جملة مستقلة عما قبلها وما بعدها ، كالحكم والأمثال .^١ وله كثير من النثر الصناعي المتكلف ، وكأنه ضرب من اللعب بالألفاظ والعبث بصناعة الكلام.^٢

وليس أدل على التكلف من مثل هذا الكلام ، ولا أغرب من هذه الأساليب التي يحسبونها من سعة الخيال وغنى اللغة . على أن ذلك لا يخلو أحيانا من أثر في النفس ونغمة لذيذة في السمع . تمرر النسيم العليل . كقوله في الاستزارة .

١ من ذلك قوله في وصف القلم والمداد والكتاب . ويقولون انه أول من ابتكر الكتابة في هذا الموضوع . المداد كالبحر . والقلم كالقواس . والألفاظ كالجرهر . والقرطاس كالسلك والدواة كالقلب . والقلم خادم له . ما أعجب شأن القلم يشرب ظلمة . ويلفظ نوراً
٢ كقوله : أظلم لي جو صفائك . وتوعرت على أرض أخائك ... فليت شعري ما الذي أنسى مهجة الود . وأذبل زهرة ذلك المهد ... وان رغم أنف القلم ، واتزوت أحشاء القرطاس ... الخ

« اليوم يوم بكت أمطاره .. وضحكت أزهاره . وتقنعت شمس . وتعطر نسيمه . وعندنا بلبل أزج وساق غنّج . وسُلافتنا سلافة أخذان . وسلافة دنان قد تشاركنا في الطباع . وازد وجنا في اثاره السرور . فخرق الينا مرادق الدجى . تجد مرأى لا يحسن الا لك . ولا يتم الا بك . الزيارة بالليل أخفى . وبالزائر والمزور أخفى . وقد سدل حجابيه . ووقع قرابه . وتبرقت نجومه بفيومه . وتلفعت كواكبه بسحائبه . فاهتك الينا سترأ . وخض الينا بجرأ ... »

ومن هذه الاساليب الفنية فصول كتبها في تفضيل الورد على غيره من الازهار وقالوا انه مخترع هذا النوع، وأول من كتب في هذا الموضوع

١ وقد عارضه في هذه الرسالة الأديب أبو الوليد اسماعيل بن محمد المعروف بحبيب . وكان أبو الوليد حبيب هذا من المتأخرين بالكتابة في زمنه ، أديباً مشهوداً له بالفضل . تلميذا لابن الأثير أحد شعراء المعتزدين بن عباد ، وقالوا انه كان وهو ابن سبع عشرة سنة ينظم النظم الغائق، وينثر النثر الرائق، واستوزره جد المتمدن بن عباد وكان يصنف الى مقالته ويرضى بفعله ، وهو ما جاوز العشرين (نفع الطيب طبع أوروبا جزء ٢ صفحة ٢٩٠) وكان شاعراً أكثر شعراً في الازهار ولم يذكر ابن بسام من رسالته التي عارض بها ابن بزد الا صفر الا طرفاً صغيراً . قال فيه «وأما رسالة أبي الوليد فخطب بها المتمدن يومئذ قال فيها: فأول من رأى نور ذلك الكتاب وعين الخطاب . نواير فصل الربيع . هي خيرة الورد في الوطن . وسعابتها في الزمن . ولما أن قرأته أنكرت ما فيه . وبنيت على هدم مبانيه ، ونقد معانيه . وعرفت الورد بما عليه فيما نسب اليه . من استحقاقه مالا يستحقه . واستثماله مالا يستأمله ، وعلمت ان مخاطبته من أخطأ تلك الخطيئة وأدنى من نفسه تلك الدنيئة ، تدبير دبرى . ورأى غير مرضى ، فكتبت الى الاخوه والحيرى الاصفر كتاباً . قالت فيه لو استحق الورد امامة : واستوجب خلافة . لبادرتها آباؤنا ولعقدها أوائلنا التي لم تزل تجاوره في مكانه . وتجيء في أوامه ، ولا ندرى لاي شيء أوجبت تقديمه . ورأت تأهيله . بما غيره أشكل له وأحق به ، وهو نور البهار والبادى فضله بدؤ النهار . والذي لم يزل عند علماء الشعراء وحكماء البلغاء ، مشبها بالعيون التي لا يحول نظرها . ولا يحور حورها . وأفضل تشبيه الورد بحمرة الخند عند من تشيع فيه . وأشرف الحواس العين اذ هي على كل متول عون وليس الخند حاسة فكيف تبلغه رئاسة

أين الحدود من العيون نفاسة ورئاسة لولا القياس الفاسد وأصح تشبيه الورد وأقربه من الحق ، قول ابن الرومي في الشعر الطائى . ولقد وافق ووفق وشبهه لحق « وطول أبو الوليد في رسالته هذه وختما بمبايعة الازهار البهار ورجع عن تقديم الورد في خبر طويل

أما رسالته في ذلك فهي رسالة نادرة في موضوعها وأسلوبها، تدل على سعة خيال كاتبها ، وحسن ذوقه في اختيار الألفاظ ومعرفة مواقع الكلام، وأنه كان من الكتاب الذين يميلون الى الأساليب القصصية . وربما لم يكن لهذه الأساليب نظير في بلاغة المشرق ، لأن أهل الأندلس هم الذين اخترعوا الكلام في الأزهار على هذا النحو .

تصور ابن بُرْد أن الأزهار والرياحين قد اجتمعت في مجلس واحد، وقام أحدها يتكلم ويخطب بين أبناء جنسه . وقد دل الكلام على عقل الكاتب وأنه من أصحاب المعتقدات ، أو أنه في كلامه هذا يمثل ميول العقول في عصره . وذلك أنه افتتح كلامه بما يشبه الحمد أو ما يشبه التفكير في الوجود والمخلوقات فقال : « ان صنوفا من الرياحين ، وأجناساً من البساقين ، جمعها في بعض الأزمنة خاطر خطر بنفوسها ، وهاجس هجس في ضمائرهما لم يكن له بد من التفاوض فيه ، والتحاور والتحاكم من أجله والتناصف . وأجمعت على ان ما ثبت في ذلك من العهد ، ونفذ من التحالف ماض على ما غاب شحه ولم يأن منها وقته فقام منها قائمها فقال : يامعشر الشجر ، وعامة الزهر، ان الله تعالى لطيف خبير ، خلق المخلوقات البريات ، بآيّن بين أشكالها وصفاتها ، وباعد بين منحها وأعطياتها ، فجعل عبداً وملكاً، وخلق قبيحاً وحسنّاً، فضل بعضاً على بعض، حتى اعتدل ببدله السكل ، واتصل على لطف قدرته الجميع ، وان لسكل واحد منها جمالا في صورته ، ورقّة في محاسنه ، واعتدالا في قده، وعبقا في نسيه ومائية في ديباجته»

ثم تطرق من ذلك الى الكلام في الزهور وما لها ، وما اختصت به من الجمال والمنزلة في الاجتماع ونفوس الناس فقال :

« وقد عظفت علينا الأعين ، وثنت الينا الأنفس ، وزهت بحاضرنا

المجالس ، حتى سفرنا بين الأحبة ، فوصلنا أسباب القلوب ، وتجملنا لطائف
الرسائل ، وصيغ فينا القريض ، وركبت على محاسننا الأعاريض »

ثم عمل على نقد الصفات والأخلاق الغير المحمودودة بقوله
« فظفح بنا العجب ، وأزدهى بنا السكر ، وحملنا تفضيل من فضلنا ،
رائثار من آثرنا ، على ان نسيم الفسك في أمرنا والتمهيد بمواقبنا ، والتطبيب
لأخبارنا »

وقد اقتبس ذلك من أخلاق الانسان . وهى طريقة جميع أصحاب الأمثال
والأساطير ، الذين يتكلمون على السنة الحيوان أو النبات . ولكن الظاهر ان
الكاتب لم يكن يقصد بذلك الا الوصف أو سمة الخيال ، لا العبرة والعظة . غير
ان هذا باب من أبواب الأساليب الاجتماعية ، أو القرينة من ذلك وخروج من
الدائرة المعروفة ، دائرة الرسائل والمكاتبات ، ودليل على رقى الفكر ، وترك
القديم ، وباب جديد من أبواب المنشور ، الذى يدخل منه الكتاب الى القصص
والحكايات

ثم أخذ بعد ذلك فى تفضيل الورد وبيان مزاياه . فقال :
« وادعينا الفضل بأسره ، والكمال بأجمعه ، ولم نعلم ان فينا من له المزية علينا ،
ومن هو أولى بالرئاسة منا : وهو الورد ، الذى ان بذلنا الانصاف من أنفسنا ، ولم
نسبح فى بحر عمانا ، ولم نعل مع هوانا ، دنّا له ، ودعونا اليه ، فن لقيه منا حياء
بالمك ، ومن لم يدركه زمن سلطانه ، ودولة أوانه ، اعتقد ما عقد عليه ، وولى ما دعا
اليه ، فهو الأكرم حسبا ، والأشرف زمنا ، ان فقد عينه ، لم يفقد أثره ، أو غاب
شخصه لم يغب عرفه ، وهو أحمر ، والحرمة لون الدم ، والدم صديق الروح ، وهو
الياقوت المنضد ، فى أطباق الزبرجد ، وعليها فوائد المسجد ، والأشعار من
محاسنه حسنت ، وباعتدال جماله وزنت »

وقد دل على أوصاف الكمال التي في الورد ، وأخذ ينمقها بدقة أسلوبه ومهارته. ثم استرسل في الكلام على هذا النمط ، وذكر أنواعاً أخرى من الزهر وانطقها بالكلام . فقال :

« وكان ممن حضر هذا المجلس ، من رؤساء الأنوار والأزهار ، النرجس الأصفر ، والبهار والبنفسج ، والخيزري النمام . فقال النرجس الأصفر والذي مهد لي حجر الثرى ، وأرضعني ثدى الحيا ، لقد جئت بها أوضح من لبة الصباح ، وأسطع من لسان المصباح ، ولقد كنت أسير من التعب له ، والشغف به . والأسف على تماقب الموت دون لقائه ، ما أنحل جسدي ، ويمكن سقي ، واذ قد أمكن الهوج بالشكوى ، فقد خف ثقل البلوى . ثم قام البنفسج فقال على الخبير سقطت ، أنا والله المتعب له ، والداعي إليه ، المشغوف به ، وكفى ما بوجهي من ندوب ، ولكن الناسى بك آنس . ثم قام البهار فقال : لا تنظروا إلى غضارة منبى ، ونضارة رونقي ، وانظروا إلى وقد صرت حدقة باهتة تشير إليه ، وعينا شاخصة تندى بكاء عليه

ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي
ثم قام الخيزري فقال: والذي أعطاه الفضل دوني ، ومد له بالبيعه يميني ، ما اجترأت قط اجلالا له واستحياء منه ، على أن أتنفس نهارا ، أو أساعد في لذة صديقا أو جارا ، فلذلك جعلت الليل سترا ، واتخذت حوائجه كنّا » وجعلها تتناقش وتتنافس . ثم تم بعد ذلك اتفاقها في مجلس عام ، وكتبت بذلك صكا اعترافتها بفضل الورد، واطاعته. وجعلته رئيساً لها، نطيع أمره ونخضع له، فقال:
« فلما استوت آراؤها، قالت ان لنا أصحابا، وأشكالا وأترابا، لا نلتقي بهافي زمن، ولا نجاورهافي وطن فهلم فلنكتب بذلك عقدا، ينفذ على الاقصى والاداني فكتب رُقعة، ونسختها: هذا ما تحالفت عليه أصناف الشجر ، وضروب الزهر،

وسميتها وشتويها ربيعها وقظيها، ما نجمت من تلمعة أو ربوة، وتفتحت من قرارة
أو حديقة، عند ما راجعت من بصائرهما، وألمت من مراشدها، واعترفت بما
سلف من هفواتها، وأعطت للورد قيادها، وملكته أمرها، وعرفت أنه أميرها المقدم
لخصاله فيها، والمؤمر لسوابقه عليها، واعتقدت له السمع والطاعة، والتزمت له الرقة
والعبودية، وبرئت من كل زهر نازعه المباهاة له، والانتداء عليه في كل وطن، ومع
كل زمن. فانه زهرة قضى عليها لسان الأيام هذا الحلف، فلتعرف ان ارشادها
فيه، وقوام أمرها به »

ذلك من الأساليب الجديدة في اللغة العربية، وليس أدل على سعة الخيال
ومتانة البلاغة ورقى الآداب من هذه الأساليب القصصية. لان كل أدب أو
بلاغة لا تحتوى على القصص وتمثل وتبين نفوس الكتاب وغيرها من
الأسرار الانسانية، التي لا تظهر الا في مثل هذه الموضوعات، تكون آداباً ناقصة
أو بلاغة مقصورة على كتابها وشعرائها. ولا تكون هذه الأساليب الا في أمة تربت
أخيلتها وعقولها تربية عامية فنية. ولقد ظهرت بوادر ذلك في بلاد الأندلس
عند بعض الكتاب، وخصوصاً في القرن الخامس حيث انفتحت أمام العقول
أبواب من الخيال، بسبب ما وجد هناك من الترف والبذخ وأبهة الملك. ولقد
كان هذا الباب الذي ولجه الكتاب في الأندلس يصل بهم الى طريق جديد
لم يسلكه كتاب العرب في المشرق، غير ان هذا الابتداء لم يستمر، ولم يجد له
أنصاراً كثيرين، لعدم اعتيادهم هذا النوع من الكتابة، ولان الكتاب والادباء
لم يقسّم لهم بعد اقتباس هذه الأساليب القصصية. فكانوا يحتاجون الى زمن
طويل لصقلها في عقولهم والتعود على فهمها. ولقد كان أيضاً من الأسباب التي لم
تدفع الكتاب الى السير في هذا الطريق ان الدولة لم تدم طويلاً، والملوك الأدباء
ابتدؤا يختفون وقت ظهور هذا الأسلوب.

ويلاحظ ان هذا الأسلوب القصصى بدأ يظهر بشكل خيالى أكثر منه بالحقائق التى تلمس النفوس . وكان لا بد أن يبتدئ بذلك لدى أمة ليس لها عهد بهذا . وقد كانوا يريدون الدخول فى الموضوعات الاجتماعية، فلم يجدوا أمامهم نماذج يفتقون أثرها ، غير ما ابتكره أبو العلاء فى رسالة الغفران من جمع الأدباء والمناقشة مع بعضهم بعضاً فى مسائل اللغة والأدب . ولكن يظهر من كثير من المكاتبات والرسائل أن الأسلوب القصصى كان يتسرب اليها شيئاً فشيئاً، وأن رسائل العتاب وغيرها تحتوي على كثير من الملاحظات الفكرية المتصلة بأحوال الناس والاجتماع. وهذا على ضعفه وقلته يعد من الأطوار التى تخطاها النثر فى اللغة العربية. وكل ذلك يدل على تحرك العقول وميلها الى حب الجديد. والأساليب التى كتب بها هؤلاء الكتاب. أساليب حسنة التركيب، جميلة العبارات، تدل على ابتكار الكاتب وشدة عارضته. وانه وجه من وجوه الأدباء فى ذلك العصر .

وقد كان ابن برد شاعراً أيضاً، وربما كان شعره أفضل من نثره ، لانه ميال الى الصناعة فى الكلام ،، والصناعة أمراً على النفس فى الشعر منها فى النثر وكل شعره أو جله قطع صغيرة فى الغزل . وشعره خفيف الروح ، عذب التذوق كأنه نغمات موسيقية ، أو فكاهات أو مسامرات . وله معانى ظريفة أخذها ونصيدها ونظمها ، وألبسها لباساً من صناعته . كقوله .

أبدأ فأتى بعتب دون أن آتى بجُرم
بيننا فى الحب قربى سقمُ عينيك وجِسْمى^١
ومن قوله

يا كثير الجفاء إلى ومُضِيعاً وسائلي
طال حَيِّى ولم تفز منك نفسى بِطائل

١ قال ابن بسام وهذا كقول ابن الرومى
يا عليلاً جعل الملة متاعاً لستمى ليس فى الأرض عليل غير جنيتك وجسمى

أنتَ إلى هاجرٍ وإن كنتَ في ثوبٍ واصلِي

أنتَ إن ررْتَ منْهلاً كانَ أحلى مناهِلي

وجرى خياله في هذه المعاني شوطاً بعيداً ، وأخذ يتصيد ما فيها ويشه في

كلامه وشعره : كطيب ريح فم الحبيب ، واحترق فؤاده بنار الحب ، وغرقه في

دموعه . وله أبيات رقيقة في وزنها وقافيتها من الشعر المرقص الخفيف على النفس ،

الذي تليق قراءته بخفة وزنه ونغاته الموسيقية أكثر مما فيه من المعاني التي هي

معروفة لكل عاشق . كقوله :

بخداع علَّلوه وبهجر وصلَّوه

لم يُبالوا يوم صد أي وجد حلوه

أخرجوه من محل للتسلى أدخلوه

بلغت منه الاعادى أي شيء أملوه

رُبَّ سترٍ للتصاني فوقه قد سلاوه

كلما سقوه كأساً أنركأس قبلوه

وهلال بشرى بنجوم كَلَّلوه

في بهيم من ظلام بسناه أخجلوه

نشطوه ثم لما لان عطفا نبطوه

عزلوه عن وصال حسداً ثم ولَّوه

أنما حبي فيكم مثلاً قد أرسلوه

وقال ابن بسام انه أخذ هذا الوزن والروى من قطعة لشاعر من شعراء

بغداد . وهكذا كان يسطو على المعاني وينظمها وعلى خيالات غيره وينسجها

على منواله . كقوله في معنى معروف .

والبدر كالموآة غير صقلها عبث العذارى فيه بالأنفاس
والليل ملتبس بضوء صباحه مثل التباس النقش بالقرطاس
فكان في كل شعره يميل الى زينة اللفظ والتشبيهات البديعة ككثير من الشعراء
مثل قوله :

سقاني وجفن الليل يغسل كحلته بماء الصباح والنسيم رقيق
مذابا كذوب التبر أما بخارها فضخم وأما جسها فرقيق
وكل شعره من هذا النوع وهو من الخيال الصرف يقلد المعاني ويضعها في
أوزان العروض ، غير ان هذا لا يحط من قدره ولا يغط من حقه في ميله الى
قول الشعر وذوقه الفني . وله قصائد ذكرها صاحب الذخيرة في الجزء الأول

الأعمى التطيلي^(١)

عاش أبو جعفر أحمد بن عبد الله الأعمى التطيلي في أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس وكان من أشهر الأدباء في عصره^٢
أما نثره فهو نثر مسجوع من طبقة النثر الممتاز بسهولة العبارة وجودتها ووضوحها ، وعدم التعمق في البحث عن الجمل والألفاظ مع حسن الاختيار والافتنان وأشعار القارئ بأن للكاتب روحاً تدب ديباً بين جملة وألفاظه ، وإن له قوة يظهر أثرها في تلاوة كلامه .
وأما معانيه فأقل ما فيها أنك تراه يحاول ألا يقتصر على اختيار اللفظ

١ تطيله بالضم ثم الكسر وياء ساكنة مدينة بالاندلس في شرق قرطبة (راجع معجم باقوت) وهو معروف بالأعمى التطيلي نفع الطيب ج ٢ ص ٢٣٥ وفي القلائد والذخيرة التطيلي
٢ لم نقف له على ترجمة وافية . وقد حملنا على ذكره شهرته وماله في عالم الادب . وقد مدحه الادباء كما دثهم في كتبهم عند الكلام على الكتاب والشعراء فقال عنه ابن بسام :
له أدب بارع . ونظر في غامضه ولمع . وفهم لا يجارى . وذهن لا يبارى . ونظم كالسحر الحلال . ونثر كالماء الزلال

وقالوا عنه انه نظم أخبار الامم المختلفة في لبة القريش . وعبارة الذخيرة شكاد تكون هي بعينها عبارة القلائد . ولست أدري أيهما أخذ عن الآخر لان الفتح بن خاقان وابن بسام عاشا في عصر واحد (فقد مات ابن بسام في سنة ٥٤٢ ومات الفتح سنة ٥٣٢ أو ٥٢٩) والظاهر ان عبارة قلائد العتيان كانت أشهر لان الضبي صاحب كتاب « بنية الملتبس في رجال أهل الاندلس » أشار إليها بل ذكرها ولكنه نسبها الى المطمح فأخطأ في هذه النسبة . لانها ذكرت في قلائد العتيان . واختصر الضبي على عبارة الفتح بعد ان أوجزها وأورد له شيئاً من شعره الاستدلال على فضلته . ولقد نبهنا هذا الاسلوب الى صعوبة دراسة كثير من الكتاب والشعراء الذين لم يمس أصحاب التراجم والادباء بالكلام عنهم . ولم أجد عن الاعمى التطيلي هذا شيئاً في ابن خلكان ولا في فوات الوفيات ولم يتكلم عنه القرى في نفع الطيب بما يدل على شيء من حياته . لذلك تقتصر على شيء من ذكر منظومه ومنثوره والكلام على ذلك

وبلاغة العبارة . بل يريد أن يكشف شيئاً من أحوال النفوس ، ويضم ذلك الى جمال القول وبهجة المعاني . لذلك تجده في رسائله ينتقل من معنى الى آخر ، ويتكلم عن نفسه وغيره ، ويذكر المعنى العام والخاص ، ويتواضع ويفخر ، ويتعجب ويتكبر ، ويستصغر نفسه ويستكبرها . كل ذلك في رسائل يرسلها في العتب أو التقرب أو الشكوى . وقد كان هذا هو الميدان الوحيد الذى يجوب فيه الكتاب ويظهرون خفايا نفوسهم ، وينشرون على العالم مطويات أفكارهم . وكانت نوع الرسائل كل ما يعرفونه من أساليب الكتابة لبث شكواهم ، والتعبير عن آرائهم الشخصية . وكأنما هناك حجاز منيع بينهم وبين العالم الخارجى . فاذا تكلم أحدهم لا يتكلم الا عن نفسه ، واذا شكى لا يشكو الا آلامه ، واذا مدح مدح لحصوله على خير ، واذا ذم ذم لوقوعه فى شر ، واذا وصف وصف ما يحيط به لا غير . ويكفى دليلاً على ذلك ان أنواع النثر عندهم انحصرت أو كادت تنحصر فى كتابة الرسائل الأخوية ، وان هذه كانت الصبغة الغالبة على النثر ، التى امتلأت بها بطون الكتب الأدبية . ولا يكاد يعثر الانسان على رسالة من نوع آخر . غير ان هذه الرسائل القصيرة وان خلت من معان اجتماعية عامة ، فانها مملوءة بنماذج الأساليب العربية البديعة ، والعبارات البليغة ، والأمثال الحكيمة ، والتراكيب المتنينة ، والأفكار الناضجة ، وصور نفوس الكتاب ، ودقة ادراكهم وجل معلوماتهم . وهذه رسالة صغيرة فى العتاب للتطيل :

« شاكرك أو شاكيك ، بل لائمتك ولائمت الأيام فيك ، ياسيدى كناية عن ذكره ، لا توخياً لبره ، وأخى رغبة فى انصافه ، لا طمعاً فى استعطافه ، الذى عاطيته كأس الوداد فأمرّها ، ورفعت اليه بنت الوداد فأضر بها وأضرها ، ومن أطال الله بقاءه ممتعا بظل السلطان ، واقبال الزمان . فإن الرجل بسلطانه ، لا باخوانه ، وباقبال زمانه لا باحسانه . انى أعزك الله وان كان الدهر وضعنى ورفمك ، وضاق

عنى ووسعك ، فبين جنبيّ نفس عصام ، وبين فكيّ صارمٌ بسطام
«الشجو شجوى والعويل عويل» لا أستعير عينا للبكاء ، ولا أبتغى بكبدي كبدًا
سليمة من الارزاء . وانك أعزك الله لما تكلمت بلسان سهل بن هارون ، وجلست
بجلس الفضل من المأمون ، وخدمك الدهر ، وانثالت في يدك الأنجم الزهر ،
قلت احم وعلى ، وان لم يكن فشيء وري . وعلى رسلك ، ما كنت أنا لفظ في مثلك ،
انى أبيت طيّان ، ولا أبيت .. ، واحتمل الحرمان . ولا أحتمل الهوان ،
وليت هذا الأمر وقلبك بي معبور ، وأنت بزعمك لى فقير ، وأنا أظن انى
سأولىّ وأعزّل ، وأحدث فى كنفك وأعدل ، فاهو الآن ثبتت قدمك ، وخفق
علمك ، وابتل قرطاسك وقلبك ، اختصرت شطر الاسلام^١ ، ودفعت فى صدر
القيام ، عزلت فلانا قبل الولاية ، واقتصرت بأبى الأصبع دون الغاية . هينة أنا
كنت معناها ، وكاس لى شعثت حياها . وولايتك خطر وفى علمك نظر ،
انما هو ظل غمامة ، وبيض حمامة . ثم تعود الى استحلاش البيت ، وأكل الخبز
بالزيت .

وقال فى رسالة أخرى :

«ولم أزل منذ تخيل جنائى ، وتقول لسانى ، وأدبر ملكي او شيطاني ،
ألتبس من أهل هذا الشأن ، ما أسعى باسمه ، وأحفل وأقيس على حكمه ، وأقل
وأحل ... وأعقد ، والناس كثير ، والناقد بصير ، والأمر أعجاز
وصدور . فكيف ترانى اتخذتك خليلا ، وأخذتك على الأيام عهداً مستولا ،
وباعتك على الطاعة والسمع ، وشايعتك سرى الاستطاعة والوسع ، ففعلت
عليك كعبة أولّى وجهي شطرها ، وأسندت اليك هضبة أرعى سوامى وعرها ،
لا كون قد قدرت هذه الطاعة قدرها ، وأبلغت نفسى فى طلبها والتعلق بسببها . الخ»

١ هكذا فى الاصل

اما نظمته في بعض قصائده كلام من الشعر الممتع ، مع طول لا يمل ،
وأراء تدل على فكر جوال وعقل ناضج . وكأنه حكيم يتكلم أو ينظم
الحكم . وهو مع ذلك شاعر بليغ متقن ، عالم بأساليب النظم البليغ والاسلوب
الخطابي ، الذي يجذب الاسماع والقلوب ، ويملاها حكمة وعظمة ، واعجابا
وجالا . قال من قصيدة في المدح

عتاب على الدنيا وقلَّ عتابُ	رضينا بما ترضى ونحن غضابُ
وقالت وأصغينا الى زورِ قولها	وقديستفدُ القول وهو كذابُ
وعمت على أبصارنا وقلوبنا	فطال عليها الخومُ وهي سرابُ
ودانت لها أهواؤنا وعقولنا .	وهل عندها إلا المناء ثوابُ
نلَّذُّ ونلهو والأعزة حولنا	رفاة ونبسئى والديار خرابُ
ويخدعنا عسايرُ ادُّ بنا منى	لبحر المنايا دونهن عبابُ
ونغتسم الأيام وهي مصائب	لهن عليها جيثة وذهابُ
بككت هندنم ضحك المشيب بمفرق	أما علمت أن الشباب خضابُ
وقالت غراب ما أرى وتجاهلت	وليس على وجه النهار نقابُ
هل الشيب الا الرشد حل غوايتي	فأصبحت لا يخفى على صوابُ
أأعفو لصرف الدهر عن هفواته	على حين لا يأتى على عقابُ
وأتركه يمضى على غُلُوَّاته	وقد عز اعتاب وطال عتابُ
أينضب حسادى قيامى الى العلا	وقد قعدوا عما ظفرت وخابوا
هم حسدونى لالوفر وفِرتة	ولكن شهدت المكرمات وغيوا

وما أجهل مدحه في هذه القصيدة ، فقد يرى الانسان فيها المدوح وعظمته
وسمو قدره ، وقد يصرفه جمال القول وسبك العبارات وبلاغة الكلام عمدا
في الشعر من المبالغة . بل قد يتجه فكره الى تذوق المعانى . وليس أبلى ولا

أشرف من انسان يتصف بهذه الصفات . ولا أشعر من شاعر يحمل القراء على
صدق قوله ببلاغة كلامه وحسن أسلوبه . اذ يقول :

سجايأ على مر الليالى كأنما هى المزن فيها رحمة وعذاب
موارد فيها سم كل معاند ولكنها للمستفيد عذاب
مخوفتى ريب الزمان وقد حدث برجلى الى ابن الحضرمى ركاب
اذا الله سنى لى لقاء محمد تفتح دونى للسماحة باب
فتى لم تسافر عنه آمال آمل وكان لها الا اليه اياب
له همم فى الجود والبأس لم تزل لها فوق أتياح النجوم قباب
وأقسم لولا ماله من مآثر لأصبح ربع المجد وهو يباب

ولقد تدب فى نفسه صناعة الشعر ، وتلعب برأسه ، كما تلعب الكأس ،
فيشمل ويقول فيشمل السامع معه ، وكأنه يترنح من صدق قوله ، والسامع يترنح
معه من عنوبة هذا المقال :

وهل أنا الا' عبد أنعمك التى هى الشهد اذ كلُّ الموارد صابُ
وهل شهد المجد الذى أنت سره فانك بجرئ والكرام عياب
وهل أنا يارضوان باسك هاتف وهل لى الى دار المقامة باب
اذا قايسوك المجد كنت غضنفرأ اذا زار لم يثبت عليه ذئاب
وما أحمر الا من صيالك معرك ولا أخضر الا من نذاك ثياب

وما أقدره عل طول الكلام، وأصبره على الجرى وراء المعانى حتى يدركها .
ولقد مدح الوزير أبا الحزم ، فعرف كيف يمدح الوزراء . وبدأ قصيدته بشئ من
الغزل ، ولكنه غزل غير مبتذل ، وأسلوب عشقى غير ظاهر فيه السطو على
المعانى ، وكأنما هو من مبتكراته، على أنها معانى غيره ، وأسلوب سواه . كما قال

غداة وقفنا نقسم الشوق بيننا على ما اشترطنا وانقضت سنة القسم
وقد اطلمت تلك الهواجر أنجما تركن جفوني في الكرى أسوة النجم
فأبت بدمعى لؤلؤا فوق نحرها وآبت بما في مقتلتيها من السقم
خليلي هل بعد المشيب تلمة لدى الجهل أو في الحب شغل لدى العلم
وهل راجع عيش لمسنه أنفاً كيوم لزيد في بيوت بني حزم
وهل لي حظ من موأاة صاحب له قدرة القاضى وموعدة الخضم
بدت رقة الشكوى على عطفاته وربتك في أعطافه قسوة الظلم
ثم أخذ في المدح بما يحمل القارئ على الاهتمام بالكلام وكأنه قيل فيه أو
أو كأنه كلام لم يسمعه . وليس ذلك لحسن الاسلوب وجماله لا غير ، بل لأن
الشاعر يعنى بذلك ، حتى يحمل القارئ على الاهتمام بما يقول . كما قال :

أبا جعفر هذى المكارم والعلا دعاءً بحق أو دعاء على غنم
أرى الناس قد باعوا المروءة فاشتر وقد ضيعوا ما كان من حسب غنم
وأنت أحق الناس بالحزم فأنته وحق العلا بالمال أشبه بالحزم
وأنت بعيد الهم مقترب الجدى كريم السجايا ماجد الخلال والعم
وأحنى بالباب الرجال من الهوى وأخفى وراء الحادثات من الدهر
وأحمى لحوزات المعالي من الردى وأسخر بآمال النفوس من الحلم
وكل قصائده في المدح متينة جميلة (راجع الكلام عنه في الجزء الثانى من
الذخيرة) وربما كان في رثائه أسجل منه في مدحه . كقوله في قصيدة تشبه
قصيدة مالك بن الربيع وكأنه ملهم بأبياتها

على مثلها فلتبك ان كنت باكيا فقد عهد الاجاب الا تلاقيا
أفى كل يوم أودع الارض صاحباً أريق به في الترب ماء شبابيا
وأحسب أنى لورجوت مكانه يعز عليه أن يكون مكانيا

ولو أننى أحببته الحب كله لأتبعته نفسى وأهلى وماليا
 خليلى من يطعم بشئ فأننى نفضت به لا بل نفضت فؤاديا
 وليس حياى غير شجوى مرّددٍ عهدت له الا ألد حياتيا
 . وهذه القصيدة هى تقليد للشعر القديم المعروف ولكنها جميلة فى بابها تدل
 على ذوقه وحسن سبكه فى التقليد

وله فى الغزل شعر يمتاز بطريقته وأسلوبه أكثر منه ببلاغته وجماله . فقد ساق
 قصيدة يتغزل فيها بفتاة تسمى لذينة جعلها حديثاً بينه وبين امرأة تحببه وتسليه
 وهذا الأسلوب ليس من الأساليب الشائعة عند العرب . وهو أشبه بالمناظرة
 بين عاشقين . وكأنما أراد أن يكشف فى حديثه عن نفس العاشق بما أودعه فى كلامه
 من الآراء ، وعما عسى أن يلاقى من الوسائل الناجحة بما فى آراء تلك الفتاة
 فقال :

لما التقينا وقد قيل المساء دنا	وغابت الشمس أو لاذت ولم تغب
وأضلى بين منقضى ومنقصف	وأدمى بين منهل ومنسكب
وأملّنى أم المجد قائمة	بمن أراك أسير الوجد والطرب
فقلت قلبى مسّنى وأنتك لو	كتمت سري لم أكتك كيف سبى
وأعرضت ثم قالت قد أسأت بنا	ظناً أيجمل هذا من ذوى الأدب
فقلت أنى امرؤ لما لقيتكم	والمرء وقف على الارزاء والنوب
سبت فؤادى ذات الخال قادرة	ولانصيب لها منه سوى النصب
ألهو بها رهى تلهو فى بلهنية	شتلن والله بين الجد واللعب
أصابك القلب لما ان رمته ولو	ولورمته أخرى إذن لا شك لم تُصب
فقلت اشكوا اليها مالقيت ولا	ترهب فلم تبلغ الآمال بالرهب
عسى هواك سيّديها فينصبها	وقديكوب الهوى أعدى من الجرب

قفلت أعظمها بل ما أكلمها الا أشار الى الموت من كُثْب
 قالت أنا أنولى ذاك في لَطَف فقد أؤلف بين الماء واللهب
 قفلت مثلك من يرجى لمعضلة لازلت في غبطة ممتدة الطُّنْب
 صليه أو فاقتليه فالحمام له خير من الهجر في جهد وفي تعب
 فلو ترأى قد استسامت مرتقبا منها حنان الرضا أو جفوة الغضب
 حتى اذا ما ألانت تلك جانبها والقلب مها أرم تسكينه يَجُوب
 طفقت أَلَمْ كفيها وقد جنحت اليك تضحك بين العجب والعجب
 لله مثلى ما أدنى سجيته من المعالي وأناها عن الريب
 كم مأثم مستلذ قد هممت به فلم يدعنى له ديني ولا حسبي

ولقد ينظم الكلام المعروف فيغير من صبغته في النفس ، ومن معناه في
 الفؤاد ، فيكون جديداً لان روح الشاعر غالبية على معانيه . كما في كلامه عن
 لذيذة حبيبته . وله أبيات حكيمة بثها مدحه كقوله :

كم مقلّة ذهبت في العى مذهبا بنظرة هي شان أولها شان
 رهن بأضغاث أحلام اذا هجعت وربما حلت والمرء يقظان
 فانظر بعقلك ان العين كاذبة واسمع بقلبك ان السمع خوان
 ولا تقل كل ذى عين له نظر ان الرعاة ترى ما لا ترى الضان
 دع الغنى لرجال ينصتون له ان الغنى لفضول الهم ميزان
 واخلع لبوسك من شح ومن أمل لا يقطع السبق الا وهو عريان
 وصاحب لم أزل منه على خطر كأننى علم غيب وهو حسان
 أغراه حظ توخاه وأخطأنى اما درى ان بعض الرزق حرمان
 وغره ان رآه قد تقدمنى كما تقدم باسم الله عنوان
 ولقد ينظم الحكم والعبر في كلامه فتجده حكيما وشاعرا معا . كقوله :

تنافس الناس في الدنيا وقد علموا ان سوف يقتلهم لذاتها بدلا
قل للمحدث عن لقمان اوليد لم يترك الدهر لقمانا ولا لبدا
وللنذى هم البنيان يرفعه ان الردى لم يغادر في الثرى احدا
ما لابن آدم لا تقى مطالبه يرجو غدا وغسى أن لا يعيش غدا

١ ووصف سدا يمج ماء من فـه
أسد ولو أنى أنا قشه الحساب لقلت صخره
وكأنه أسد السما • يمج من فيه المجره
ومن قوله في الحكمة
واداعجت من الزمان لحادث فتسابع يبكى على متبوع
واذا اعتبرت العمر فهو ظلامه والموت منها موضع التوقيع
(راجع بفيه الملتبس للضي صـ ١٨٦)
وقالوا انه اجتمع مع كثير من الادباء فبرز عليهم في موشعته التي يقول فيها
ضاحك عن جان سافر عن يدر ضاق عنه الزمان وحواه صدرى

ابن عبدون^(١)

كان ابن عبدون كاتباً ناثراً وشاعراً بليغاً . أما نثره فهو نثر أدباء عصره : كلام أشبه بالنظم منه بالسجع ، أو سجع مُتَعَمِّلٌ غير ظاهر فيه التكلف ، إذا قيس بغيره أو عورض بسواه ، أو معنى قصير في سلسلة من ألفاظ طويلة ، أو هو من نوع البراعة في الاحاطة باللغة وتنسيق الألفاظ ، أو ضرب من الافتنان الدقيق في اخفاء ابتدال الموضوعات والمعاني المعروفة تحت ستار من الصناعة . ولقد ينجح الى الناقد ان الكتاب في ذلك العصر كان يقلد بعضهم بعضاً ، وان هذه هي الصفات التي تظهر فيها ميزة الكاتب ، وانه لا فضل لمن اكتسب هذه الملكة بكثرة ما يقرأ ويعلم من أساليب معاصريه ومعانيمهم . ولقد يظهر لنا ان هؤلاء الكتاب والشعراء سائرون في طريق واحد متشابه الارحاء والنواحي ، وأنهم يضربون على نفمة واحدة ، من حيث الكلام في الموضوعات المعروفة لهم ، وانه ليس لأحدهم فضل في غير الانفراد بالأسلوب واختيار الألفاظ واتباع

١ عاش ذو الوزارتين أبو محمد عبد المجيد بن عبدون في أزهى عصر من عصور الادب زمن ملوك الطوائف . وعاشر أذكى ملوكهم وأعلمهم باللغة والادب والتاريخ وهم بنو الافطس الذين اشتهر علمهم وفضلهم وعرف حبهم للادباء وأكرامهم اياهم وكان كاتباً للمتوكل على الله بن المظفر وناهيك بمن يكون في حضرة هؤلاء ويكتب لهم وهم العلماء والشعراء . وقد قالوا عنه انه كان أعجوبة في النظم والنثر ، من كبار حفاظ اللغة والادب في وقته . ورووا عنه وعن قوة حفظه انه أديب الاندلس وامامها وسيدها في عالم الآداب وان أيسر محفوظاته كتاب الاغانى . ومهما بالفوا في نسبة هذا اليه فذلك يدل على مقدار معلوماته وقوة ذاكرته . وهو فهرى من أصل عربى وتوفى سنة ٥٢٠ هجرية مدة سلطة المرابطين وقد اتصل بعد سقوط ملوك الطوائف ييوسف بن تاشفين وكتب له ولابنه ..

الطرق التي يختارونها اقتفاء لآثار غيرهم . ولكن أليس من البراعة أن يشبه الكاتب جميع الكتاب ويعرف كيف يمتاز عنهم بمعانيه وأسلوبه ؟ إن العصر الذي يفص نالاً دباء لمن أشق العصور وأصعبها على الكتاب والشعراء الذي لا يمتازون بشيء في مواهبهم ، وحتى على الكبار منهم ، الذين يحملهم ذكاؤهم وقدرتهم على أن يمتازوا ويظهروا على معاصريهم . إن ميزة الصناعة الأدبية والافتنان لا يكونان في اختلاف الموضوعات والأسلوب لا غير ، بل ذلك شيء كامن في نفس الكاتب لا يظهر الا على شبا قلمه ولا تمليه قريحته الا لشخصه .

قد يظهر للقارئ أن الكتاب أو الشعراء يشبه أحدهم الآخر هذا يمدح ويذم ، ويمتدح ويمتدح ، وهذا يأخذ من لفظه ويسير على نهجه . ولكننا لنعدم أن نرى في خلال هذه الصحف المتشابهة عبارات ومعاني جديدة ، وأساليب تدل على شخصية الكتاب والشعراء في هذه الألفاظ . وقد نجد جملة واحدة أو كلمة واحدة يستريح اليها الفكر وتطمئن اليها النفس

ربما كان ابن عبدون من هؤلاء فان له رسائل طويلة أكثرها مملوءة بالألفاظ المعروفة ، والعبارات المأخوذة من كلام غيره والاطناب الذي يذهب بصبر القراء . وعلى الرغم من اعتباره من أكبر كتاب أهل زمانه ، ليس في كتاباته غير الطول الممل والسجع المتكلف^١ ولكن كان هذا الأسلوب من أفضل الأساليب . ولا ابن عبدون في أسلوبه أحياناً شبه بأسلوب ابن زيدون ، من ذكر الحوادث وأسماء الرجال^٢ أما شعره فأفضل من نثره . ومن قصائده القصيدة التي رثى فيها بني الأفطس وذكر فيها أشهر حوادث الملوك وأشهر الدول البائدة الى أيامه . وهي قصيدة ممتازة في أسلوبها ومعانيها . قد احتوت على كثير من المعاني الدقيقة والملاحظات العامة . بدأها بالنفجع والشكوى من الايام فقال :

١ ورسائله كثيرة في الذخيرة والمعجب ٢ راجع قلائد العقيان ص ١٤٨

الدهر يفجع بعد العين بالأنثر
 انهاك انهاك لا آلوك موعظة
 فالدهر حرب وأن أبدى مسالمة
 ولا هوادة بين الرأس تأخذه
 فلا تغرنك من دنياك نومتها
 ما ليلالى أقال الله عثرتها
 فى كل حين لها فى كل جارحة
 تسر بالشئ لكن كي تغربه
 فما البكاء على الأشباح والصور
 عن نومة بين ناب الليث والظفر
 والبيض والسود مثل البيض والسمر
 يد الضراب وبين الصارم الذكر
 فما سجية عينها سوى السهر
 من الليالى وخاتها يد الغير
 مناجراح وان زاغت عن النظر
 كالأيم نارالى الجانى من الزهر

ثم أخذ فى سرد أصحاب الدول البائدة والملوك الماضية فقال :

كم دولة وليت بالنصر خدمتها
 هوت بدار وفلّت غرب قاتله
 واسترجعت من بنى ساسان ما وهبت
 وألحقت أختها طسما وعاد على
 وما أقالت ذوى الهيئات من يمن
 ومرقت سبأ فى كل قاصية
 لم تبق منها وسل ذكراك من خبر
 وكان عضبا على الاملاك ذا أثر
 ولم تدع لبنى يونان من أثر
 عاد وجزهم منها ناقص المرر
 ولا أجارت ذوى الغايات من مضر
 فما التقى رائح منهم بمبتكر

والقسم الثالث منها وهو رثاء بنى المظفر أبلغها ، لما احتوى عليه من
 الموعظة ، والاعتبار والتذكير بالأيام الماضية ، أيام العز والمجد الرفيع . وفيها كثير
 من المعانى المبكرة التى خالف بها سنة الرثاء المعهودة . وفى هذا يقول :

بنى المظفر والأيام لا نزلت
 سحقا ليومكم يوما ولا حملت
 من للأسرة أو من للاعنة أو
 من للظباوعوالى الحظ قد عقدت
 مراحل والورى منها على سفر
 بمثله ليلة فى غابر العمر
 من للأسنة يهديها الى الثغر
 أطراف أسنها بالى والحصر

وطوقت بالمنايا السود يبيضهم فاعجب بذاك ومامنها سوى الذكر
 من للبراعة أو من للبراعة أو من للسماحة أو للنفع والضرر
 أو دفع كارثة أو ردع رادفة أوقع حادثة تمي على القدر
 وله شعر كأنه هو من مبتدعيه رقيق المعاني والحاشية . كقوله في مدح
 المتوكل.

وافاك من فلق الصباح تبسم وانجاب عن غسق الظلام نجم
 والليل ينعي بالأذان وقد شدا بالفجر طير البانة المترنم
 ودموع طل الليل تلحق أعيناً يرنو بها من ماء دجلة أرقم
 يصاحي بين الفرات ودجلة ودع علاقة مسعد ومنم
 وهو في مدحه من عشاق المتنبي وحفظة أسلوبه . ومع هذا التقليد ميزته
 ظاهرة وروحه جذابة في كلامه، جليلة في ان هذا له . كقوله يمدح أيضاً .

مضوا يظلمون الليل لا يلبسونه وان كان مسكي الجلابيب ضافيا
 يؤمون بيضا في الأكنة لم تزل قلوبهم جبا عليها جاجيا
 وأغربة الظلماء تنفض بينهم قوادما مبلولة والخوافيا
 اذا مرقوا من بطن ليل زقت بهم الى ظهر يوم عزمة هي ماهيا
 وان زعزعهم روعة زعزعوا الدجى اليها كماً تأ والرياح مذاكيا
 ولو انها ضلت لكان أمامها سنا عمر في فحة الليل هاديا
 وصلت بها الهيجا عليه وسلمت

همام أقام الحرب وهي قميدة وروى القنانيها وكانت صواديا
 ومن أساليبه في تقليد المتنبي قصيدته التي يقول فيها :

هيئات لا ابتغى منهم هوى بهوى حسبي أكون محبا غير محبوب
 فسا أراح لذكري غير مؤلة ولا ألد بحب دون تعذيب

والأصالح أياي على دخل ليس النفاق الى خلقى بمنسوب
يادهر ان توسع الاحرار مظلمة فاستثنى
ولا تخل اننى ألقاك منفرداً ان القناعة جيش غير مغلوب
ماكل من سيم خسفا عاف مورده ان الالباء لظهر غير مركوب
وكم تأزرت الغيطان بى كرما واستنشقتنى أنفاس المناخير
وله كثير من الشعر الجيد غير انه مقلد لشعراء المشرق . ولذلك لا تجد له
ديباجة واحدة ، ولا اسلوباً معروفاً ، ولا معانى مبتكرة.

ابن هاني^(١)

كان محمد ابن هاني من أصحاب الظرف والخلاعة ، ذا أدب جم ، لا يبالي بما يفعل ولا بما يقول ، حتى قالوا عنه انه كان في كلامه كثير من الافراط والغلو في المدح المفضي الى الكفر ، وكان ينتجع أماكن الرزق لدى الخلفاء والامراء كغيره من الشعراء ويعيش على متون الثواني . وكانت حياته ككل حياة الأديب التنقل والرحلة وانشاد الشعر وحفظه ، والاطلاع على الأدب واللغة

١ فالتأنا تذكر ابن هاني في مقدمة الشعراء لتقدمه في الزمن عن ذكرنا ، ولكننا أنسينا ذلك . على ان الادب في الأندلس لا يظهر فيه اختلاف المذاهب الادبية ظهورها في المشرق وهو أبو القاسم محمد بن هاني الأزدى الأندلسي ، من أكبر شعراء الأندلس وأشهرهم . ذاع ذكره في المشرق والمغرب وتقدم على غيره من الشعراء . وعاش في أرغد أيام دولة بني أمية في الأندلس . فقد مات في سنة ٣٦٢ بعد أن عاش ستا وثلاثين سنة . فيكون مولده على هذا القول في نحو ٣٢٦ وهذه الأيام هي أزهى أيام دولة الأمويين وأبهى أيام عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم (مات الناصر سنة ٣٥٠ ومات الحكم سنة ٣٦٦) في هذا العصر عاش ابن هاني . وظهر على الشعراء ولكنه لم يكن من بين شعراء الناصر ولا من حاشية ابنه . واصل أبيه هاني من أفريقية . وكان هو أيضاً شاعراً مشهوراً وأديباً معروفاً ، فانتقل الى الأندلس ، فولد له محمد هذا بمدينة أشبيلية . واذ كان أبوه أديباً وشاعراً ، أي صنعت الاب يعيش منه ويرحل في طلب السؤال به ، كان ابنه أيضاً من عشاق الشعر . وكانت أشبيلية اذ ذاك أخصب بلاد الاندلس علماً وأدباً . فنشأ بها وبرع في الادب واندمج في صف الشعراء لما كان له من الميل الى ذلك . وقد ورث الذوق الادبي عن أبيه وتربى على حب الشعر ، وعرف منزلة الشعراء وادرك ما كان لهم من رفعة الشأن والافاضة عيهم بالمال والثراء . وكان ذكياً نبهاً ميالاً للخفة والدعارة . وكانت بذرة اعترف واللهو نبت في تلك البلاد فاندفع في هذه البيئة ندفاعاً واتصل بمساحب أشبيلية . ونال حظوته وانهك في الملاحى والملاذ ولم يكن له رادع نفسى ولا ديني . ثم جاهر بشيء من الآراء المقبولة هناك ففضب عليه أهل أشبيلية وسات القالة في حق الملك بسببه واتهم بمذهبه . فأشار الملك عليه بالغبية مدة لئس فيها خبره فخرج من أشبيلية وعمره ستة وعشرون عاماً ورحل الى عدوة المغرب فلقى جوهر القائد (الذي فتح مصر للمعز)

وشىء من تاريخ الأدباء وحياتهم ، ومعرفة أقوال الشعراء ، ووعى أشهر كلامهم وأساليبهم وطرق التصور لديهم ، وموازنة الكلام بعبضه ببعض ، والامعان في معرفة الجيد والردىء منه . لأن ذلك كان لهولاً مثاله المرجع الوحيد الذى يستمد منه أفكاره ومعلوماته وتصورات ، التى هى كل شىء لديه .

هذه كانت حياته العقلية وحياته أمثاله من الأدباء الخالص الذين لم يشتغلوا بالعلوم ، ولم يتجهوا الى الاستفادة منها . ولم تكن لابن هانى نزعة أدبية فى غير الشعر . فقد اتجه اليه بكل قواه العقلية وحصر جميع ادراكه فيه . لذلك ظهرت مواهبه فى الشعر ، وكان له شأن رفيع بين كبار الشعراء .

أما شعره فهو فى جملة من الكلام الجيد . ونريد بالجودة هنا اختيار المعانى الداعية الى التفكير وحمل الذهن على البحث فيها ، ليدركها القارئ ادراكاً صحيحاً يتمظ به ، أو يستفيد منه شيئاً جديداً فى حياته العقلية ، أو يذكره برأى نافع ، أو مسألة صحيحة من مسائل الحياة والاجتماع ، كما هى الحال عند كبار الشعراء المفكرين . فشعر ابن هانى به كثير من ذلك تطمئن اليه النفس وتميل الى آرائه وتصديقها . وبه أفكار عامة فى الحياة والمجتمع الانسانى . وأكثر كلامه مملوء بهذه الآراء والخيالات الحكيمة . ولقد يجد الانسان روح المتنبي تدب دبيبا فى كلامه أحيانا . وكأنه لا يحسب من الشعراء الخياليين الذين جاؤا بعده بأنواع الخيال وتفرغوا لذلك ولم يلجوا باب الحقائق الانسانية فى شىء

أحد ملوك أفريقية ثم اتصل يحيى بن على بن بحر أحد ملوك طنجة وأخيه جعفر صاحب فبالغا فى اكرامه . ثم علم به المعز الميمنى أحد ملوك أفريقية فأجرى عليه كثيرا من العطايا وأكرمه اكراما عظيما وكان محبا للعلم والأدب وسافر المعز هذا الى مصر فشيعة ابن هانى ورجع الى المغرب لآخذ عياله . ولما وصل الى برفة أضافه شخص هناك وبقى عنده اياما فى هناك وسرور ومجون بلغ أشده وقالوا انه خرج من تلك الديار وهو سكران فنا فى الطريق فأصبح ميتا ولم يعرف سبب موته وقيل عربدوا عليه وقتلوه . ولما بلغ المعز خبر موته أسف أسفا شديداً وقال كما نريد أن نفاخر به شعراء الشرق فلم يقدر لنا ذلك

ولا طرقوا أبواب الحكمة ، بل اقتصروا على الأوصاف والتشبيهات . على ان ابن هاني رغم طريقته المعروفة التي نسبت اليه، كان يظهر عليه انه ناقل ومقلد في تلك المعاني التي حدث في زمن المتنبي ، وفي الأساليب العربية التي كانت قبل ذلك . فان منهجه في كلامه وأسلوبه لا يدل على غير ذلك . غير أنه بارع في جمع المعاني الغربية ونظمها ، واقف على كثير منها ، مستجمع لطائفة عظيمة من الآراء الحكيمة والأمثال والمواعظ ، يذكرها المناسبة ولغير مناسبة . وله في كلامه آراء تشبه الناقد البصير للاجتماع والناس ، ولعل هذا هو الذي حمل على القول بانه كانت له آراء ممقوتة وسموها آراء فلسفية .

ولقد جرى في أسلوبه على الاسلوب القديم : بالبدء بالغرل والاسترسال فيه ، وذكر المعاني القديمة المعروفة عند الشعراء ، ولعل ذلك جاءه من تمكنه من الشعر القديم وحفظه كثيراً منه . ويأتي في قصائد المدح بكثير من الآراء والافكار المختلفة وهي طريقة المتنبي بعينها . وبعض هذه القصائد مملوءة بأوصاف الحروب وتمجيد الامراء . وأسلوبه أسلوب رشيق سهل . حتى ان أبا العلاء المعري قال فيه : « ما أشبهه الا برحى تطحن قرونا لاجل القعقة التي في ألفاظه » وقال الضبي صاحب بغية المتمس . « وهو كثير الشعر ، محسن مجيد ، الا ان قعقة الألفاظ أغلب على شعره » . وربما كان أسلوبه دليلاً على قول من يدعى ان شعراء الأندلس رغم ما كان لهم من الامتياز في الفكر والأساليب كانوا يقفون أثر البدو القدماء .

وأول شيء يشعر به الانسان عند قراءة شعر ابن هاني انه شاعر لا كغيره من الشعراء ، شاعر ممتاز عن سواه ، وكفى بذلك دليلاً على ملكة الشعر لديه . ان الصبغة الخاصة التي تدل على أثر الشاعر أو الكاتب أو على شيء من شخصيته في كلامه هي علامة من علامات الافتنان التي من أجلها يحسب من بين الفنين وليس الافتنان غير إبراز الجمال وكشف دقائق ما فيه

وما هو جمال الشعر ؟ أليس هو ذلك الديب الذى يدب فى النفوس
 فيملأها بهجة وارتياحا ، ويحملها على الاعجاب بالكلام وما فيه ؟ أليس جمال
 الشعر فى تلك الرنات التى تطرب النفس وتحركها كما تحركها رنات المزاهر
 والأغاني ؟ أليس جمال الشعر فى الألفاظ والمعاني وتنسيقها وتناسبها وتقابلها
 وترتيبها ، ونظمها وجمعها بأسلوب يتحایل به الشاعر على أن ينال من نفس غيره
 وشعوره ، وأن يتقرب الى فؤاده وامتلاك عقله ، وأن يحرك القلوب والعواطف ،
 ويحكم على العقول بالأصغاء اليه ، والتصديق لما يقول ؟ . هذه حقيقة جمال الشعر
 كما ان ذلك هو سر كل فنون الجمال . وأكثر جمال الفنون هو فى معرفة تصوير
 الاشياء أو المعاني مع دقة الفنى فى ذلك . ولقد يكون الافتنان تقليداً متقناً لشيء
 معروف . هذا التقليد المتقن هو ما يراه الانسان جميلا . فليس من لوازم الافتنان
 فى الشعر ابتكار المعاني ، بل الاطاحة بها مع دقة ابرازها .

وهذا ما يشعر به القارئ فى أكثر شعر ابن هانى ، يشعر بسعة خياله ،
 ودقة ادراكه ، وحسن اختياره ، وتنسيق صناعته ، وافتنانه الخاص ، الذى يدل
 على ان الكلام كلامه ، والاسلوب أسلوبه . يتغزل ابن هانى كما يتغزل غيره .
 ولكنه غزل غير غزل غيره ، تشعر عند قراءتك له انه شاعر ممتاز ، له صفة
 خاصة وذوق خاص . يغرب فى غزله ويتعجب من جمال محبوبته ، ويخاطبها
 ويصفها بما يدعو الى الاعجاب بها ويحرك العواطف اليها . وكأنما ذلك كله أثر
 غرامه الصحيح ، وحبه الصادق ، وربما لم يكن شيء من ذلك . أرايت كيف
 يتغزل فى قصيدة مدح :

فتكات طرفك أم سيوف أبيك وكؤوس خمر أم مراشف فيك
 أجلاذ مرهفة وفتك محاجر مأنت راحة ولا أهلوك
 يابنت ذى البرد الطويل نجاده أكذا يجوز الحكم فى ناديك

قد كَانَ يدعُونِي خيَالِكَ طَارِقًا حتى دَعَانِي بِالْفَنَاءِ دَاعِيكَ
 عَيْنَاكَ أَمْ مَعْنَاكَ موعِدُنَا وَاذَى الْكَرَى أَلْفَاكَ أَمْ وَاذِيكَ
 مَنَعُوكَ مِنْ سَنَةِ الْكَرَى وَسَرَّوْا فُلُو عَثَرُوا بِطَيْفِ طَارِقِ ظَنُوكِ
 وَدَعَاكَ نَشْوَى مَاسْقُوكَ مَدَامَةً لَمَّا تَمَائِلَ عَطْفُكَ أَتَهْمُوكِ
 حَسَبُوا التَّكْحُلَ فِي جَفُونِكَ حَلِيَةً تَالَهُ مَا بِأَكْفِهِمْ كَحُلُوكِ
 وَلَوْ مَقْبَلِكَ اللِّثَامُ وَمَا دَرَوْا إِنْ قَدْ لَثِمْتَ بِهِ وَقَبْلَ فُوكِ

قد يكون تشبيه العيون بالسيوف معروفا ، وقد يكون تشبيه الريق بالخر
 والاشارة الى ان التكحل غير الكحل معروفا أيضا ، ولكن ما ليس معروفا هو
 ذلك الأسلوب ، هي روح الشاعر التي لبست هذه المعاني ، وكأنما قيست عليها
 أو كانت من مبتكراتها. ولقد يأتي في أثناء كلامه بعمان وتشبيهات بدیعة مع أسلوبه
 المعروف في البدء بالغزل . كقوله :

امسحوا عن ناظري كحل الشَّهَاد وانفضوا عن مضجعي شوك الْقَتَاد
 أَوْ خَذُوا مِنِّي مَا أَبْقَيْتُمَا لَا أَحِبُّ الْجِسْمَ مَسْلُوبَ الْغَوَاد
 هَلْ تُجِيرُونُ مَحَبًّا مِنْ هَوَى أَوْ تَفَكُّونَ أُسِيرًا مِنْ صَفَاد
 أَسْلُؤًا عَنْكُمْ مِنْ هَجْرِكُمْ قَلِمَا يَسْلُو عَنْ الْمَاءِ الصَّوَاد
 إِنَّمَا كَانَتْ خُطُوبٌ قُيِّضَتْ فَعَدْتُنَا عَنْكُمْ إِحْدَى الْعَوَاد
 فَعَلَى الْأَيَّامِ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا عَلَى الظُّلُمَاءِ مِنْ لُبْسِ الْحَدَاد
 لَا مَزَارَ مِنْكُمْ يُدْنُو سَوَى أَنْ أَرَى أَعْلَامَ مَهْضَبِ أَوْ نِجَاد
 قَدْ عَقَلْنَا الْعَيْسَ فِي أَوْطَانِهَا وَهِيَ انْضَاءُ ذَمِيلٍ وَوَحَاد
 وَحَدِيثَ عَنْكُمْ كَثْرَهُ عَنْ نَسِيمِ الرِّيحِ أَوْ بَرْقِ الْغَوَاد
 لَمْ يَزِدْنَا الْقُرْبَ إِلَّا هَجْرَهُ فَرَضِينَا بِالتَّنَائِي وَالْبَعَاد

وإذا شاء زمان رأينا بريقب أو حسود أو معاد
ثم دخل على المدح بهذا الأسلوب والاطناب الذى لا يمل مع اختياره جميل
الصفات وتعدادها، حتى انه ليخيل الى الانسان انه أفضل مدح، أو انه ليس وراء
ذلك من اطراء . فقال :

من امام قائم بالقسط أو منذر منتخب للوحى هاد
أهل حوض الله يجرى سلسلا بالطهور العذب والصفو البراد
أسواهم ابتغى يوم الندى أم سواهم ارتجى يوم المعاد
هم أباحوا كل ممنوع الحى وأذلوا كل جبار العناد
وإذا ما ابتدر الناس العلى فلمهم عاديتها من قبل عاد
ولهم كل نجاد مرتدى ولهم كل سليل مستجاد

ولقد يرق فى كلامه فيأتى بالمرقص والمطرب ، حتى لاتعرف أهو شاعر أم
مادح أم عاشق أم مبتكر للمعانى أم موحى اليه بها كقوله :

قد مررنا على مغانيك تلك فرأينا فيها مشابه منك
عارضتنا المها الخرائد أسرا بآجراها فلم تسأل عنك
لا يرع للمها بذلك سرب فلقد أشبهتك ان لم تكنك
فحين مرجع كحنيى وتشك مردد كتشكى
فائد تسكب الدموع كسكبى ثم لاتسفك الدماء كسفكى
لاأرى كابن جعفر بن على ملكا لابسا جلالة ملك
تتفادى القلوب منه وجيبا فى مقام على المتوج ضنك
وطويل النجاد فرج منه جانب السجف عن حياة وهلك

ولقد يصف فيبدع فى الوصف ، وتظهر ميوله المجونية فى شعره ، فيكون

أصدق ما يكون، وأرق إنسان، عذب الالفاظ رشيقاء خفيف الروح مبدعا جذابا :

قُنْ في مأتم على العشاق	ولبسن الحداد في الأحداق
وبكين الدماء بالعنم الرط	ب المُنْنا وبالحدود الرقاق
ومنحن الفراق رقة شكوا	هن حتى عشقت يوم الفراق
ومع الجيرة الذين غدوا دم	مع طليق ومهجة في وثاق
حاربهم نوائب الدهر حتى	آذنوا بالفراق قبل التلاق
ودنوا للوداع حتى ترى الأجي	اد فوق الأجياد كالأطواق
يوم راهنت في البكاء عيوناً	فتقدمت في عنان السباق
أمنع القلب أن يذوب ومن	نع جمر الغضى عن الاحراق
رب يوم لنا رقيق حواشى الد	سهو حسناً جوال عقد النطاق
قد لبسناء وهو من نفحات	مسك درع الجيوب درع التراق
والأباريق كالظباء العواطى	

مصغيات الى الغناء مطلا	ت عليه كثيرة الاطراق
وهى شم الأنوف يشمخن كبراً	ثم يرعفن بالدم المهرق
قدمتها السقاة كي يوقروها	صمماً عن سماع شاد وساق
فهى اما يشكون ثقلاً من الولة	ر واما يبكين بالاماق

ويمزج أسلوبه بشيء من أساليب غيره ، كتقليده المتنبي ، حيث ييث الحكم ، أو شيئاً من التهمك ، بينما هو يتكلم في المدح او فى الغزل . ولقد يسبق الى فكره شيء من المبالغة فيجرى به لسانه فكأنه يقول ذلك عن غير قصد . كقوله في المدح

وما الجود شيئاً كان قبلك سابقاً بل الجود شيء في زمانك حادث
وفى هذه القصيدة يقول

عبثت زماناً بالليالي وصرفها فهاهى بي لوتعلمون عوابث
لئن كان عتق النفس للنفس قاتلاً فأنى على حتى بكفى باحث
وان كان عمر المرء مثل سماحه فان أمير الزاب للارض وارث
اذا نحن جتناه اقتسمنا نواله كما اقتسمت فى الأقربين الموارث
وان حراماً أن تؤمل غيره كما حرمت فى العالمين الخباث
تبسمت الأيأم عنك ضواحكاً كما ابتسمت حو الرياض الدماث
وسد ثغور الملك بعد انثلامها وقد أظلمت تلك الخطوب الكوارث
فمازاد فى بحبوحة الملك رائد ولا عاث فى عريسة الليث عاث
وكثير من قصائده هى من نوع مزج الغزل بالحساسة والمدح. وينتقل من معنى
الى آخر، ويميل دائماً الى الوصف الغزلى. كقوله

قر لهم قد قلده صارما لو أنصفوه قلده ككوبا
صبغوه يوماً بالشقيق وبالرحيب سق وبالبنفسج والاقاحى مشربا
وكأنما طبعوا له من لحظه سيفاً رقيق الشفرتين مشطبا
قد ماج حتى كاد يسقط نصفه وأذيل حتى كاد أن يتسربا
خالسته نظرا وكان موردا فاحمر حتى كاد أن يتلها

فاذا مدح وصف وذكر صوراً كثيرة من الحوادث التى مرت فى حياة
المدوح فبنت مجده ورفعت قدره . وقصائده فى ذلك كثيرة.
وهو فى رثائه جيد أيضاً ، يأتى بالعظة والعبر . وذلك هو الأسلوب الفلسفى
المعروف فى المشرق . ومن كلامه فى ذلك قصيدته التى يقول فيها .

وهب الدهر نفيساً فاسترد ربما جاد بخيل فحسد
كلما أعطى فوقى حاجة بيد شيئاً تلقاه بيد

كاذب جاء جهاما زبرجا بعد ما أومض برق ورعد
أنها شينشة من أخزم قلما ذم بخيل فحمد
خاب من يرجو زمانا دائما تعرف البأساء منه والنكد
فاذا ما كدر العيش نى واذا ما طيب الزاد نفذ
فلقد أذكر من كان سها ولقد نبه من كان رقد
ابدا يعجم منى نعمة وقناة ليس فيها من أود
واستقصاء الجيد من شعره يدعو الى الخروج من مثل هذه الملخصات، فعلى
من يريد الاطلاع على شعره أن يرجع الى ديوانه المطبوع بمصر سنة ١٢٧٤ هـ

ابن الحداد^(١)

كان ابن الحداد من أهل الجدة وأصحاب الاطلاع وأهل الذوق في الادب واللغة ، لأن نثره نثرفنى مملوء بالمعاني ، وأسلوبه سهل متين ، هو أسلوب أديب مطلع على أحوال الاجتماع ونفوس الناس ، هادىء في كلامه ، جزل في ألفاظه واضح غير متكلف في معانيه ، يلح المعنى في ذهنه كما يلح اللفظ اللائق به وكأنما يتقابل المعنى واللفظ في خاطره فيلبس أحدهما الآخر ويتمزج هذا بهذا ، أو كأنما قيس كل منهما على سمت صاحبه . فإذا أراد أن يكتب أزدحم أمامه المعاني ، وتراكت عليه الأمثال والحكم والتراكيب العربية التي تمر بذهنه وإذا كرت ، ف يأخذ منها ما سبق الى لسانه ، وما علق بذاكرته . لذلك تجد في رسائله المعنى الطريف واللفظ الطريف ، وكلام غيره وصناعة سواه ، من مناهج الادباء وأساليب الشعراء . وهو كأنه نقاد يختار منها الجياد . لا يخرج عن المعنى

١ هو الاديب أبو عبد الله محمد بن الحداد . عاش في دولة ابن عباد وتوفي سنة ٤٨٠ وكان ملازماً للمعتصم بن صمادح أحد ملوك الطوائف الذي كان معاصراً للمعتصم بن عباد أيام دخول يوسف بن تاشفين في الأندلس . وقد عاش ابن الحداد في كنف ابن صمادح وابنه ممن وخصهما بمدحه . وعرف كيف ينزل من نفس المعتصم بن صمادح منزلة الشرف والوقار وكيف يمدحه غير متبدل ولا متغال . وكان لا خلاقه أثر في ذلك لأنه كان كبير النفس مبجلاً محترماً من جميع الناس .

وذكره الادباء والنقاد ببعض الآراء الفلسفية في شعره وميزوه عن بقية الشعراء والكتاب من أصحاب الأساليب الخيالية . وقد حسيوه من أصحاب الآراء الفلسفية لابتعادهم في كثير من شعره عن المجون الذي كان سمة لآكثر الشعراء هنالك . وكانوا يحسبون الكلام الجدوى الخالي من المزح والهزل فلسفة كما نسبوا اليه الفلسفة في قوله

لزمتم قناعتى وقمدمت عنهم فلست أرى الأمير ولا الوزير
وكنت سير أشعارى سفاها فعدت لفلسفيا فى سراً

الذى يريد ، ولا عن رأى الذى اليه قصد . ويقفو أثر المعانى أكثر من اقتفاء الألفاظ . وقله جواب ، ونفسه طويل ، وكلامه فيه كثير من الألفاظ ولكنه غير ظاهر ظهوره فى كلام غيره . وجملته القول ان أسلوبه النثرى من الاساليب الأدبية التى تساعد على تقويم اللسان مما اعتراها من العجمة . وهذه رسالة له

«لما كان الكتاب أعزك الله جلاء الاقضاء ، وصقال الاصداء ، وعقال الادواء ، وسمتني منه بوسام ، ولفحتني منه بسموم ، وأسرت حسوا فى ارتقاء ، وأدجت ذما فى ثناء ، والحر يأنف من الضيم ، ويشمئز من الذم ، ولا يقتصر على الاجتزاء ، بغير الجزاء ، ولو ترك القطا ليلا لنام ، وفى العتاب حياة بين أقوام ، فاصطبر شرب صبره ، وانتدب لتسوغ مره ، فمن الحُكم العدل ، والقضاء الفصل ، أن ألدعك بما لدعتني ، وأجرعك بما جرعتني ، غير آفك فى حال ، ولا مُباهت بمحال ، والتسويه ليس من خلق الكريم ، والحر على ما أساء يُصِر ، وكل كَجَرٍ فى اخلاء يُسر ، والفضل لمن حواه ، لا لمن زخرف دعواه ، وتحقيق البرهان ، غير تنميق البيان ، والسؤدد فى محاسن الخلال والفعال ، لا فى امكان الزمان ، واقبال السلطان ، وقيمة كل امرئ ما يحسن . أمثال اضربها عليك ، واضحة المناهج ، ومقدمات أنشأتها معك ، صادقة النتائج ، وجل تشتمل على تفصيل حالينا ، وبند تشير الى ما فيه جرينا ، وقد همني عتابك واجلابك بريح تعصف ، ورعد يقصف ، واستقبلني خطابك واطنابك ، بويل يخسف ، وسيل ينسف ، بلغ الزبى وزاد ، وغمر الربا والوهاد ، لوأم الجلالى لاقتلع أزهاره وطمس أنواره الخ'»

أما طبقته بين الشعراء ، فهو من الشعراء المفكرين أكثر منه فى صف الخياليين الذين يصفون الأشياء وصفاً أو يذكرونها كما يرونها . وحتى فى كلامه الوجدانى

١ راجع بقية الرسالة فى الجزء الاول من الدخيرة

له أسلوب خاص ، يدل على أن فكره هو الذى يرشده ، ويمحرك لسانه ، ويملى عليه بيانه . ومع انه كان من أهل الفكر ورجال العلم المحترمين ، كان له شعر فى الغزل ووصف عواطفه ، ظهرت فيه مواهبه فى هذا النوع .

واشتهر عنه انه أحب فى صباه فتاة نصرانية ذهبت بلبه ، وكان يسميها نويرة قد اتخذ عشقها وسيلة للتكلم فى أوصاف المسيحية والقسس والكنايس والصلوات ، من الأشياء النادرة فى الشعر العربى ، نخرج عن عادة الشعراء فى الاقتصار على أوصاف النفوس وآلامها عند الكلام على العشق . وهذا يدل على شىء من الابتكار ، وسعة الخيال ، وتأثر الشعر وعقول الشعراء بما يرون فى الحياة . وكلام ابن الحداد فى النصرانية وأهلها وان كان قليلا فهو جديد فى الشعر العربى ، ألمح اليه بعض الأماح المتنبي وأبو العلاء وغيرهما ، مع ان كثيراً من الشعراء كان يعيش مع هؤلاء الناس ويرى أعمالهم الدينية ، ولكن لقصر فى خيالهم وجمود فى عقائدهم ، لم يحوموا حول هذه الموضوعات فى الكلام على من كانوا يعاشرون من الامم التى تدين بغير دين الاسلام ، وما كانوا عليه فى أعمالهم الدينية المملوءة بالالهامات الشعرية والخيالات

وليس ابن الحداد أول من أحب نصرانية من الشعراء حتى كان ذلك سبباً من أسباب طرق هذا الموضوع لديه . ولكنه كان يرى مالا يراه غيره . قال فى حبيبته :

فان لى بالروم رومية	تكنس ما بين الكنيسات
أهيم فيها والهوى ضلة	بين صواميع وبيعات
وفى ظباء البدو من بزدرى	بالظبيات الحضريات
أفصح وجدى يوم فصح لهم	بين الاريطى والدوحات
وقد أتوا منه الى . . وعد	واجتمعوا فيه لميقات

مواقف بين يدي أسقف	ممسك مصباح ومنسات
وكل قص مظهر للتقى	مبد لانصات واخبات
وعينه تسرح في عينه	كالذبيب في فرس نجمات
أى امرئ سالم من هوى	وقد رأى تلك الطبّيات
وقد تلوا صحف أناجيلهم	بحسن الحان وأصوات
يزيد في نفسه يعافيره	عنى وفي ضغط صبايات
والشمس شمس الدجن من بينهم	تحت غمامات اللثامات
وناظري مختلس لمحا	ولمحا يضرم لوعاتي
ففى الحشا نار نورية	علقتها منذ سنيات
لا تنطفى وقتا وقد رمها	بل تنلظى كل أوقاتي
حييا عنى رشا بالحناء	وان أبى رجح تحياتي

قلنا ان هذا شيء جديد في الشعر العربي أو من نوادر أشعار العرب . جاء هؤلاء الشعراء من اختلاطهم بغيرهم . وقد رأينا رسالة نثريه لابن شهيد تشبه هذا وهذا الكلام جديد أيضا في أسلوبه ، لانه تكلم في حبيبته ثم في القسس ، ووصف الصلاة والغناء ، وكل هذا جديد ، لان شعراء العشق قلما يخرجون عن الكلام من وصف النساء الى شيء آخر . على ان هذه العبارات طريفة . وقال في هذه الفتاة وهو من نوع هذا الشعر :

فان الحسن ولا	كأحيائي واهلاكي
وأولمتي بصلبان	ورهبان ونسك
ولم آت الكنائس عن	هوى فيهن لولاك
وها أنا منك في بلوي	ولا فرح لبواك
ولأستطيع سلوانا	فقد أوتقت اشراكي

وكم أبكي عليك دما ولا ترثين للباكي
 فهل تدرين ما تقضى على عينيَّ عيناك
 وما يذكيه من نار بقلبي نورك الذاكي
 حجبت سناك عن بصري وفوق الشمس سهاك
 وفي الغصن الرطيب وفي النقا المريح عطفاك
 وعند الروض حدا ك وفي رياه رياك
 نورة ان قليت فاه نى أهواك أهواك
 وعيناك الشهيدان باني بعض قتلاك

وقد أفقتن في معانيه وفي كلامه في هذه النصرانية ، واجتهد في مزج أوصافها
 ومسائل عقائدها في شعره ، فأخذ شعره لونا جديدا باهرا غير مألوف في العربية .
 ففيها يقول :

وبين المسيحيات لى سامرية
 مثلثة قد وحد الله حسنهما
 وتحت الخمار الجون حسن كأنما
 وفي معقد الزنار عقد صبايى
 وفي هذا المعنى يقول أيضاً :

وفي شرعة التثليث فرد مُحاسن
 وأذهل نفسى فى هوى عيسوية
 فمن لجفوتى بالتماح نورة
 سبتنى على عهد من السلم بيننا
 تنزل شرع الحب من طرفه وحيا
 بها ضلت النفس الجنيقية الهديا
 فتاة هى المأوى النفيس أو المحيا
 ولو انها حرب لكانت هى السبيا

واصطبح مع المعتصم يوماً ومعه ندماءؤه وأظهر صببية متصرفة فى أنواع
العب والطرب، وحضر أيضاً لأعب مصرى هناك قارتجل ابن الحداد :

كذا فلتلح قمرًا ظاهرا	ونجنى الهوى ناظرا ناظرا
وسيبك سيب ندى مغدق	أقلم لنا هاملا هامرا
وان ليومك ذا رونقا	منيرا لنور الضحى باهرا
صباح اصطباح باسفاره	لحظنا محيا العلا سافرا
وأطلعت فيه نجوم الكؤوس	وتما زال كوكبها زاهرا
وأسمعتنا لاحنا فائنًا	وأحضرتنا لاعبا ساحرا
يرفرف فوق رؤوس القيا	ن فننظر ما يذهب الناظرا
ويحطفها ذيل سرباله	فتبصر طالعا غائرا
فظاهرها ينثنى باطنا	وباطنها ينثنى ظاهرا
وثناؤه ثاب لأعابه	دقيق ثنى الحجبى حائرا
وفى سورة الراح من سحره	خواطر دلهت الخاطرا
اذا ورد اللحظ أثناءها	فما الوهم عن وردها صادرا
ومن بدع نماءك أبداعه	فما أنفك عارضها ماطرا
وسعدك يجتذب المغربات	ويجعل غائبها حاضرا

ولقد كان يمزج هذه الخيالات الجميلة بالمدح . كقوله فى مدح بنى هود وقد
أكرمه المقندر وأعلا من شأنه فمدحه بقوله :

أسالت غداة البين لؤلؤ أجفانى	وأجرت عقيق الدمع فى صحن أجفانى ^١
وألقت حلاها من أسى فكأثنا	أطارت شواذى الورق من قنن البان
وأذهلها داعى الهوى عن تنقب	نجيا محياها بتفاح لبنان ^٢

وقد أطبقت فوق الأقاليم بنفسجا

وليل بهيم سرته ونجومه ازاهر روض أو سواهر أجفان
كأن الثريا فيه كأس مدامة وقد مالت الجوزاء ميلا نشوان
وما الدهر الا ليلة مبهمة وشمس ضحاها أحمد بن سليمان
وقصائده كثيرة في الجزء الأول من الذخيرة، وفيها جملة من نثره، وذكره
صاحب فوات الوفيات في الجزء الثاني. وابن خاقان في مطمح الأنفس. وفي فهرس
الجزء الثاني من نفح الطيب طبع أوروبا المواضع التي ذكره فيها المقرئ

ابن خفاجة الأندلسي

هو أبو اسحق ابراهيم بن أبي الفتح بن خفاجة الأندلسي الشاعر الأديب المشهور . ولد ببلدة شقر ، ويطلق عليها العرب جزيرة شقر . وكانت ولادته سنة ٤٥٠ وتوفي بها سنة ٥٣٣ . عاش في عصر المرابطين بعد زوال دولة بني أمية والدولة العمارية ، وبعد انتهاء دولة بني عباد ، أي في عصر كان نضج اللغة والأدب بلغ أوكاد يبلغ منتهاه ، وكان الادباء في هو ومجون ، وكانت الملاهي والاشتغال بالمذات صرفت اليها العقول ، وجذبت اليها الافكار ، فهدبت منها قليلا أو كثيرا . واذا استولى اللهو على النفوس عشقت الجمال ، ومتى عشقت الجمال مالت الى فهمه ، وانغمست في ادراك أسرار الطبيعة وما فيها من روعة وابداع . فاذا كانت النفوس قد تهذبت بالعلوم والفنون المختلفة ، أدركت جمال الكون ادراكا عميقا - كما يقولون - وبحث عن خفاياه بحث الفيلسوف عن الحقائق ، وكان الشاعر فيلسوفا فنيا وشاعرا فيلسوفا ، يظهر الفلسفة في ثوب شعري ، و يظهر الشعر في ثوب فلسفي . أما اذا كان فنيا بطبعه ، ولم يكن له نصيب من العلوم ، فانه يكتفى بالنظر الى الأشياء وفهم جمالها ، على حسب ما بها من التناسق الظاهر ، والمناظر الباهرة ، وجمال الألوان ، وكل ما توحيه الطبيعة الى النفس من الأعجاب . ولقد يؤثر هذا الشاعر في النفس بجمال قوله ، كما يؤثر الفيلسوف بحكمه وصدق ادراكه .

ومثل ابن خفاجة مثل ذلك الشاعر الذي وقف كل مواهبه لادراك الجمال ، وفهم ظواهره الرائعة المبهوثة في أنحاء الكون : فهو من الشعراء الذين

ربهم الطبيعة بجمالها ، وهذب ادراكه جمال الوجود ، فاتجه بجميع قواه العقلية والخيالية الى معالجة التعبير عن هذا الجمال ، وانغمس انغمسا في ذلك ، حتى أصبح لا يكاد يدرك غير هذا النوع ، ولا يفهم غير المعاني الجميلة . فقد كان يخرج الى البرارى ليسمع خرير المياه ، ويتمتع بهذه الاصوات والمشاهدات. وكان له ولع بهذا ، وبكل ما يقال فيه ، حتى لقد كان يجارى الشعراء ويعارضهم في مثل هذه المعاني التي شغلت عقول كثير من الادباء والشعراء . وكان الكلام في مناظر الطبيعة اذ ذلك من بدع البلاغة والأدب . فقد قالوا « ركب بعض الادباء مع أصحاب له في نهر اشبيلية في عشية سال أصيلها على لجين الماء عقيانا ، وطاردت زواريقها في سماء النهر عقيانا ، وأبدى نسيمها من الامواج والدارات سررا وأعطانا ، في زورق يجول جولان الطرف ، ويسود أسود الطرف ، فقال بديها :

تأمل حالنا والجو طلق محياه وقد طفل المساء
وقد حالت بنا عذراء حبلى تجاذب مرطها ربح رخاء
بنهر كالسجنجل كوثرى تعبس وجهها فيه السماء

واتفق ان وقف أبو اسحق بن خفاجة على القطعة فاستطرفها واستطابها . فقال يعارضها :

الا يا حبذا ضحك الحيا بمحانتها وقد عبس المساء
وأدهم من جياذ الماء نهر ينازع جلّه ربح رخاء
اذا بدت الكواكب فيه غرقى رأيت الماء تحسده السماء»

فكان شغف ابن خفاجة بمثل هذا الكلام عظيما ، وكانت له ميول للمجون . فاجتمعت هذه الميول النفسية ، الى حبه لجمال الطبيعة وكونت ملكته الشعرية وخیالاته وتصوراته ، حتى لقد كان يملأ نفسه المجون فيملى عليه من المعاني ما يرسم شيئا من أخلاقه وميوله في الحياة . كما قال :

وما الانس الا فى مُحاج، زجاجة ولا العيش الا فى صرير سرير
وانى وان جثت المشيب لمولع بطرة خل فوق وجه غدِير
كذلك كانت ميول ابن خفاجة، وهكذا كانت أخلاقه، فكانت كاخلاق
كل الفنين وميولهم : خفة وطيشا . ولكنها خفة روح تدعو الى حبه وحب
كلامه . وهذا كله فى شعره ونثره . وكأنه لم يكن يرى من الحياة الا ما يتفق
مع أهوائه من بهجة وجمال ، حتى انه وصف الأندلس وقال :

يا أهلَ أندلس لله دَرُكُمْ ماء وظل وأنهار وأشجار
ماجنة الخلد الا فى دياركم ولوتخيرت هذا كنت اختار
هذا السرور النفسى كان يفمره ولا يفارقه ، فانه كان يحب بلاده ، ، لانها
جميلة تشبه ما يحب فى حياته من الجمال ، اذ يقول :

ان للجنة بالأندلس مجتلى عين ورياً نفس
فَسَنّا صبحتها من شنب ودجا ليلتها من لعس
فاذا ما هبت الريح صبا صحت واشوق الى اندلس
هذه أخلاق ابن خفاجة وميوله النفسية فى جملتها وأثرها ظاهر فى حياته
العقلية، وفى رسائله النثرية وقصائده الشعرية .

لذلك كان صاحب مذهب كتابى ، وأسلوب أدبى ، يوازن بأبى تمام فى
شعره ومذهبه ، وبابن العميد أو الهمداني فى النثر والكتابة . فانه يشبه
أبا تمام من حيث الميل الى تنميق عباراته الشعرية . والتعمل قليلا أو كثيراً فى
ذلك ، والعناية بذكر أنواع البيان والبديع . ولكنه مع هذا غير ظاهر التكلف
كأن ذلك جاء عفواً وكأنه سليقة له . وهو على ما يظهر من شعره من
المتشيعين لطريقة أبى تمام ، المعجيين بها . كما ان غيره من الشعراء كان يقفوا أثر
المتنبي فى أسلوبه ويتشبه به فى آرائه الفلسفية . ولكننا لم نر أحداً فاق المتنبي فى

في أسلوبه الفلسفي ، بل كانوا جميعاً مقلدين أو مغترفين من بحره . حتى انهم لم يلبثوا شأوه ، ولكن ابن خفاجة أخذ عن أبي تمام وجاراه وفاقه في أسلوبه ، لانه غير متكلف كأبي تمام . بل جاءه ذلك من باب الميل النفسى والسجية . حتى لقد يذكّر المعنى ونفس الخيال الذى ذكره أبو تمام ، ولكنه خال من كل كلفة أو نميل ظاهر . ذلك لان ابن خفاجة كان يشعر من الجمال بما لم يكن يشعر به أبو تمام . ويكفى أن يتكلم الانسان عن شعور ليمتاز في كلامه ويلبس القلوب بمباراته

ويظهر من عبارات ابن خفاجة انه كان متمكناً من صناعته ، عارفاً بها ، سافراً على منوال واحد فيها ، في نظمه ونثره . وليس نثره غير شعر منشور ، ولا شعره غير نثر منظوم . فان رسائله القليلة التى عثرنا عليها ، هى من قبيل النثر السهل المتكلف ، سهل فى ألفاظه وفهم معانيه ، متكلف فى اتباع طرق علوم البيان . وهو مع ذلك رقيق الأسلوب . ولقد غير من نثره عبث الطبيعة وجعلها بعقله ، وامتلا كهها قوة الخيال منه .

كتب رسالة يصف فيها منتزهاً وكأنما قلعه ريشة مصور ماهر ، تكاد ترى ذلك رأى العين وكأنك تجول فى أنحائه ، فترى كل ركن من أركانه ، وكل ناحية من أنحائه ، وكل زهرة ووردة ، وكل شجرة وغصن وكأنما يلمسك نسيمها العليل ، وتجرى أمامك الجداول والانهار . ذلك الى أسلوبه الخاص المسجوع وكأنما هو مرسل . وتجد الجملة الطويلة المسجوعة ، على حين أنك تجد كلمة واحدة شطر سبعة أو سبعة كاملة قال « ... ذهبت فى لمة من الاخوان نستبق الى الراحة ركضا ، ونطوى التفرج أرضا ، فلا ندفع الا الى غدير نيمير قد استدارت منه فى كل قرارة سماء . سحائبها غمماً ، وانساب ، فى كل تلمعة حباب ، جلده حباب ، فترددنا بتلك الاباطح تهادى تهادى

أغصانها ، وتتضاحك تضاحك أقحوانها ، وللتسليم أثناء ذلك المنظر الوسيم
تراسل مشى ، على بساط وشى . فاذا مرَّ بفدير نسجه درِّعا ، واحكه صنعا .
وان عثر بجداول شطب منه نصلا ، وأخلصه صقلا . فلا ترى الا بطاحا ، مملوءة
سلاحا ، كأنما انهزمت هنالك كتائب فألقت بما لبسته من درع مصقول ،
وسيف مسلول ، فاحتلنا قبة خضراء ممدودة أشطان الاغصان
سندسية رواق الاوراق . وما زلنا نلتحف منها ببرد ظل ظليل ، ويشتمل عليه برداء
نسيم عليل ، ونجمل النظر في نهر صقيل ، صافى لجين الماء ، كانه مجرة سماء .
موتلق جوهر الحباب ، كان من ثغور الاحباب . وقد حضرنّا مُسمع يجرى مع
النفوس لطافة ، فهو يعلم غرضها وهواها ، ويغنى لها مقترحها ومناها ، فصيح لسان
النقر ، يشفى من الوقر ، كانه كاتب حاسب تمشق يمينه ، وتعتقد يسراه ، يحرك
حين يشدو ساكنات ، وتنبعث الطبائع للسكون . »

أما اذا خرج عن هذا النوع الوصفى الخيالى الفنى فقد يضيق الطريق فى
وجهه ، وقد يثقل كلامه ويتكلف فى عبارته . كما فى رسالة يعاتب فيها^١ .

١ قالوا كانت بين أبى اسحاق وبعض اخوانه مقاطعة فاتفق ان ولى ذلك الصديق
معنا فخطبه أبو اسحق برقة منها . « أطل الله بقاء سيدى النبية أو صافه . التزبهة عن الاستثناء
المرفوعة أمارته الكريمة بالابتداء . ما انحذفت ياء يرمى للجزم . واعتلت واو يفزو لموضع الضم
كتبت عن ود قديم هو الحال لم يلحقها انتقال . وعهد كريم هو الفعل لم يدخله اعتلال والله
بجمل هاتيك من الأحوال الثابتة اللازمة . ويعصم هذا بمد من الحروف الجازمة . وأنا أستنهض
طولك الى تجديد عهدك بمطالعة الف الوصل وتمدية فعل الفصل . والى عدولك عن باب الف
القطع الى باب الوصل والجمع . حتى تسقط لدرج الكلام بيننا هاء السكت ؛ ويدخل الانتقال حال
الصمت . فلا تتخيل أعزك الله ان رسم أخائك عندي قد درس عفاء ؛ ولان صدرى
دارمية أمسى من ودك خلاء . وانما أنا فعل اذا شئى ، ظهر من ضمير وده ما بطن . وبدا
منه ما كمن . وهينثا أعزك الله ان فعل وزارتك حاضر لا يلحق زفه تغيير ، وان فعل

وكان ابن خفاجة كثير النظر والتأمل في المشاهدات ، ولا سيما المناظر الطبيعية ، متأثراً بالمنظورات ، يحرك عقله نظره . للالوان وتناسقها سلطان عظيم عليه ، وكل معلوماته جاءت من طريق النظر الى الاشياء ، فكان يرى ويلاحظ ويعرف كيف يرى وكيف يلاحظ . ولم يكن له الا أن يلبس هذه المنظورات عبارات والفاظا بليغة فصيحة . واذ كان بطبيعته فنيا كان اختياره للألفاظ والجل حسنا جيداً ، كما يختار المصور الماهر الالوان الجميلة اللازمة له . لذلك ، كان أسلوبه جميلاً ، وعباراته سهلة ، وكلامه سائغاً للنفس ، بعيداً عن كل تعقيد أو تركيب ركيك ، أو غموض في اللفظ أو المعنى . ويكاد يكون ديوان شعره من أوله الى آخره على نسق واحد في المتانة وحسن العبارة ، وكله من نوع واحد من حيث الصور العامة . ولكن تكرار المعاني لا يكاد يجد له القارئ أثراً لبراعة الشاعر واختياره المعاني التي كلما مرت بالنفس أو بالسمع تجدد أثرها بتجديد ألفاظها ، وتنغير آثرها بتغير تراكيبها .

ولقد يصف فيخيل اليك انك تنظر في لوحة مصور ، أو كأن كل معنى في كلامه « كأن حى » يتحرك أمامك . قال يصف طيفاً ألم به في الليل الطويل ،

سيفك ماض ما به للعوامل تأثير ، وأنت بمجدك جماع أبواب الظرف . تأخذ نفسك العلية بمطالعة باب الصرف ، ودرس حرف المطف . وتدخل لام التبرئة على ما حدث من عتبك . وتوجب بعد النقي ما سلف من عتبك ، وتدع الف الالفة أن تكون بعد من حروف اللين . وترفع بالاضافة بيننا وجود التنوين ، وتسوم ساكن الود أن يتحرك . ومعتل الاخاء أن يصح . وكثاني هذا حرف صلة فلا تحذفه حتى تعود الحال الاولى صفة ، وتصير هذه النكرة معرفة ، فأنت أعزك الله مصدر فعل السرور والنبيل ، ومنك اشتقاق اسم السودد والفضل وانك وان تأخر المصدر بك كالفاعل وقع مؤخراً . وعدوك وان تكبر كالكفيت لم يقع الا مصغراً ، وللايام علل تبسط وتقبض وعوامل ترفع وتنخفض ، فلادخل عروضك قبض ، ولا عاقب رفضك خفض . ولا زلت مرتبطاً بالفضل شرطك وجزاؤك . جارياً على الرفع سرورك الكريم وسناؤك . حتى تحفض الفعل ، وتبنى على الكسر قبل ، ان شاء الله » راجع نفع الطيب ج ١ ص ٣٥٢

وأخذ خياله يتصور ما يمكن أن يكون في هذا الموقف من وصف ملاقاته لحبيبه ،
 والتمتع به في حضرته . والليل يحيط بهما وهو على وشك الانصراف ، وأخذ
 يشبه محبوبه بأنواع الرياحين ، وهو تشبيه سهل الإدراك صعب التركيب . وليس
 هذا الكلام في طاقة كل شاعر ، ولا امتلاك البيان بمثل هذا في طوع كل قى
 تكلم في الليل ثم في الطيف ووصفه بأرق ما يصف به حبيب حبيبه ، وأحسن
 ما ينال عاشق من عشيقه ، وقد دام ذلك الى طلوع الفجر ، وعيون الليل تتجسس
 أخبارهم ، وضوء الصبح يرقبهم :

ورداء ليل بات فيه معانق	طيف ألم لطيفة الوعساء
فجمعت بين رُضابه وشرابه	وشربت من ريق ومن صهبا
ولتست في ظلماء ليلة وفرة	شفقا هناك لوجنة حمراء
والليل مُشَبَّطُ الذوائب كِبَرَةً	خَرَفَ يدب على عصا الجوزاء
ثم التقي والسكر يسحب فرعه	ويجر من طرب فضول رداء
تندى بفيه اقحوانة أجرع	قد غازلتها الشمس غب سماء
وتميس في أثوابه ريحانة	كرعت على ظمأ بجداول ماء
نفاحة الانفاس الا انها	بحذر النوى خفاقة الأفياء
فلويت معطفها اعتناقاً حسبها	فيه بقطر الدمع من أنواء
والفجر ينظر من وراء غمامة	عن مقلة كحلت بها زرقاء
فرغبت عن نور الصباح لنورة	أغرى بها بينفسج الظلماء

ولقد يصف الليل والسير فيه وظلمته الخالكة المنبعثة من كل ركن من
 أركان الفضاء . وما قد توحى الى النفس من الخوف والرهبة . وما يلاقى السارى
 من حيوان كاسر . وكأنما يظن القارئ نفسه في جوف الغلاة ومخاطر الليل .
 كل ذلك بتشبيهات جميلة مختارة . كما قال :

ومفازة لا نجم في ظلماتها
تتلهب الشعري بها . وكأنها
ترمي به الغيطان فيها والربى
قد لفنى فيها الظلام وطاف بى
طراق سادات الديار مساور
يسرى وقد نضج الندى وجه الصبا
فعمشوت فى ظلماء لم تقدح بها
ورفلى فى خلع على من الدجى
والليل يقصر خطوه ولربما
قد شاب من طرف الحجرة مفرق
وكما قال:

وليل كما تمد الغراب جناحه
به من وميض البرق والليل فحمة
سريت به أحياه لاحية السرى
يقلب منى العزم انسان مقلة
بمخرق لقلب البرق خفقة روعة
سحيق ولا غير الرياح ركائب
كأنى وأحشاء البلاد تجننى
أجوب جيوب البید والصبح صارم
وفى مصطلى الآفاق جمر كواكب

ووصف ناراً هبت عليها ريح فأضرمتها وكأنما يتغازلان . أو كأن النار

والريح في موقف طرب يتايلان من نشوته . أو كأن الريح عاشق متيم يلثم خد
اللهب الخجل . أو كأن في موقد النار ماء عليه من نجوم حجب . فقال

لاعب تلك الريح ذاك اللهب	فعاد عين الجد ذاك اللعب
وبات في مسرى الصبا يتبعه	فهولها مضطرم مضطرب
ساهرته أحسبه منتشيا	يهز عطفه هناك الطرب
لو جاءه منتقد لمادري	ألهب متقد أم ذهب
تلثم منه الريح خدا خجلا	حيث الشرار أعين ترتقب
في موقد قد رقرق الصبح به	ماء عليه من نجوم حجب
منقسم بين رماد أزرق	وبين جمر خلفه يلتهب
كأنما خرت سماء فوقه	وانكدرت ليلا عليه شهب

ورصف ساقيا جميلا ، فوصف الخمر أيضاً ومجلسه ، وكأنما السرور يسيل
بين ألفاظه ، والنعم والسعادة يتمثلان في كلامه . فقال :

وأغيد في صدر الكلام لحسنه	حلى وفي صدر القصيد نسيب
من الهيف أما ردفه فنعم	خصيب وأما خصره فجديب
يرف بروض الحسن من نوروجه	وقامت له نواره وقضيب
جلاها وقد غنى الحمام عشية	عجوزا عليها للجباب مشيب
وجاء بها حمراء أما زجاجها	فنور وأما موجهها فكثيب
تجافت بها عنا الحوادث برهة	وقد ساعدتنا قهوة وحبيب
وغازلنا جفن هناك كنرجس	ومبتسم للاقحوان شنيب
فالله ذيل للتصابي سحبه	وعيش باطراف الشباب رطيب

وكل شيء يراه كان يوقظ خياله ، وينبه من أدراكه ، ويدفعه الى ابتكار
المعاني الجميلة . فقد رأى رجلا أسود أحذب يسقى خمرأ فقال في ذلك :

رب ابن ليل سقانا	والشمس تطلع غره
فظل يسود لونا	والكأس تسطح حمره
كأنه كيس فخم	قد أوقدت فيه جمره
والمدام مدير	يشب جمره خمره
نضاحكت عن حباب	يقبل الماء ثغره
فظلت آخذ ياقو	ته واصرف دره
حتى تثنيت غصنا	واصفرت الشمس نقره
وارتد للشمس طرف	به من السقم فتره
يجول للغم كحل	فيه وللقطر عبره

ولقد يفكر في شعره فيأتى بأفكار جميلة ، وملاحظات جميلة ، ويخرج من معنى الى آخر . وقد تكون المعانى معروفة وجديدة معا ، لأنه يبدع ويتكرر في التعبير . كقوله :

وليل اذا ماقلت قد باد فانفضى	تكشف عن وعد من الظن كاذب
سحبت الدياجى فيه سود ذوائب	لاعتق الآمال بيض ترائب
فرقت جيب الليل عن شخص أطلس	تطلع وضاح المضاحك قاطب
رأيت به قطعا من الفجر أغبشا	تأمل عن نجم توقد ثاقب
وأرعن طراح الذؤابة باذخ	يطاول أعنان السماء بغارب
يسد مهب الريح عن كل وجهة	ويزحم ليلا شبه بالنساكب
وقور على ظهر الفلاة كأنه	طوال الليالى مفكر فى العواقب
يلوث عليه الغيم سود عمام	لها من وميض البرق حمر ذوائب
أصخت اليه وهو أخرس صامت	فحدثنى ليل السرى بالمعائب
وقال الا كم كنت ملجأ قاتل	وموطن أوأه تبتل نائب

وكم مربى من مدلج وماوب
ولاظم من نكب الرياح معاطفى
فما كان الا ان طوتهم يد الردى
وكما فى قوله فى المشبب .

وقل بظلى من مطىّ وراكب
وزاحم من خضر البحار غواربى
وطارت بهم ريح النوى والنواب

أرقت على الصبا الطلوع نجم
كفانى رزء نفس ان تبدى
ولولا أن يشق على الغوانى
فلم أعدم هناك به شفيما
غريبة شيب فود ان تراخت
شنت بمجتلاها النور حتى
وعفت كراهة للشئ شيئا
واية شية الا نذير

أسيه ساحة مشيا
وأعظم منه رزاء أن يغيبا
للاقيت الفتاة به خضيا
الى أمل ولم أبرح حيبا
حياتى آل اسوده غريبا
شنت بمجتلى النور التضييا
يكون له شيبها أو نيبا
وهل طرب وقد مثلت خطيبا

ويمدح فلا ينسى جمال الكون ، وفى كل مدحه يميل الى أن يكون
جميلا فى كلامه وأوصافه ، ولعله لا يقصد الى ذلك ، وإنما هذه هى طبيعته ونوع
ادراكه . قال

أقد ضحك الصباح بمجتلاه
وظاهرنى بمنسترى حسام
أشيم به سنا برق يمان
الى جذلان وضاح الحيا
الى يقضان وقاد الموالى
يساور منه طوراً ليث غاب
إذا استمطرت منه غمام رحى .

وراء الليل عن ثغر شيب
أنست به ونعم أخو الغريب
يخفونى الى المرعى الخصب
سليم القلب والصدر الرحيب
مريش السعى بالرأى المصيب
ويمسح تارة عطفي أديب
أو استنصرت فى يوم عصيب

ولقد يجمع كثيراً من الصور والألوان في أبيات قليلة وهو يبدع التصوير
ويسيل كلامه رقة . كقوله :

وصتيل افرند الشباب بطرفه سقم وللعضب الحسام ذباب
يمشى الهوينا نخوة ولربما أطرته طورا نشوة وشباب
شقى المحاسن للوضاء ربطة أبدا عليه وللحياء نقاب
وبمعطفه للشبيبة منهل قدشف عنه من القميص سراب
عبر الخليج سباحة فكأنما أهوى فشق به السماء شهاب
تطفو لغرته هناك حباة ويموج من ردف ألف عباب
وكل شعراين خفاجة من الوجدانيات المملوءة بالصور والخيالات والادوصاف
الدقيقة ، وأكثره خال من الأفكار العامة النفسية والفلسفية والاجتماعية ، فقرأته
أشبه بالنظر الى الصور الجميلة للتمتع برؤيتها والتسلى بهجتها .

ابن سهل

هو ابراهيم بن سهل الاسرائيلي^١ الأشبيلي الشاعر المشهور من أهل القرن السابع الهجري. مات سنة ٦٤٩ هـ بعد أن عاش أربعين عاماً. قالوا انه مات غريقاً مع أحد الولاة. وقد تعلم الأدب واشتغل به على أكابر العلماء، ونبغ في الشعر حتى قالوا عنه انه شاعر أشبيلية وشاحها. وظهر نبوغه في الشعر وهو شاب، وشهد له بذلك كبار الشعراء^٢. وعلى الرغم من أن العصر الذي عاش فيه ابن سهل كان من أواخر عصور العرب في الأندلس، فإن الشعر كان لا يزال على حاله من الرقي وحب الشعراء وتمجيدهم. بل كانت هذه الايام الأخيرة من أيام عز اللغة ونموها، فقد كثرت الافتنان في أنواع الشعر من موشحات وغيرها. بل كانت لا تزال البلاد عامرة بالعلماء من كل نوع. ذلك لأن سقوط دولة العرب لم يسبقه انحطاط في مدينتهم، أو تدهور في حضارتهم، بل سقطت الدولة وهي في عزها وقوة نشاط عقول أبنائها. لان ذلك لم يكن من ضعف فيها أو شيخوخة أدركتها، ولكن

١ عن أصحاب التراجم بمقيدته ورووا أنه أسلم في آخر أيامه، وبحوثوا في صحة اسلامه ورماه بعضهم بدم الاخلاص، وقالوا انه كان يتظاهر بالاسلام، حتى قالوا ان تمكن اليهودية من نفسه كان له أثر في شعره وقالوا في ذلك « سئل بعض المغاربة عن السبب في رقة نظم ابن سهل فقال لأنه اجتمع فيه ذلان ذل العشق وذل اليهودية » وذلك لاجعابهم ينظمه وقالوا فيه لما بلغهم حرقه . عاد الدر الى وطنه . ورووا عنه في صحة اسلامه قوله .

تسلطت عن موسى بحب محمد هديت ولولا الله ما كنت أهتدى
وما عن قلى قد كان ذاك وانما شريعة موسى عطلت بمحمد

٢ راجع حديثهم مع الهيثمي في فوائد الوفيات ج ١ ص ٣٠

عوامل الحقْد دبت في نفوس أهلها فكاد بعضهم لبعض ، حتى خرجت الدولة من يدهم وهم في عز جاههم . وربما كان سقوط الدولة لم يسبقه أى عامل من عوامل التأخر العقلى . لذلك كان عصر بنى هود الذين كان من شعرائهم ابن سهل وعصر بنى الأحمر ، وحتى عصر برابرة أفريقية غاصة بالعلماء والا دباء والشعراء ، وكان كلما تقدم الزمن بالدولة ظهرت فيه ثمار العلوم والعقول ، لأنها كانت دائماً نتيجة الجهود السابقة . وارق شعر الاندلس ما جاء بعد القرن الرابع أى بعد زوال دولة بنى أمية ، التى كان عصرها أزهى عصور الحضارة هناك . لذلك يمكن القول بان اللغة العربية في جملة سيرها لم يدركها انحطاط محسوس في أثناء القرون الثمانية التى تخطتها في الأندلس ، سوى ما حصل من المبالغة في طريقة السجع النثرية . ويمكن أن نقول ان ابن سهل وهو من شعراء القرن السابع ، يشبه غيره من شعراء القرن الثاين والثالث ، وان سير اللغة والأدب في الأيام الأخيرة مثله في الأيام الأولى ، بدليل كثرة الشعراء والكتاب المجيدين الذين ظهوروا في تلك الأيام ، ولاننا لا نجد شيئاً من تقهقر اللغة في آخر الدولة .

ولو اننا أردنا أن نتكلم على ابن سهل من حيث تربيته العقلية ، لوجدناه كغيره من الشعراء الذين تهذبت نفوسهم وعقولهم بجهود العقول التى أثمرت قبلهم ، والاطلاع على شعر الشعراء وكتابة الأ دباء . وربما نزع أبأؤه الى الأندلس منذ زمن بعيد ، ولكنه على كل حال غير عربى الأصل ، نبغ في بلاغة العرب وشعرهم وتعلم العربية وبرع فيها . وليس شعر ابن سهل الا نتيجة تربية عقلية عربية واسعة واشتغال كبير بلغة العرب ، مما يدل على اندماج غير العرب فيهم والعناية بحفظ لغتهم كما هو معروف في التاريخ من اشتغال المقهور بلغة القاهر أو تقليد المحكوم الحاكم في لغته وعلومه ومدينته

أما شعره فيكاد يكون كله وجدانيا صرفا ولا نكاد نجد له في غير الغزل

الا القليل . فهو من الشعراء الذين كانوا يستسلمون الى الالهواء فتقودهم، والى
 القلوب والخيالات فترشدهم الى الكلام وطرقه. لذلك كان شعره جليلاً، ومعانيه
 رائعة شائقة سائغة للنفس ، مع رشاقة في اللفظ ومتانة في الاسلوب، ودقة في
 التعبير . ذلك لأنه أمعن في هذا الكلام الغزلي حتى أتقنه وبرع في عباراته
 وكشف مخبآتة . وكأنه لم يترك شيئاً يجول برأس العاشق أو يتحدث بها نفسه
 الا ذكره أو وجده في نفسه فتكلم عليه في شعره . وقد خط له بهذا طريقاً سلكه
 ولم يخرج عنه الى طريق آخر . وكأن آراءه في العشق والغزل هي كل ما يعرف
 وكل ما لديه من طرق التفكير وأساليبها، لانه لم يخرج مطلقاً عن هذه الدائرة
 حتى أتى على آخرها مرات وابتدأها من أولها مرات . ومثله في ذلك مثل من
 عرف حادثة واحدة من الحوادث فكتبها أولاً من أولها الى آخرها، ثم رتبها ترتيباً
 آخر وكتبها بحيث جعل الاول آخرها والاخر أولاً، ثم كتبها مرة ثالثة بحيث
 ابتدأها من الوسط وهكذا . فعدم خروجه عن دائرة الغزل ربما يدل على قصور
 خياله، لان الشاعر الكبير الخيال يرى الف شيء، ويفكر فيما حوله من الموجودات
 ويعمل على تصويرها وابتزازها بشكل جميل . والانسان يرى غير حبيبه ويشعر
 بغير الحب ، اذ ليس ذلك كل ما في الحياة اللهم الا أن يكون شاعراً متياً مجنوناً
 بحبيبته، غارقاً في بحار عشقه لا يرى ولا يعقل غير ذلك . وليست هذه حال ابن
 سهل لان جنون الحب غير ظاهر في شعره، فانه على الرغم من اقتضاره على تغزله
 بحبيبه موسى تجده في كلامه ساكناً عاقلاً ، مستعملاً للكلام أحياناً . والظاهر
 ان موسى حبيبه رمز على عشقه ان كان عاشقاً عشقاً صحيحاً، أو ضرب من ضروب
 الفكاهة والظرف، لانه كان يهودياً فأراد أن يذكر اسم موسى في شعره ويرمز به
 عن عشقه، أو لعله اتخذ موسى هذا داعياً من دواعي الشعر فأخذ يتغنى باسمه
 أما هذا الاكثار من الغزل والضرب على نغمة واحدة وعدم الخروج عن

هذه الدائرة، فلا يدل الا على قصور باع الشاعر وضيق الخيال لديه كما قلنا، وانه ليس شاعراً واسع التصور والخيال

لهذا يكفي لمعرفة شعر ابن سهل أن تقرأ له قصيدة واحدة، فان كل قصائده تكاد تكون كلها متساوية في المعنى والجودة والأسلوب. وربما ظهرت قيمته في شعره على أثر قراءة قصيدة أو قصيدتين أو ثلاث، وأعجب الانسان بأسلوبه وبيانه، فاذا أكثر من قراءة شعره انطفأ لهيب هذا الاعجاب شيئاً فشيئاً، ثم أحس القارئ انه شاعر ككل الشعراء. وسبب ذلك تكرار المعنى الواحد بأسلوب واحد

ولكنه مع هذا كله شاعر مجيد في نوعه، يتغزل فيذكر في غزله كثير من معاني العشق المختلفة، فيصف حبيبه بالجمال والكمال، ويصف ألمه ويشكو ويلتذ منه، ويبين كامن عواطفه وما هو في نفسه، ويعن في ذلك حتى يأتي بشيء من المعاني المبتكرة والخيالات التي له. كقوله:

واني لثوب السقم أجدر لابس	وموسى لثوب الحسن أملح مرتدى
تأمل لظى شوقى وموسى يشبها	تجد خير نار عندها خير موقد
دعوه يذب نفسى ويهجر ويجهد	تروا كيف يمتاز الجمال ويمتدى
إذا مارنا شزرا فمن لحظ أحور	وان يلو اغراضاً فصفحة أعيد
وعسذب بالى نعم الله باله	وسهدنى لاذاق بلوى التسهد
تطلع واللاحى يلوم فراغى	وكدت وقد أعدرت يسقط فى يدى
وناديت لا اذ قال تهوى وانما	رمانى فكانت لا افتتاح التشهد
أيا طيب سكر الحب لولا جنونه	محالذة النشوان سكر المعربد
شكوت مجازاً للطبيب وانما	طبيبى سقام من لواظ مبعدى

فقال على التأنيس : طيبك حاضر فقلت نعم لوأنه بعض عودى
وقال شكاً سوء المزاج وانما به سوء بخت من هوى غير مسعد
بكيت فقال الحسن هزأاً أتشتري بماء جفون ماء نثر منضد
وقد يبت شجوه وهواه بعبارات وجدانية صرفة ، ويصف حبيبه بصفات
جميلة ، ويشبهه بالزهر ، ويقارن بين لحظة في السقم وجسمه في السقم ، ويتنل في
السؤال ويتمنى الموت ، لعل حبيبه يزور قبره . وكأنما يريد أن يتسلى بهذا الكلام
أو يفخر بهذه الصناعة ، أو يثبت لنفسه شيئاً من البراعة في قول الشعر ، لأنه يشبه
في شعره رجلاً متصنعاً لا عاشقاً مخلصاً . حيث يقول :

حكي لحظة في السقم جسمي واغتدى لنا ثلثاً في ذاك ميثاق عهده
وأركبني طرف الهوى غنج طرفه وأشرقني بالعذب اشراق خده
وأغرى فؤادي بالاسى روض آسه وأوردني ماء الردى غص ورده
يعارض قلبي بالخفوق وشاحه ويحكي امتداداً زفرتي ليل صده
وما المسك خال من هوى خاله وان غدا الند منه مستهماً بنده
وقد يصور يأسه بأشد ما يكون ، ولكن بارق اسلوب وأسهل عبارة ، وكأنه
كلام فطرى لا خيال شعري . كما في قوله :

تدنيك زور الامانى منى وتنأى طلابا
كأننى حين أبغى رضاك أبغى الشبابا
وأشهى منك ذنباً أبغى عليه العتابا
حتى اذا كان ذنب فتحت للعذر بابا
ظلمت منك لوعد فكان وردى السرابا
لاخاب سؤلك أما سؤلى لديك نفايا

ولقد يرق في أسلوبه حتى يخيل اليك أن الكلام نثر لا شعر ، وأنه ليس فيه

أدنى كلمة ، وكأنما يعترف الكلام اغترافا . وهو مع ذلك يحىء بالتشبيه الجميل
والمعنى الرقيق . كقوله:

سَل في الظلام أخاك البدر عن سهرى	تدرى النجوم كما تدرى الورى خبرى
أبيت أهتف بالشكوى وأشرب من	دمعى وأنشق ريا ذكرك العطر
حتى أخيل أنى شارب ثمل	بين الرياض وبين الكاس والوتر
من لى به اختلفت فيه الملاحه اذ	أومت الى غيره إيماء مختصر
معطل فالخلى منه محلاة	ينغى الدراري عن التقليد بالدر
بجده لفؤادى نسبة عجب	كلاهما أبدا يدمى من النظر
وخاله نقطة من غنج مقلته	أنى بها الحسن من آياته الكبر
جاءت من العين نحو الخلد زائرة	وراقها الورد فلستغنت عن الصدر
بعض المحاسن يهوى بعضها طربا	تأملوا كيف هام الضنج بالخور

وربما وصف حبيبه بأوصاف الرياض والبساتين ، فتخاله زهرة يانعة غضة ،
أو غصنا يتحرك ، أو زهرة تتألق . كقوله:

من لى بأن يدنو بعيد مزاره	ظبي طلوع الفجر من أزراره
كالغصن فى حركاته وقوامه	كالظبي فى لحظاته ونفاره
فى الروض منه محاسن ومشابه	فى آسه وبهاره وعراره
فعراره من لحظه وبهاره	من خده والآس نبت عذاره
وعلقته وسنان يلعب بالهوى	كتلاعب الساقى بكأس عقاره

ثم يتكلم عن ذله واعراض حبيبه عنه ، وهو يتمنى قربه منه ويصف ما يصيبه
من الآلام وما له من الشغف به ، ويعجب من أمره فى ذلك اذ يقول :

يا حسنه لو كان يرحم صبه	وجاله لو كان من زواره
الف التعجنى والبعاد شريعة	فالنجم أقرب من دنو مزاره

أومى الىّ بلحظه فتناثرت خيالاته فى الخلد من أشفاره
لما أراق دم المشوق تعمداً اسود نقط الخلال من أوزاره
واذا أقول عسى وليت وربما فقال لا للصب من أخباره
فالخلد يفرق فى معين دموعه والقلب يصلى فى جحيم اواره
عجباً لضد كيف يآلف ضده هذا بادمه وذاك بناره

وقد يذكر اجتماع النقيضين بينه وبين حبيبه ، ويجول خياله فى ذلك جولانا
يدعو الى الاعجاب كقوله :

ضللت بالبدر على نوره والناس يستهدون بالبدر
أبطل موسى السحر فيما مضى وجاء موسى اليوم بالسحر
مستحسن الاوصاف ممنوعها فلا ترّمه بسوى الفكر
كلما فى السحب وكالدرفى الاص سداً والشادن فى القفر
لو أنه عنّ لحرورية القته بين السحر والنحر
ولو دعا ميتاً بالفاظه اذاً للباه من القبر
درّ ثناياه والفاظه فلقبوه الكوكب الدرّى
وعوذوه العين بل عوذوا من عينه الناس هوى يسرى
كأنما الخلال على خده سواد قلبي فى لظى الجمر
ومن أحاديثه الغرامية قوله :

أشمس فى غلالة أرجوان وبدر طالع أم غصن بان
ونفر ما أرى أم نظم در ولحظ ما حوى أم صارمان
وخد فيه تفاح وورد عليه من العقارب حلاصان
ويعذلنى العواذل فيه جهلا عزيز ما يقول العاذلان
فقالوا عبد موسى قلت كلا فقالوا كيف ذا قلت اشتدائى

فقالوا هل عليك بذا ظهير	فقلت نعم علىّ وشاهدان
فقالوا هل رضيت تكون عبدا	لقد عرضت نفسك للهوان
فقلت نعم أنا عبد ذليل	لن أهوى نفلوني وشاني
بنفسي من يفديني بنفس	جعلت فداه لما ان فدائي
سألتك حاجة أن تقضها لي	فقال نعم قضيت وحاجتان
فقلت أشم من خديك وردا	فقال وما تضم الوجنتان
فقلت أخاف صدغك أن يراني	وما أنا من لحاظك في أمان
فقال أعاشق ويخاف رميا	جئنت وما عهدتك بالجبان
كذاك الصب يعذر كل صب	تحكم ما تشاء وفي ضمائي
فكان تحكما لا وزر فيه	أيكته علىّ الكاتبان
أديرا الراح ويحكمنا سلافا	فان دارت علىّ فعاطيان

وله كلام جميل في الوصف يدل على أنه كان يحب الجمال وفيه ، وانه كان للرياض وما بها أثر في نفسه ، وان الالوان كانت تحرك اعجابه ، وان مياه الأنهار وضوء الشمس والطيور والجو وما فيه هذبت من خياله . كقوله :

الارض قد لبست رداء أخضرا	والطل ينثر في رباه جوهرا
هاجت نفلت الزهر كافورا بها	وحسبت فيها التبر مسكا أذفرا
وكان سوسنها يصفح وردها	نفرا يقبل منه وردا أحمر
والنهر ما بين الرياض تخاله	سيفا تعلق في نجاد أخضرا
وجرت بصفحتها الربا فحسبتها	كفا ينمق في الصحيفة أسطرا
وكانه اذ لاح ناصع فضة	جعلته كف الشمس تبرا أصفرا
والطير قد قامت به خطباؤه	لم تتخذ الا الاراكة منبرا

وقال أيضا يصف :

أنظر الى لون الأصيل كأنه لا شك لون مودع لفراق
والشمس تنظر نحوه مصفرة قد خشت خذا من الاشفاق
لاقت بحمرتها الخليج فالفا خجل الصبا ومدامع العشاق
سقطت أوان غروبها محرة كالكأس خرت من أنامل ساقى

وقال في الوصف أيضاً :

شفق وشته خضرة في حمرة فكأنه خد الحبيب معرضا
والشمس تنظر نحوه مصفرة قد شمرت ذيل الوداع لتنهد
كالصبح حين رأى عذار حبيبه لما بدا فسلا وولى معرضا

وله في وصف الخمر كلام رقيق يشبه كلامه في الوصف . كقوله :

بهل الكأس تزهو بين صبغ واشراق أذوب فيها الورد أم وجنة الساق
كؤوس تحيها النفوس كأنها حديث تلاق في مسامع عشاق
إذا قتلوها بالمزاج ليشربوا عاشوا مناهم بين موت . واخلاق
تثور كأن الماء يلعب صرفها فصوت المغنى مثل هينمة الراقى
وله موشحات سند كرها في بابها

هذه صورته ابن سهل ، وهي صورة شاعر وصاف يجيد الوصف ، وغازل يجيد الغزل ، ووجداني لا يخرج عن دائرة وجدانه ، ومصور بارع لما يرى ويسمع قليل الآراء ، قاصر الخيال ، لكنه مبدع في الأسلوب ، متقن في الكلام ، لا يشعر الانسان بادنى ملل في قراءة كلامه وهو في كل ذلك خفيف الروح مطرب معجب . وكفى بذلك دليلا على جمال قوله ونصيبه في الافتنان .

الفتح بن خاقان^(١)

إذا تكلمنا عن الفتح بن خاقان فإنما نتكلم عن كتبه التي ذكر فيها كثيراً من علماء الأندلس وأدبائهم ، وجمع فيها جملة صالحة من منظومهم ومنشورهم ، وشيئاً يسيراً من أخبارهم . وهي «قلائد العقيان» و«مطمح الأنفس» . وقد دل ابن خاقان في كتبه على سعة اطلاعه ، وكثرة أدبه ، ومعرفته التامة برجال الأدب في الأندلس ، مما لم يكن متيسراً لغيره . حتى أن أكبر كتب الأدب في الأندلس كثيراً ما تنقل عنه . فقد نقل عنه المقرئ في نفع الطيب وذكره في أكثر من ستين موضعاً . ومع أنه كان معاصراً لابن بسام صاحب الذخيرة فقد نقل عنه هذا في كتابه . فكتبه من أمهات كتب الأدب في الأندلس .

أما طريقته في الجمع والتأليف ، فهي خالية من كل صبغة تاريخية علمية ، من

١ هو أبو نصر الفتح بن محمد بن عبد الله بن خاقان القيسي الأشبيلي صاحب قلائد العقيان . نشأ في الأندلس ودخل إلى بلاد المغرب واتصل بملوكها وكتب لبني تاشفين وألف كتابه «قلائد العقيان» لأبي اسحاق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين وصدره باسمه . ثم حدث أن وشى به من وشى ونالت منه الأعداء ، فأشار أمير المسلمين أبو الحسن علي بن يوسف بن تاشفين بقتله فذبح بمدينة مراکش بالفندق سنة خمس وثلاثين وخمسمائة . وقد كان مشهوراً بالخلاعة والمجون ، حتى أخذوا عليه ذلك وعرف بما لا يليق به . ولعل هذا من الأسباب التي جعلت ملوك البرابرة يحقدون عليه حتى قتلوه . وكان جواباً للآفاق ينتقل من مكان إلى آخر ، ولم يعرف عنه شيء كثير في كتب التراجم . ولم نجد له ذكراً إلا في ابن خلكان ذكره في نحو نصف صفحة . ولم يذكره المقرئ في نفع الطيب بغير الاقتباس من كلامه في المطمح وغيره . على أن الفتح بن خاقان لا يفتق ذكره بما له من الفضل ، وما أفاض به على الأدباء بكتبه قلائد العقيان ومطمح الأنفس . ولا شك في أن هذه الكتب من أنفع ما كتب عن الأندلس

حيث التحقيق والتدقيق في الرواية والجمع. بل هي طريقة الرواية والحفظ لاغير .
لان ما رواه كان معروفا ومشتتا فجمعه هو في كتابيه ، كما أشار الى ذلك في خطبة
كتابه مطمح الأنفس^١

نقل أخبار العلماء والادباء كما كان معروفا عنهم . وقد ينقل الخبر
بدون أى تصرف فيه ، سوى وضعه في قالب معروف له . وأما معنى بتحسين
العبرة وتسجيعها ، وجمع الألفاظ ورصفها ، مما لا يقدر عليه كل انسان . فيترجم
المكاتب أو الأديب ، وهو في أكثر ما يقول مادح لا غير ، وكأنما هو ناقل
للفضائل لا يرى غيرها . ولقد يذكر لك الرجل فلا تعرف في أى سنة كان
يميش ، ولا في أى عصر كان معروفا . وربما ذكر معه أسماء لبعض الادباء أو
العلماء ، وربما لم يشر الى تاريخ ما للعالم أو الأديب على ماله من الشهرة. ولعله كان
يعتمد على شهرته ويكتفى بها عن ذكر تاريخه كما في كلامه على ابن حزم الظاهري^٢
وفي هذه الترجمة من التقصير شيء كثير . فانه لم يذكر ابن حزم الا بذكر
كتبه بدون أى اشارة الى محتوياتها . ولم يذكر شيئا عن تاريخ حياته ، حتى
يمكن أن يعرف معرفة تامة ، أو معرفة صحيحة . وليس لهذه الترجمة شيء من
القيمة العلمية ، لانها لا تفيد شيئا عن ابن حزم . وهذا يدل على ان ابن خاقان
لم يكن يعنى بما يكتبه عناية رجل محقق ، ولا عناية رجل يشعر بالواجب عليه ،
ذلك الواجب على كل مؤلف أو باحث من حيث الاطلاع والتنقيب عما يريد

١ قال : انه كان بالاندلس أعلام فتنوا بسحر الكلام ، ولقوامه كل نحية وسلام ، فثعشعوا البدائع
وروقوها ، وقلدوها بمحاسنهم وطوقوها ، ثم هوى في مهاوى المنايا ، وانطوا بأيدي الرزايا ،
وبقيت ماآثرهم غير مثبتة في ديوان ، ولا جملة في تصنيف أحد من الأعيان ، تجتلي فيه
العيون وتجتني منه زهر الفنون ، الى أن أراد الله اظهار اعجازها... خللت من الوزير ابى
الماص ونديني الى أن أجمعها في كتاب... فاجيت رغبة الخ

٢ أنظر المطمح صفحة ٥٥

أن يكتب. والظاهر انه كان يرمى الى الجمع فقط ، بل لم يكن يميل مطلقا الى النقد ولا الى أن يكون له رأى خاص

ومها قيل من ان الناقل يحب أن يكون أميناً ، وليس عليه تبعه شئ في النقل ، فان النقل يحتاج الى تمحيص وفكر ثابت ، لتمييز الصحيح من غيره . والفكر النقدي يظهر أثره في كل شئ . ولكن لم يظهر لصاحب قلائد العقيان أى أثر سوى الاسلوب . ليس لنا أن نلومه على أسلوب السجع الذى أكثره متكلف ، لان هذه كانت حالة الكتابة هناك ، وهكذا كانوا يكتبون . ولكن الذى تأخذه على صاحب قلائد العقيان هو هذا الأسلوب الاجوف ، وهذه المبارات المنتفخة الفارغة من كل معنى ، وان احتوى على معنى من المعانى اختفى ذلك تحت ستار الألفاظ الطنانة ، وذهبت جِدَّة اللفظ بتذوق المعنى ، واشتغل القارئ بصورة الألفاظ عن العناية بما فيها من المعانى . فلقد يشير فى كلامه الى بعض الناس ، بما يدل على شئ من أخلاقهم ، ويفيد القارئ والباحث ، ولكن عنايته بالألفاظ ، وتناسق السجع ، قد يكون حاجزا منيعا بين القارئ ومعانى المؤلف ، كما فى ترجمة سعيد بن منذر البلوطى ، وهى من التراجم الوافية فى المطمح ومن نماذج كتاباته^١

١ قال فيه أية حركة فى سكون ، وبركه لم تكن مددة ولا تكون . وآية سفاهة فى تحلم ، وجهامة ورع فى طي تبسم واذا جد تجرد واذا هزل نزل ، وفى كلتا الحالتين لم ينزل للورع عن مرقب ، ولا اكتسب انما ولا احتقب . ولى قضاء الجماعة بقرطبة أيام عبد الرحمن وناهيك من عدل أظهر . ومن فضل اشتمر ، ومن جور قبض ، ومن حق رفع ، ومن باطل خفض . وكان مهيباً طيباً صارماً غير جبان ولا عاجز . واستمر فى القضاء الى ان مات الناصر لدين الله ثم ولى ابنه الحكم فأقره وفى خلافته تولى بعد أن استغنى مراراً فما أعنى فلم يحفظ عليه مدة ولايته قضية جور ، ولا عدت عليه فى حكومته ذلة . وكان غزير العلم كثير الأدب متكلماً بالحق متيناً بالصدق . له كتب مؤلفة فى السنة والقرآن والورع والرد على أهل الآمواء والبدع . وكان بليغاً وشاعراً محسناً ولد سنة ثلاث وعشرين ومائتين عند ولاية المنذر بن محمد وتوفى يوم الخميس لليلتين بقيتا من ذى القعدة سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة . (مطمح صفحة ٣٧)

على ان ابن خاقان أجاد في أساليب السجع اجادة قد تنقل الكلام المنور الى مرتبة الشعر المتعمل ، فيستولى بأسلوبه هذا على القراء لبراعته فيه ، ولأثره الشخصي في هذه الصناعة ، وقدرته على الاسترسال في ذلك ، مع ما فيها من كثرة المترادفات .

على أن هذه الصناعة اللفظية كان لها أثر عظيم في نفسه من حيث ادراك الجمال في القول ، والبحث عن مواقفه . فكان يرتفع أحيانا بعباراته الى أن تدب في النفس وتملأها إعجابا ، وتذكر القارئ بأثر جمال الالوان والرياح والزهود ، كما في خطبة قلائد المقيان

ولقد يتكلف في غير حاجة سوى تمكن ملكة التكلف من نفسه فيهبوش على القارئ ، كما في ترجمة ابن عيشون . فان ترجمته لهذا الرجل لا يعرف منها شيء غير رحلته الى المشرق ، ولكن أين ومتى ؟ وكأنما كان يكتب لمن يعرف الحوادث مثله ، فقد قال فيه : « رجل حل المشيدات والبلاقع ، وحكي النسرين الطائر والواقع ، واستدر خلقي البؤس والنعيم ، وقعد مقعد البائس والزعيم ، قاوثة في سباط ، وأخرى بين درائك وأنماط ، ويوماً في ناموس ، وآخر في مجلس مأنوس . رحل الى المشرق فلم يحمد رحلته ، ولم يعلق بأمل نحلته ، فارتد على عقبه ، ورد من حباله الفوت الى منتظره ومرقبه ، ومع هذا فله تحقق في الأدب ، وتدفق طبع اذا مدح أو نسب ^١ »

هذا هو أسلوب الفتوح في التأليف والكتابة ، وهو على ما فيه من الآثار

١ وقال أخبرني أنه دخل مصر وهو سار في ظلم البوس - عار من كل لبوس - قد خلا من النقد كيسه ، وتحلى عنه الا تقديره وتنكيسه ، فزل بأحد شوارعها لا يفترش الا تكده ، ولا يتوسد الا عضده ، وبات بليلة ابن عبد تهب عليه صرصره لا ينفج منها عنبر . ولا صندل لما كان من السحر ، دخل عليه ابن الطوفان وأشفق لحاله ، وفرط امحاله وأعلمه أن الأفضل استدعاه ، ولوارتادجوده بقطعة يثنيها له لا خصب مرعاه . فصنف له في حينه الخ (قلائد المقيان ص ٢٨٨)

النافعة لأدب الأندلس ، ومن صور اللغة العربية الدالة على أطورها في النثر ،
وعلى تمكن أساليب السجع من الكتاب في تلك الأيام ، وعلى ما فيه من الجمال
وبلاغة العبارة وعلى شيء من النظام العقلي لديهم ، لا يدل على شيء من
قوة الفكر لدى الكتاب الأدباء ، بل على أن اللغة في عزمجدها كانت غنية
بألفاظها لا بمعانيها ، وأن العناية بالأساليب سرت من المشرق الى المغرب ،
فلكت من الكتاب كل شيء . وقد دخل هذا الأسلوب في الكتب العلمية
والتاريخية ، كما هو معروف ، ودل كتاب العرب على قدرتهم في استعمال الأساليب
المختلفة والألفاظ المختارة مما ليس عند أمة أخرى
على أن فضل الفتح بن خاقان لا يخفى ولا ينكر بما جمعه في كتبه مما ليس
عند غيره

لسان الدين بن الخطيب

هو من أكبر وجوه العلم والأدب في آخر عصور العرب في الأندلس ، بل من أشهر من عرف هناك . وهو أبو عبد الله لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعيد المعروف بابن الخطيب الغرناطي الأندلسي . تنقلت أسرته في كثير من بلاد الأندلس واستقر أبوه في غرناطة . وهناك ولد لسان الدين وعرف واشتهر في بلاد المغرب بابن الخطيب الساماني . نشأ من بيت علم وفضل ، وتربى على حب العلم ، وورث من أبيه كثيراً من ذلك . وكان معجبا به وبعلمه وأدبه وأخلاقه !

ولد لسان الدين بمدينة غرناطة سنة ٧١٣ هـ . واتصل أبوه بملوك بني الأحمر وكان له شأن عظيم حين كانت غرناطة حافلة بالعلم وأهله من كل فن . فشب لسان الدين بين هؤلاء العلماء ، وانقطع إلى أفاضلهم وأخذ عنهم العلوم والآداب ، وكان من بين مشايخه الفلاسفة والأدباء والأطباء . تعلم الطب على أشهر علماء الأندلس وفلاسفتها في هذا العصر ، وبرع فيه وألف فيه كتابا سماه « الأصول لحفظ الصحة في الفضول » عده هو نفسه من أحدث طراز في ذلك الفن فقال « المعجب

١ فقد قال عنه كان رحمه الله تعالى زمر عزم ، ورجل أخاء وأزم تروق أنوار خلاله الباهرة ، وتضيء مجالس الملوك من صورته الباطنة والظاهرة ، ذكاء يتوقد ، وطلاقة يحسد بورها الفرقه ، وكانت له في الأدب فريضة ، وفي النادرة العذبة منادم عريضة ، تكلمت يوما بين يديه في مسائل من الطب وأنشدته أبياتاً من شعري ، فتهلل وابتهج ، وما برح أن ارتجل :
الطب والشعر والكتابة سياتنا في بني النجاسة
هن ثلاث مبلغات مراتبا بعضها الحجابة

حتى مع تأليف هذا الكتاب الذى لم يؤلف مثله فى الطب وعملى ذلك لا أقدر على مداواة داء الأرق الذى بى « ومها يكن من المبالغة فى كلامه فانه يؤخذ منه انه كان من علماء هذا الفن . وقد ألف كتباً أخرى فى ذلك . فكانت معلوماته متوافرة فى الفلسفة والطب ، وامتزج بالأدباء والفقهاء وأخذ عنهم علوم الدين من تفسير وحديث وفقه ، وتعلم العلوم العربية جميعها فكان عالماً وأديباً

هذه التربية العلمية الأدبية الممزوجة بميله للعلوم والفنون وهبته نشاطاً عقلياً فكان من المؤلفين المشهورين ، كثير الدرس والقراءة . ورسائله الأدبية ومقطوعاته الشعرية كثيرة جداً . حتى قالوا انه كان يؤلف كل هذه الكتب لأنه كان يأرق كثيراً

وقد اغترف من كل بحر قطرة ، وكتب فى كثير من الفنون المختلفة بين علمية وأدبية ، واطلع على أكثر ما كتب فى العلوم والفنون ، ولا سيما كتب التاريخ وبحسبه بعض العلماء من المؤرخين الكبار . فكان عقله خزانة علوم وآداب . وكان عالماً وفقهاً وشاعراً وكاتباً ، ولكنه لم يختص بفن ولم يتفوق فى شيء تفوقه فى الأدب ، حتى كان من أئمة . ورسائله كثيرة فى الجزء الثالث والرابع من نفع الطيب^١

لذلك كانت الصبغة الأدبية عليه أظهر ، والكتابة والشعر الصق به من غيرها ، فأجدر به أن يسمى أديباً لا عالماً . ولذلك أيضاً كتب فى كل نوع من أنواع الكتابة رسائل أدبية وسياسية وغيرها ، وهو فى كل ذلك واسع الخيال سديد الرأى ، حاد اللسان ، قادر على الاسترسال فيما يقول ، كثير الاطلاع على اللغة . فساعدته هذا كله على الاطالة فيها يكتب ويفكر ، وكان يحب الاطناب بطبيعته

١ اكتفينا بالإشارة الى رسائل لسان الدين والى شعره لأن ذلك كثير يدعو الى الحيرة فى الاختيار فملى القارئ أن يرجع الى الجزء الثالث والرابع من نفع الطيب

فاندفع وراء ذلك ، وهو مثلوج الصدر ، يعرض عليه خياله وفكره المعاني والألفاظ ، فلا يكاد يقف قلمه الا بعد أن يملأ من الفكر الصغير صفحات كبيرة . وكان قدر الكتابة عنده في الاكثار لا في الاجادة ، أو ان الاجادة كانت لا تفارق الاطالة لديه . وهذا كان أسلوب الكتاب في تلك الأيام . وكان يختار بجانب الاطالة السجع ، فكانت كتاباته لا تخلو من مللین : ملل الاطالة وملل السجع . وربما كان أعظم عيب في أسلوب ابن الخطيب تلك الاطالة المملة ، والسجع المتكلف . غير ان ملل الاطالة أسوأ من تكلف السجع . لذلك كثيرا ما يخفى عيب السجع لاختيار الكاتب الألفاظ . وهذه الطريقة دليل على انحطاط أسلوب النثر ، لان طريقة السجع ليست طبيعية ، ولسان الدين كان من أكبر رجال هذه الصناعة ، وربما انفرد بالمبالغة فيها . ويكفي هذا الأسلوب مقنناً أنه لا يقدر على قراءته كل انسان ، وانه لا يعيش الا في بطون الكتب ، ولا يصح أن يكون نموذجاً من نماذج اللغة الا للاستدلال على سيرها في أزمنة التاريخ .

ولكن ذلك لا يدفعنا الى جحود ما في هذه الرسائل من المعاني والأفكار الصحيحة ، أو من الشعور بان الكاتب يميل الى موضوعات كثيرة اجتماعية لم يطرقها كثير من الكتاب ، ككلامه في وصف المجالس والمحافل والمدن بالأوصاف الحقيقية ، والأسلوب القصصي الذي يسموه بالمقامات

أما شعره فكثير أيضاً ، وأكثره يدل على انه شعر رجل عالم من عشاق الشعر لا من رجاله الفنيين . وله قصائد طويلة تدل على سعة خياله ، أفضلها في ذلك موشحته الشهيرة التي أبدع فيها . وهي من أرق الشعر وأجمله . وقد طرق في شعره كثيراً من الموضوعات المختلفة والأساليب المتعددة ، فتجد الشعر الغزلي الرقيق ، والأسلوب الدقيق ، وتجد شعر الفقهاء ، وكلام الاتقياء ، وأسلوب

١ راجع هذه الموشحة والكلام عليها في باب الموشحات

العلماء ، وجفاف اللفظ والمعنى . على ان له كثيرا من القصائد الجميلة والمقطوعات الرقيقة .

أما حياته السياسية فقد اتصل بأحد ملوك بني الاحمر السلطان أبي الحجاج يوسف فأخذه في حاشيته ، وفي مقدمة كتابه . ثم جعله كاتبه الخاص وسلم اليه الوزارة وأمر الدولة وجعله سفيراً بينه وبين الملوك الآخرين . فكان اشتغاله بالسياسة من الأشياء التي فتحت عليه باب الكتابة في كثير من الموضوعات الاجتماعية والسياسية، على حسب ما كان يعلمه وما كان معروف في ذلك الوقت . ولما مات أبو الحجاج خلفه ابنه محمد بن أبي الحجاج ، فأقره على مكانه وأرسله الى ملوك افريقية ليستنجد بهم على أعدائه . وكانت الدولة في ذلك الوقت في اضطراب والناس بين مظلوم وظالم، وخارج على السلطان ومتملق له، وكل ذي نعمة محسود . فحسد لسان الدين . كثير من معاصريه وسعوا في الايقاع به . وكان قد خرج على محمد بن أبي الحجاج أخوه وتغلب عليه، فهرب ومعه ابن الخطيب ثم حوصر ، وقبض على لسان الدين ، واستباح السلطان كل أموالهما . ثم شفع لها سلطان المغرب . وأتى بهما الى فاس وأكرمهما . فجال لسان الدين في تلك البلاد ، وانتقل الى أماكن كثيرة واستقر هناك . ولما رجع الملك الى محمد بن أبي الحجاج عاد الى الأندلس وكان استكتب أبو محمد هذا في غيبة لسان الدين ابن زمرك ، أحد مشهورى الكتاب والعلماء ، ومن أكبر وأشهر تلاميذ لسان الدين . فتولى ابن زمرك ديوان الكتابة والتف حوله جماعة من الفقهاء والعلماء الذين كانوا يحقدون على لسان الدين ، لانه ظهر عليهم وملك الدولة منهم . فأرادوا أن يتخلصوا منه ويأخذوا الأمر بيدهم . فأخذوا في بث الدسائس وايقار السلطان عليه ، ولكن عند ما رجع لسان الدين الى الأندلس ارتفع شأنه ، وعرفه الناس في غيبته أكثر من معرفتهم له في حضرته . فحقد عليه تلميذه ابن زمرك ثانية، وأخذ عليه الفقهاء أشياء ينكرونها

وكانت العقول في ذلك الوقت ميالة الى الانحطاط ، لان البرابرة بشوا أفكارهم
السخيفة التي كانوا ينشرونها بجهلهم ، ونشروا كراهة العلوم الطبيعية والفلسفية . فأشاع
ابن زمرك عن لسان الدين انه كافر مارق ، وانه جاء في كتبه بكثير من المسائل
التي لا يبيحها الدين . فراجت هذه الوشائات عند السلطان وأثارت غضبه
ولما علم لسان الدين بذلك ، وعرف انه لا بد أن يُنال منه ، عزم على الهرب الى
افريقية بدعوى انه ذاهب في أمور تتعلق بالملكمة . ولكن عند ما ذهب الى
افريقية اتفق ملك المغرب على تسلمه لابن الأحمر ، فسجن في فاس وأقى الفقهاء
بقتله ، وودسوا عليه أحد القواد فخنقه في سجنه ودفن في فاس ثم أخرجت جثته
وأحرقت بالنار سنة ٧٧٦ هـ وهكذا انتهت حياة لسان الدين بن الخطيب بعد أن
ملأ الجو علماً وفضلاً وذاعت شهرته في المشرق والمغرب حتى كان أشبه بالجاحظ
في تأليفه من حيث اطلاعه الواسع وفضله الجم

الموشحات^(١)

بقى الشعر تابعاً لطريقة العرب في أغراضه وأوزانه ، إلى أن حدث في العقول مадعاها إلى الابتكار في العلوم والفنون . وكان الشعر من أقرب الأشياء إلى الألسنة ، وأكثرها انتشاراً في المجالس ، وأدعى إلى الانتقال من غيره ، لكثرة قائله وسامعيه والمتأثرين به ، واشتاله على كل مرافق الحياة . فتطلعت نفوس الفنين من شعراء وأدباء إلى الانتقال به من صبغته البدوية إلى شكل حضري أشبه بالبدادة في الجمال ، وإن يزوجوا به في مجتمعاتهم حتى يجاروا به القدماء في إلهاماتهم الجميلة وفطرتهم النقية ، وسداجتهم الفنية . فلم يفلحوا كثيراً في الخروج به عن أغراضه التي تكلم فيها القدماء ، مما هو ألصق بالصبغة الوجدانية منه بالصبغة الاجتماعية . ولكنهم زادوا في وجدانياته مما استدعته الحضارة ، من التوسع في الخمريات والعواطف من عشق وغيره ، ووصف المناظر الجميلة والحدائق المنصورة ، وكل ما استلزمته حالتهم من آثار المدنية والعمران . ذلك من جهة أغراضه .

١ راجع في الكلام على الموشحات مقدمة ابن خلدون والجزء الرابع من نفع الطيب طبع بولاق ص ٦٠٦ وما بعدها ودار الطراز لابن سناء الملك

Journal Asiatique. 1848. volume 2 page 248-251 et 3e. Serie volume 8 page. 155

والباب الثاني والسبعين من كتاب « المستطرف » تأليف شهاب الدين أحمد الأبهسي . والجزء الأول من « خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر » تأليف المولى محمد المحبى من ص ١٠٨ إلى ١١٠ وجاء في كشف الظنون طبع بولاق ج ١ ص ٣٦٧ « الدر المكنون في سبع فنون » لمحمد بن أحمد بن الياس الحنفى . رتب على سبعة أبواب في فن الاشعار البديعة وفن الموشحات والموااليا وفن الكاز وفن القوافي وفن الازجال . والخاتمة فيما قيل في الحقائق . أوله الحمد لله البديع فرغ في رجب سنة ٩١٢ ولم نثر على هذا الكتاب

أما من جهة أوزانه وصناعته ، فقد كانت الحال فيه أسهل . فابتكروا من الأوزان في الشعر والصناعة ما لم يبتكروه في المعاني والأغراض . وتوسعوا في ذلك حتى لقد يخيّل الى المطلع على الشعر العربي القديم والحديث أن هذا انقلاب عظيم ، وطور من الأطوار الحديثة التي تخطاها الشعر . ولكن ذلك أظهر ما يكون في الأوزان والقوافي ، والقوانين التي وضعوها في رقة الأسلوب ، وبعض الخيالات التي لم تكن معروفة . حتى أخذ الشعر العربي صبغة حديثة بما أدخل فيه من هذه الأنواع المختلفة الأوزان والتقاطيع ، الجارية على غير ما كان معروفاً فيه ، وخرجوا عن التقييد بنظام القوافي المعروف . قال ابن خلدون في « فصل أشعار العرب وأهل الأمصار لهذا العهد » : ولم فن آخر كثير التداول في نظمهم ، يحيئون به معصباً على أربعة أجزاء ، يخالف آخرها الثلاثة في رويته ، ويلتزمون القافية الرابعة في كل بيت الى آخر القصيدة ، تشبيهاً بالمربع والخمس الذي أحدثه المتأخرون من المولدين الخ .

وقسم بعض المتأخرين الأنواع التي حدثت في الشعر ، الى الشعر القريض والموشح والدوبيت والزجل والمواليات والكان وكان والقوما وغيرها وقالوا في ذلك :

« أول من نظم » الموشح « المغاربة ، وهذبه القاضي الاجل هبة الله بن سناء الملك . وتداوله الناس الى الآن . وسى موشحاً لان خرجاته وأغصانه كالوشاح له . وسبب تقدمه على ما بعده لاعرا به كالشعر . لكن يخالفه بكثرة أوزانه ، وثارة يوافق أوزان الشعر وثارة يخالفه . « والدوبيت » أول من اخترعه الفرس ونظموه بلغتهم ومعناه بيتان ، ويقال له الرباعي لأربعة مصاريعه . وقد اشتهر بأعجام داله وهو تصحيف . وهو ثلاثة أقسام يكون بأربع قواف كالموالية ، وأعرج بثلاث قواف ، ومردوفا بأربع أيضاً ، وكله على وزن واحد . وتقدم على ما بعده لاعرا به أيضاً . وأول من اخترع « الزجل » رجل اسمه راشد وقيل

أبو بكر قُزْمان^١ وهو في اللغة الصوت ، وسمى زجلا لانه يلتذ به ويفهم مقاطيع أوزانه ولزوم قوافيه حتى يفتنى به ويصوت . وهو خمسة أقسام ماتضمن الغزل والزهر والخمر وحكاية الحال ، يختص بالزجل ، وما تضمن الهزل والخلاعة ويقال له « بليق » وما تضمن الهجو والنكت ويقال له « حَاق » وما بعض ألفاظه معربة وبعضها ملحونة فاسمه « مَزِيلَج » وما تضمن الحكم والمواعظ فاسمه « المُكْفَر » بكسر الفاء المشددة . والأول أصعب هذه الخمسة . وقال مخترعه - قُزْمان : « لقد جردته من الاعراب كما يجرد السيف من القراب » . وسبب تقدمه على مابعدہ كثرة أوزانه وصعوبة نظمه وقربه من الموشح في أغصانه وخرجاته . وأول من اخترع « المواليا » أهل واسط وهو من بحر البسيط، اقتطعوا منه بيتين وقفوا شطر كل بيت بقافية، ونظموا فيه الغزل والمديح وسائر الصنائع على قاعدة القريض . وكان سهل التناول تعلمه عبيدهم والعلماء وصاروا يغنون به في رؤوس النخل وعمل سقى المياه، ويقولون في آخر كل صوت يامواليا ، إشارة الى ساداتهم ، فسمى بهذا الاسم . ولم يزل على هذا الاسلوب حتى استعمله البغداديون فلفظوه حتى عرف بهم دون مخترعه ، ثم شاع . وسبب تقدمه على كل مابعدہ لأنه من بحر القريض بحيث ينظم معربا على قاعدته . وأما « الكان وكان » فله نظم واحد وقافية واحدة ، ولكن الشطر الأول من البيت أطول من الثاني ، ولا تكون قافيته الا مردوفة . وأول من اخترعه البغداديون ، وسبب تسميته بهذا الاسم انهم لم ينظموا فيه سوى الحكايات والخرافات . فكان قائله يحكي ما كان ، الى أن ظهر لهم مثل الامام ابن الجوزي ، والواعظ شمس الدين الكوفي وغيرهما من فضلاء بغداد فنظموا فيه المواعظ والحكم . وسبب تقدمه على مابعدہ لأنه ينظم بعض ألفاظه

١ الصواب انه ابن قُزْمان وهو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن قُزْمان تولى سنة ٥٥٥ هـ له ديوان مخطوط في عاصمة روسيا يشتمل على أزجاله منه نسخة فتترافية بدار الكتب المصرية وراجع في الكلام عليه

معربة . وأما « القوما » فله وزن ، الأول مركب من أربعة أفعال ، ثلاثة متوازية في الوزن والقافية ، والرابع أطول منها وزناً ، وهو مهمل بغير قافية ، والثاني من ثلاثة أفعال مختلفة الوزن متفقة القافية ، يكون القفل الأول منها أقصر من الثاني ، والثاني أقصر من الثالث . وأول من اخترعه البغداديون أيضاً في الدولة العباسية برسم السحور في رمضان . وسمى بهذا الاسم من قول المغنيين بعضهم لبعض « قوما لنسحر قوما » فغلب عليه هذا الاسم . ثم شاع ونظموا فيه الزهري والحري والعتاب وسائر الأنواع . وأول من اخترعه أبو نقطة للخليفة الناصر ، وكان يعجبه ويطلب له . وجعل لأبي نقطة عليه وظيفة في كل سنة . ولما توفي أبو نقطة كان له ولد صغير ماهر في نظم القوما ، فأراد أن يعرف الخليفة بموت والده ليحجبه على مفروضه ، فتعذر عليه ذلك إلى رمضان . ثم جمع أتباع والده ووقف أول ليلة منه تحت الطيارة وغنى التوما بصوت رقيق ، فأصغى الخليفة وطرب له . فلما أراد أن ينصرف قال له :

ياسيد السادات لك بالكرم عادات
أنا ابن أبي نقطة تعيش أبي قد مات

فأعجب الخليفة من هذا الاختصار ، فأحضره وخلع عليه وجعل له ضعف ما كان لأبيه والقوما والكان وكان لا يعرفها سوى أهل العراق وربما تكلف غيرهم نظمها . وكل بيت من القوما قائم بنفسه وأما تأخير فلهذا فلمدم اعرابه^١ .
واشتهر من هذه الأنواع في الأندلس ما هو معروف « بالموشحات »^٢ وأصل

١ راجع خلاصة الاثر في أعيان القرن الحادي عشر ج ١ ص ١٠٨
٢ قالوا في مخترع هذه الموشحات انه مقدم بن معافى الفريرى ؟ من شعراء الأمير عبد الله ابن محمد المرواني وأخذ عنه عبد الله احمد بن عبد ربه صاحب العقد الفريد . هكذا في مقدمة ابن خلدون . وجاء في الذخيرة في الكلام على الأديب ابن بكر عبادة بن ماء السماء المتوفى سنة ٤٢٢ هـ ... سلك إلى الشعر مسلكا سهلا . فقالت له غرابته مرحباً وأهلاً ، وكانت صنعة التوشيح التي نهج أهل الأندلس طريقتها ، ووضعوا حقيقتها غير مرقومة البرود ، ولا منظومة المقود ، فأقام عبادة هذا مآذها . وقوم ميلها وسنادها ، فكانها لم تسمح بالأندلس إلا منه ، ولا

الكلمة من الوشاح، وهو عقد من لؤلؤ وجوهر منظومين مخالف بينهما مطوف أحدهما على الآخر، تتوشح المرأة به، والشبه بين الموشحات والوشاح ظاهر في اختلاف الوزن والقافية في الأبيات وجمعها في كلام واحد كما سنرى .

وقد دعاهم الى ذلك حب الابتكار والميل الى الجمال والرفاهية حتى في أوزان الشعر وطرقه . فمزجوا بين الأوزان المختلفة والقوافي المتعددة في قصيدة واحدة . وربما ألفوا بين وزن مخترع ووزن معروف . وربما اخترعوا أوزانا مختلفة ونظموا عليها قصيدة واحدة . وقد يلحنون كلامهم هذا ويفنون به ، لما فيه من خفة الوزن وروعة اللفظ . وقد ذكر ذلك ابن خلدون في مقدمته فقال :^١

«وأما أهل الاندلس فلما كثرت الشعر في قطرهم، وتهذبت مناحيه وفنونه، وبلغ التتميق فيه الغاية، استحدث المتأخرون منهم فناً منه سموه بالموشح، ينظمونه أسماطاً أسماطاً، وأغصاناً أغصاناً . يكثر منها ومن أعاريضها المختلفة، ويسمون المتعدد منها بيتاً واحداً، ويلتزمون عدد قوافي تلك الأغصان وأوزانها متتالياً فيما بعد الى آخر القطعة. وأكثر ما ينتهي عندهم الى سبعة أبيات. ويشتمل كل بيت على أغصان، عددها بحسب الأغراض والمذاهب . وينسبون فيها ويمدجون كما يفعل في القصائد. ويتجاوزون في ذلك الى الغاية، واستظرفه الناس وجملة الخاصة

أخذت الاعنه وأول من صنع أوزان هذه الموشحات بافتنائها بلغى محمد بن حمود العمري الضريرو كان يضعها على أشطار الأشعار، غير أن أكثرها على الأعاريض المهمة غير المستعملة يأخذ اللفظ العامي والمعجمي فيسيه المركز . ويضع عليها الموشحة دون تغيير فيها ولا أغصان وقيل ان ابن عبد ربه صاحب العقد أول من سبق الى هذا النوع من الموشحات

ثم نشأ يوسف بن هرون الرمادي فكان أول من أكثر فيها من التضمين في المراكز يضمن كل موقف يقف عليه في المركز خاصة ، فاستمر على ذلك شعراء عصره كسكرم ابن سعيد وابن أبي الحسن . ثم نشأ عبادة فأحدث التصغير وذلك انه اعتمد على مواضع الوقف في الأغصان فيضمها كما اعتمد الرمادي مواضع الوقف في المركز

١ اخترنا نقل عبارة ابن خلدون في الموشحات لأنها من أجمع ما قيل فيها وقد أخذنا هذا عن نفح الطيب عند كلامه على الموشحات

والكافة لسهولة تناوله ، وقرب طريقه . وكان المخترع لها بجيزة الأندلس مقدم
ابن معافر الفريرى القبرى 'من شعراء الأئمة عبد الله بن محمد المروانى، وأخذ عنه ذلك
ابن عبد ربه صاحب العقد، ولم يذكرهما مع المتأخرين ذكر وكسدت موشحاتهما
فكان أول من برع فى هذا الشأن بعدما عبادة القزاز شاعر المعتصم بن صواح
صاحب المرية . وقد ذكر الأعم البطلوسى أنه سمع أبا بكر بن زهر يقول كل
الوشاحين عيال على عبادة القزاز فيما اتفق له من قوله :

بدرتم	شمس ضعى	غصن نقا	مسك شم
ما أتم	ما أوضحا	ما أوقا	ما أتم
لا جرم	من لحا	قد عشقا	قد حرم

وزعموا أنه لم يسبق عبادة وشاح من معاصريه الذين كانوا فى زمان ملوك
الطوائف . وجاء مصليا خلفه منهم ابن أرفع رأسه شاعر المأمون بن ذى النون
صاحب طليطلة . قالوا وقد أحسن فى ابتدائه فى الموشحة التى طارت له حيث يقول
العود قد ترنم بأبدع تلحين وشقت المذائب رياض البساتين
وفى انتهائه حيث يقول :

تخطر ولا تسلم عساك المأمون مروع الكتائب يحيى بن ذى النون
ثم جاءت الحلبة التى كانت فى مدة الملمين فظهرت لهم البدائع ، وفرسان
حلبتهم الاعمى التطيلي ثم يحيى بن بقرى والتطيلي من الموشحات المذهبة قوله
كيف السبيل الى صبرى وفى العالم أشجان
والركب وسط الفلا بالخرّد النواعم قد بانوا

١ قد اختلفوا فى هذا الاسم فى مقدمة ابن خلدون الفريرى وفى الذخيرة محمد بن محمود أو محمود المسمى
وفى فوات الوفيات ترجمة عبادة ابن ماء السماء (ج ١ ص ٢٥٤) محمد بن محمود أو ابن جود المقبرى الضير
وهو ناقل عن الذخيرة وفى تفج الطيب فى الكلام على الموشحات نقلا عن ابن خلدون مقدم
ابن معافر القبرى وفى مقدمة ابن خلدون طبع باريس صفحة ٣٩٠ جزء ثالث مقدم بن
معافرا ومعارف والتبيري بدل الفريرى أو التبيري وهو خلط بدل على تحريف هذا الاسم

وذكر غير واحد من المشايخ أن أهل هذا الشأن بالأندلس يذكرون أن
جماعة من الوشاحين اجتمعوا في مجلس باشبيلية ، وكان كل واحد منهم قد صنع
موشحة وتأنق فيها، فتقدم الأعمى التطيلي للانشاد، فلما افتتح موشحته المشهورة
بقوله :

ضاحك عن جمان سافر عن بدر

ضاق عنه الزمان وحواه صدرى

خرق ابن بقی موشحته وتبعه الباقر . وذكر الأعمى البطليوسى أنه سمع
ابن زهر يقول ما حسدت قط وشاحا على قول الابن بقی حين وقع له
أما ترى أحمد في مجده العالى لا يلحق
أطلعـه المغرب فارنا مثله يامشرق

وكان في عصرهما من الوشاحين المطبوعين أبو بكر الأبيض ، وكان في
عصرهما أيضا الحكيم أبو بكر بن باجه صاحب التلاحين المعروفة. ومن الحكايات
المشهورة أنه حضر مجلس مخدمه ابن تيفلويت صاحب سرقسطة فألقى عليه
بعض موشحته : جرر الذيل أيما جر . فطرب الممدوح لذلك وختما بقوله

عقد الله راية النصر لأمير العلا أبي بكر

فلما طرق ذلك التلاحين سمع ابن تيفلويت صاح واطرباه ، وشق ثيابه ، وقال
ما أحسن ما بدأت وما ختمت . وحلف الأيمان المغلظة أن لا يمشى ابن باجة
لداره الأعلى الذهب. تخاف الحكيم سوء العاقبة فاحتال بان جعل ذهباً في نعله
ومشى عليه . ثم قال ابن خلدون بعد كلام . واشتهر بعد هؤلاء في صدر دولة
الموحدين محمد بن أبي الفضل بن شرف . الى أن قال وابن هردوس الذى له :

باليلة الوصل والسعود بالله عودى

وان مؤهل الذى له

ما العيد في حلة وطاق وشم طيب وأما العيد في التلاق مع الحبيب
 وأبو اسحق الدويني . قال ابن سعيد سمعت أبا الحسن سهل بن مالك يقول
 انه دخل على ابن زهر وقد أسن وعليه زى البادية ، اذ كان يسكن بمحصن سبته فلم
 يعرفه ، فجلس حيث انتهى به المجلس ، وجرت المحاضرة أن أنشد لنفسه موشحة
 وقع فيها .

كحل الدجى يجرى من مقلة الفجر على الصباح
 ومعصم النهر في حلل خضر من البطاح

فتحرك ابن زهر وقال أنت تقول هذا ؟ قال اختر . قال ومن تكون ؟ فأخبره .
 فقال ارتفع فوالله ما عرفتلك . قال ابن سعيد وسابق الحلبة التي أدركت هو أبو بكر
 ابن زهر ، وقد شرقت موشحاته وغربت . قال وسمعت أبا الحسن سهل بن مالك
 يقول لابن زهر لو قيل لك ما أبدع ما وقع لك في التوشيح ؟ فقال كنت أقول :

ماللمو له من سكره لا يفيق ياله سكران
 هل تستعاد أيا مننا بالخليج وليالينا
 اذ يستفاد من النسيم الاريح مسك دارينا
 واذا يسكاد حسن المكان الهيج أن يحيينا
 نهر أظله دوح عليه أنيق مؤنق فينان
 والماء يجرى وعائم وغريق من جنى الريحان

واشتهر بعده ابن حيون . الى أن قال : وبعد هؤلاء ابن حزمون بمرسيه . ذكر
 ابن الرامس أن يحيى الخزرجي دخل عليه في مجلسه فأنشده موشحة لنفسه ، فقال
 له ابن حزمون ما الموشح بموشح حتى يكون عاريا من التكلف . فقال علي مثل
 ماذا ؟ فقال علي مثل قولي :

ياها جرى هل الى الوصال منك سبيل

أو هل يرى عن هواك سال قلب العليل

وأبو الحسن سهل بن مالك بغرناطه، قال ابن سميء كان والدى يمجيب بقوله

ان سيل الصباح في الشرق عاد بجرأ في أجمع الافق

فتداعت نوادب الورق أتراها خافت من الفرق

فبكت سحرة على الورق

واشتهر بأشبيلية لذلك العهد أبو الحسن بن الفضل. قال ابن سميء عن والده

سمعت سهل بن مالك يقول له يا ابن الفضل لك على الوشاحين الفضل بقولك

أوا حسرتي لزمان مضى عشية بان الهوى وانقضى

وأفردت بالرغم لا بالرضا وبت على جمرات الغضى

أعاقق بالفكر تلك الطلول وأثم بالوهم تلك الرسوم

قال وسمعت أبا بكر بن الصابوني ينشد الاستاذ أبا الحسن الدباج موشحاته

غير مامرة ، فما سمعته يقول لله درك الافي قوله .

قسما بالهوى لذى حجر ما لليل المشوق من فجر

خذ الصبح ليس يطرد ما لليلي فيما أظن غد

صح يا ليل انك الابد

أو نقصت قوادم النسر فنجوم السماء لا تسرى

ومن موشحات ابن الصابوني قوله

ما حال صب ذي ضنى واكتئاب أمرضه يا وليلتاه الطبيب

عامله محبوبه باجتساب ثم اقتدى فيه الكرى بالحبيب

جنى جفونى النوم لكننى لم أبكه الا لفقد الخيال
وذو الوصال اليوم قد غرنى منه كما شاء وشاء الوصال
فلست باللائم من صدنى بصورة الحق ولا بالمحال
واشتهر ببر العدو ابن خلف الجزأرى صاحب الموشحة المشهورة
يد الاصباح قدحت زناد الأنوار من مجامر الزهر
وابن خزر البجائى وله من موشحه

نفر الزمان موافق حباك منه بابتسام
ومن محاسن الموشحات موشحة ابن سهل شاعر اشبيلية وسبته من بعدها قوله :
هل درى ظلى الحمى أن قد حى قلب صب حله عن مكنس
فهو فى حر وخفق مثل ما لعبت ربح الصبا بالقبس»
هذه نماذج الموشحات مما ذكره ابن خلدون . ونعود فنقول : ان سبب
اختراع الموشحات فى الأندلس ما تولد فى النفوس من رقة وميل الى الخلاعة
والدعابة فى الكلام ، وفى نوع التعابير وشعور الناس من أدباء وشعراء بضرورة
الخروج من الاوزان القديمة المعروفة ، لضيق تلك الأوزان عن احتمال عبث
الشعراء بالشعر على حسب أهوائهم

والعقول اذا مالت الى التغيير مالت الى الابتكار وحب الجديد . لذلك سئم
الناس طريقة الشعر القديمة المعروفة ، وحاولوا ابتكار شئ جديد ، فاخترعوا تلك
الاوزان لتساعدهم على ما يريدون من الكلام فى مجبوحة اللهو والطرب والرقص
وانشاد الشعر بطريقة خفيفة على النفس . فوجدوا ذلك أدعى الى تحريك النفوس
فابتدؤا أولا بالاوزان العربية الخفيفة المعروفة ، كالرمل والهرج والمقطوعات وغير
ذلك ، وغيروا فيها القافية . وولدوا من ذلك الموشحات وأباحوا لأنفسهم التغيير
فى الوزن والقافية . فاخترعوا من الأوزان مالا قاعدة له . ثم توسعوا فى هذه الاوزان

وتفننوا فيها ، وأودعوا هذا النوع الجديد من الشعر ميولهم وأهواءهم . واشتغل بذلك الظرفاء والادباء فشمل هذا الشعر كل أنواع اللهو والتسلى . ثم عشى في نفوس جميع الناس حتى أصبح نوعاً من أنواع الشعر العام . فنظم على أسلوبه الحكماء والفقهاء عبارات الوعظ والحكم ، ومنهم التقى المشهور والصوفى المعروف محيي الدين بن العربي

ثم نخطى هذا النوع من بلاد الأندلس الى بلاد البربر وغيرها من بلاد المشرق وكثير من البلاد الاسلامية ، فنبت شعراء كثيرون في هذا النوع . وانبعث هذا الكلام من نفوس العامة ، وأمن الآراء والافكار التي كانت تدور في رؤوس كثير من الناس ، فنظمها كبار الشعراء . وما زالت العامة تجذب الخاصة اليها ، وتدفعها الى التعبير عن أفكارها المنتشرة الدائرة في نفوسها وعلى ألسنتها ، سواء أكانت من طريق الكلام أم من طريق الأغاني ، حتى قربت الموشحات من لغة العامة وصارت من كلامهم وأناشيدهم . وكلما قربت من العامة بعدت عن اللغة العربية الفصحى وعن الشعر العربي . لذلك كان ظهور نفوس العامة وحالتهم العقلية في الموشحات أكثر وضوحاً منه في الشعر العربي الفصيح

فلا غرو أن نجد في الموشحات خلطاً بين الشعر العربي الصحيح والكلام العامي الملحون ، لأن أصلها مأخوذ من الشعر العربي ، لذلك لا تخلو من أثره في الصناعة والأخيلة والأسلوب وقواعد العروض . كما تتخلل ذلك عبارات عامية ، وأحياناً يتمشى الشاعر على غير قواعد اللغة . فنجد أبياتاً غير عربية وعبارات غير معربة . فليست الموشحات عربية صرفة ولا عامية بحتة ، بل يمكن أن يقال إنها شعر عربي ، ولكن في غير الأسلوب الشعري العربي الصميم وصناعته المعروفة .

وقد كان للموشحات أن تحدث في الشعر نوعاً جديداً لو لم يقصر الشعراء

ابتكاراتهم على الديباجة والوزن والقافية . ولكنهم لم يخرجوا عن الموضوعات والمعاني المعروفة قبلهم عند شعراء العرب . فلم يتكلموا في الموضوعات العامة الاجتماعية ولم يخرجوا فيها عن التعبير عما يجول بالنفوس من مسائل العشق والغرام وما يشبهها كما قلنا . لأنهم أرادوا أن يتغنوا بذلك . ثم أوغلوا في التعبيرات الشخصية وبعض هذه التعبيرات لا يمكن أن تؤدي المعنى المقصود إلا بلهجة خاصة ، فاضطروا الى استعمال بعض العبارات العامة . ثم توسعوا في ذلك حتى تعددت هذه اللهجات وكثير منها لهجات عامية لا يتذوقها كل من يعرف العربية الفصحى . ومن هذا تطرقوا الى الزجل ذلك الشعر العامي المعروف .

فالמושحات علامة من علامات الانتقال في الشعر العربي، لأنها حادث جديد في الأدب ، ولكنها علامة من علامات انحلال وحدة اللغة العربية وضياها أيضاً ، اذ لو كان لها أن تنتشر انتشاراً عاماً في جميع البلدان لادت الى انتشار اللغة العامية في كل قطر ، فتصبح كل أمة ذات شعر خاص ولهجة خاصة ، يصعب فهمها على غيرها من الأمم . الأخرى . على ان لذلك ميزة وهي ان العامة يفهم من لغتها الخاصة أكثر مما تفهم من اللغة الفصحى . ولكن هذا يدعو كما قلنا الى انحلال الوحدة اللغوية

وقد ذكر ابن سناء الملك في كتاب له سجاد « دار الطراز في صناعة الموشحات وأنواعها » . كلاماً عن الموشحات وأنواعها وهو أجمع كتاب في ذلك فرأينا أن ننقل منه جزءاً عظيماً قال .

١ وجاء في كشف الظنون . در الطراز « لا دار الطراز » لابن القاسم هبة الله بن حمفر المصري المتوفى سنة ٦٨٠ (راجع كشف الظنون ج ١ ص ٣٦٠ طبع بولاق)

« ... الموشح كلام منظوم على وزن مخصوص . وهو يألف في الأكثر من ستة أفعال وخمسة أبيات، ويقال له التام. وفي الأقل من خمسة أفعال وخمسة أبيات ويقال له الأقرع . فالتام ما ابتدئ فيه بالأفعال ، والأقرع ما ابتدئ فيه بالأبيات. فنال التام موشح الأعمى وهو

ضاحك عن جمان سافر عن بدر ضاق عنه الزمان وحواه صدرى

فهذا الموشح ابتدئ بقفلة. ومثال الأقرع

سطوبة الحبيب أحلى من جنا النحل

وعلى الكئيب أن يخضع للذل

أنا فى حروب مع الحدق النجل

ليس لى يدان يا حور فتان من رأى جفونه فقد أفسدت دينه

فهذا الموشح ابتدئ بيته . والأفعال هي أجزاء مؤلفة ، يلزم أن يكون كل قفل منها متفقاً مع بقيتها في وزنها وقوافيها وعدد أجزاءها . والأبيات هي أجزاء مؤلفة مفردة أو مركبة، يلزم في كل بيت منها أن يكون متفقاً مع بقية أبيات الموشح في أوزانها وعدد أجزاءها ، لا في قوافيها . بل يحسن أن تكون قوافي كل بيت منها مخالفة لقوافي البيت الآخر . والقفل كما تقدم يتردد في الموشح ست مرات في التام وخمس مرات في الأقرع . وأقل ما يتركب القفل من جزئين فصاعداً إلى ثمانية أجزاء وعشرة أجزاء . ولم أجد للمعاربة منه ما أنق بنسبه، فلها لم أذكر مثالا منه. والبيت لا بد أن يتردد في التام وفي الأقرع خمس مرات . وأقل ما يكون البيت ثلاثة أجزاء . وقد يكون في النادر من جزئين . وقد يكون من ثلاثة أجزاء ونصف . وهذا لا يكون إلا فيما أجزاءه مركبة . وأكثر ما يكون خمسة أجزاء . والجزء من القفل لا يكون إلا مفرداً ، والجزء من البيت قد يكون مفرداً وقد يكون مركباً

والمركب لا يتركب الا من فقرتين أو ثلاث فقر، وقد يتركب في الأقل من أربع فقر. وسنكتب هاهنا مثالا لكل مذكرناه ليتلخص ويتشخص وينتقل ماتدركه بالقول سماعاً الى أن تراه بالخط عياناً. فأمثلة الاقفال:

القفل المركب من جزئين

شمس قارنت بدرا راح وسديم

المركب من ثلاثة اجزاء

حلت يد الأمطار أزرة النوار فيأخذاني

المركب من أربعة اجزاء

أدر لنا أكواب ينسى بها الوجد واستحضر الجلاس كما اقتضى الود

المركب من خمسة أجزاء

يا من أجد ويبخل على شعي وافتقاري أهواك وعندى زيادة منها شاره

المركب من ستة أجزاء

ميتات الدمن أحيين كربى وهل يتمكن عزالقلي مت يا عزاه شاه

المركب من سبعة أجزاء

الموشح المعروف بالعروس، وهو ملحون، واللحن لا يجوز استعماله في شيء من

ألفاظ الموشح الا في الخرجة خاصة. ولهذا لم نورد مثالا

المركب من ثمانية أجزاء

على عيون العين نعى الدرارى من شغف بالحلب
واستعذب العذاب والتذ حاليه من أسف وكرب

وقد ينسدر في بعض الموشحات الشاذة التي لا يعول عليها أن تكون أقفالها
مختلفة أعداد الاجزاء كل موشح الذي أوله : بابي علق بالنفس علق
وهذا الموشح لعبادة ، فان قفله الأول جزءان ، وبقية أقفاله ثلاثة. وسبأني في
هذا الموشح منسوقا في جملة ما نذكر من الموشحات التي ذكرت الأمثلة منها.
فأني أذكر في آخر هذه الاوراق كل موشح ذكرت المثال منه ، ليكون أنس
المتعلم بها أكثر ، وعلمه بها في نفسه أرسخ .

أمثلة الأبيات

أمثلة ما أجزأوه مفردة : ما هو منها على ثلاثة أجزاء
أرى لك مهند أحاط به الأئمة فجرد ماجرد
فيا ساحر الجفن حسامك قطاع
ما هو منها على أربعة أجزاء

قد باح دمي بما أكتبه وحن قلبي لمن يظلمه
رشا تمرن في لافه كم بالمني أبدا أئتمه
يفتر عن لؤلؤ متسق من للأقاح بنسيمه العبق
أمثلة الأبيات التي أجزأوها مركبة
ما تركب من فقرتين وثلاثة أجزاء .

أقم عذرى فقد آن أن أعكف
على خمر يطوف بها أوطف
كما تدرى هضم الحشى مخطف
أذا ماماد في مخضرة الأبراد رأيت الآس بأوراقه قد ماس

ماتركب من فقرتين وثلاثة أجزاء ونصف
من أودع الاجفان صوارم الهند
وأثبت الريحان في صفحة الخد
قضى على الهيمان بالدمع والسهد
أنى وللكمان للهايم المغرم بدمع نم اذ يسجم بما يكتم
من السر في عاطل جال عزيز ساط على بالدعج
ماتركب من فقرتين وأربعة أجزاء

ماحوى محاسن الدهر الاغزال
معروف الجدين من فهر عم وخال
نسبته للنابل الغمر وللنزال
فأنا أهواه للفخر وللجمال
وجهه وجه طليق للضيوف مشرق ويد تسطو على الاسد فتفقد
ماتركب من فقرتين وخمسة أجزاء

هن الظباء الشمس قنيصهن الضيفم
ما ان لها من كنس الا القلوب الهيم
القرب منها عرس والبعد عنها ماتم
تلك الشفاة اللعس يحيا بهن المغرم
لها لحاظ نعس ترنوا الى من تسقم
بأعين الغزلان وتبتسم عن جوهر الاسماط
قضى لها الغيران ان تكتتم في مضمر الانباط

وقد يندر في بعض الموشحات ما يكون بيته جزأين مركبين من فقرتين وهو
شاذ جداً وهو

باكر الى الخمر واستنشق الزهرا
فالعمر في خسر مالم يكن سكرا
فقلما أسلو عن مرشف الاكواس
وساحر الطرف مساعد الجلاس
فسقي.....نى بنت الرياحين

ماتركب من ثلاث فقر وثلاثة أجزاء

من به الى يرنو بمقلتي ساحر الى العباد
ينأى به الحسن فينثنى نافر صعب القياد
وتارة يدنو كما أحسنى الطائر ماء النباد
فجيده أغيد والحد بالخال منق تكتمه الحجب فلى الى الكلة تشوق
ماتركب من أربع فقر وثلاث أجزاء

بأبى ظبي حى تكفه أسد أغيل
مذهبي رشف لى قرقه سلسيل
يسبى قلبى بما يعطفه اذ يميل
ذو اعتدال يعزى الى ذى نعمة ثابت
فى ظلال تحت حلى قطر الندى بات

والخرجة عبارة عن القفل الأخير من الموشح. والشرط فيها أن تكون
حجاجية من قبل السخف ، فزمانية من قبل اللحن ، حارة محرقة حادة منضجة ،
من ألفاظ العامة ولغات الخاصة ، فان كانت معربة الألفاظ منسوجة على منوال
ما تقدم من الأبيات والأقوال ، خرج الموشح من أن يكون موشحاً ، اللهم إلا أن
كان موشح مدح وذكر المدوح فى الخرجة فانه يحسن أن تكون الخرجة معربة
كقول ابن بلى

أما يحیی سلیل الکرام واحد الدنیا ومعنی الانام
وقد تكون الخرجة معربة وان لم يكن فيها اسم المدوح، ولكن بشرط أن
تكون ألفاظها غزلة جداً، هزاة سحابة خلافة بينها وبين الصباية قرابة. وهذا
معجز معوز، وما يوجد منه في الموشحات سوى موشحين أو ثلاثة، كقول ابن بقي:
ليل طويل ولا ممين يا قلب بعض الناس أما تلين
فمن قدر أن يقول هكذا فليعرب والا فليغرب. والمشروع بل المفروض في
الخرجة أن يجعل الخروج إليها وثبا واستطرادا، وقولا مستعارا على بعض السنة
الناطق والصامت، أو على الأغراض المختلفة. وأكثر ما يجعل على أسنة الصبيان
والنسوان والسكري والسكران. ولا بد في البيت الذي قبل الخرجة من قال أو
قلت أو قالت أو غنى أو غنيت أو غنت فمما جعل على لسان الحمام قول عبادة
ان الحمام في أيكما تشدو

قل هل عليم أو هل عهد أو كان كالمعتصم والمعتضد ملكان
ومما جعل على لسان الغرام قول ابن بقي
أنا وأنتا أسوة هذا الهجر
بالصبر بتنا عند انصداع الفجر
ومذ رحلتنا غنى الجوى في صدرى
سافر حبيبي سحر وماودعتوا يا وحش قلبي في الليل إذا افكرتوا
ومما استعير على لسان الهيجا قول عبادة

فالهيجا تغنى والسيف قد طرب

ما أملح العساكر وترتيب الصفوف والابطال تصيح الواثق يا جدد

والموشحات تنقسم قسمين: الاول ما جاء على أوزان أشعار العرب والثاني

ملا وزن له فيها ولا الماس . له بها والذي على أوزان الاشعار ينقسم قسمين
أحدهما مالا تتخلل أقفاله وأبياته كلمة تخرج تلك الفقرة التي جاءت فيها تلك
الكلمة عن الوزن الشعري . وما كان من الموشحات على هذا النسخ فهو
المرذول المخذول، وهو بالخمسات أشبه منه بالموشحات، ولا يفعله الا الضعفاء من
الشعراء . ومن أراد أن يتشبه بما لا يعرف، ويتشبع بما لا يملك، اللهم الا ان
كانت قوافي قفله مختلفة فانه يخرج باختلاف القوافي الاقوال، فيقال من الخمسات
كقول بعضهم

ياشقيق الروح من جسدى أهوى بى منك أم لم
فهذا من المديد وكقول الآخر

أيها الساقى اليك المشتكى قد دعوتك وان لم تسمع
فهذا من الرمل وفي شجيان الوشاحين والطعابين فى صدور الاوزان من
يأخذ بيت شعر مشهوراً ويجعله خرجة، ويبنى موشحه عليه، كما فعل ابن بقی في
بيت ابن المعتز وهو

علمونى كيف أسلو والا فاحجبوا عن مقلتى الملاحا
فان ابن بقی جعله خرجة لموشحه، وسيأتى ذكره . وفي الوشاحين من أهل
السطارة والدعارة من يأخذ بيتاً من أبيات المحدثين ويجعله بألفاظه فى بيت من
أبيات موشحه، كما فعل ابن بقی فى بيت كشاجم قال:

يقولون تب والكأس فى كف أغيد وصوت المثنى والمثلث على
فقلت لهم ان كنت أضمرت توبة وأبصرت هذا كله لبدالى
فقال ابن بقی

قالوا ولم يقولوا صوابا
أفريت فى المجون الشبابا
فقلت لو نويت متابا

والكأس في يمين غزالي والصوت في الثالث عال لبدالى
والقسم الآخر ماتخلت أبياته كلمة أو حركة ملتزمة كسرة كانت أو
ضمة أو فتحة عن أن يكون شعراً صرفاً وقريضاً محضاً، فنال الكلمة قول ابن بقل
صبرت والصبر شيمة العاني ولم أقل للمطيل هجراني معذبى كفاني
فهذا من المنسرح وأخرجه منه «معذبى كفاني» ومثال الحركة هو أن يجعل
على قافية في وزن ويتكلف شاعرها أن يعيد تلك الحركة بعينها وبقافيتها. كقوله
ياويج صب الى البرق له نظر وفى البكاء مع الورق له وطر
فهذا من البسيط والتزام إعادة القافية في وسط وزن على الحركة المحفوضة
هو الذى أشرنا اليه .

والقسم الثانى من الموشحات هو مالا مدخل لشيء منه فى شيء من أوزان
العرب وهذا القسم منها هو الكثير والجمل الغفير، والقدر الذى لا ينحصر والشارد
الذى لا ينضب

والموشحات تنقسم من جهة أخرى الى قسمين قسم اقفاله وزن أبياته حتى
كأن آخر الايات من آخر الاقفال كقول الاعمى
أحلى من الامن يرتاح من قربى ويفرق فى وجهه سنة يشجى بها العذول ويشرق
الله ما أقرب على محبه وأبعدا
خلو اللى أشب آسا الضنا فيه وأسعدا
أحب به أحب ويا تجنيه طال المدا
أما ترى حزنى نارا على قلبى تحرق حسبى بها جنة يامام ياما يا ظل يارونق
وقسم اقفاله مخالفة لاوزان الايات مخالفة تبين لكل سامع ويظهر طمها
لكل ذائق كقول بعضهم

الحب يجنيك لذة العذل واليوم فيه أحلى من القبل
لكل شيء من الهوى سبب جد الهوى بي وأصله اللعب

وإن لو كان . جد يغنى كان الاحسان من الحسن
والموشحات تنقسم من جهة أخرى الى قسمين : قسم لا يبياته وزن يشركه
السمع ويعرفه الذوق ، كما تعرف أوزان الأشعار ولا يحتاج فيها الى وزنها
بميزان العروض وهو أكثرها. وقسم مطرب الوزن مهلهل النسخ مفكك النظم
لا يحس الذوق صحته من سقمه ولا دخوله من خروجه كالوشح الذى أوله

أنت اقترأحى لا قرب الله الواحى
من شاء أن يقول فأنى لست أسمع خضعت فى هواك وما كنت لاخضع
حسبى على رضاك شفيع لى مشفع
نشوان صاحى بين ارتياح وارتياح

والموشحات تنقسم من جهة أخرى الى قسمين قسم يستقل التلحين به ولا
يفتقر الى ما يعينه عليه وهو أكثرها، وقسم لا يحتمل التلحين ولا يمشى الا بأن
ميتوكاً على لفظة لا معنى لها تكون دعامة للتلحين وعكازاً للمغنى كقول ابن بلى :
من طالب نار قتلى ظبيات الحدوج فتانات الحجيح
فان التلحين لا يستقيم الا بأن يقول لا لا بين الخبرين الجيمين من
هذا القفل

ومما سنه القوم فى أكثر موشحات المدح أن يحتم الموشح بالغزل ويخرج
من المدح اليه ، كما خرج اليه منه ، وهذا هو الاكثر من عملهم والاطهر من
مذهبهم ومنه قول الأعمى

حلوا المجانى ماضره لو أجنانى كما عنانى وجدى به وعثانى
فانه ابتداء بالغزل ثم خرج الى المدح ثم ختم بالغزل ؛ والموشحات يعمل فيها
ما يعمل فى أنواع الشعر من الغزل والمدح والرثاء والهجو والمجون والزهد. وما كان
منها فى الزهد يقال له المكفر والرسم فى المكفر خاصة أن لا يعمل الا على وزن

موشح معروف قوافي ألقاه، ويختم بخرجة ذلك الموشح ليدل على أنه مكفر
ومستقبل ربه عن شاعره ومستغفره

الموشح التام^١

الموشحات المغربية على طريق الأمثلة

ضاحك عن جمان	سافر عن بدر	ضاق عنه الزمان	وحواه صدرى
آه مما أجعد	شغنى ما أجعد		
قام بي وقعد	باطش متعد		
كلما قلت قد	قال لي أين قد		
وانثنى خط بان	ذا مهر نضر	عابثة يدان	للصبا والقطر
ليس لي منك بد	خد فؤادى عن يد		
لم تدع لي جلد	غير انى أجهد		
مكرع من شهد	واشتياق يشهد		
ما لبنت الدنان	ولذاك الثغر	أين محيا الزمان	من محيا الحر
بي هوى مضمر	ليت جهدى وقفه		
كلما يظهر	ففؤادى افقه		
ذلك المنظر	لا يداوى عشقه		
باني كيف كان	فلكي درى	راق حتى استبان	عذره وعذرى
هل اليك سبيل	أو الى أن أياسا		
ذبت الا قليل	عبرة أو نفسا		
ما عسى أن أقول	ساء ظنى بعسى		

١ هذه الموشحة للاعشى التطيلي راجع ص ١٦٨ و ص ٢٢٧

واقضى كل شأن وأنا خالما من عنان جزعى وصبرى
 ما على من يلوم لو تناهى عنى
 هل سوى حبريم دينه التجنى
 أنا فيه أهيم وهو بى يغنى

الموشح الأقرع

سطة الحبيب أحلى من جنا النحل
 وعلى الكئيب أن يخضع للذل
 أنا فى حروب مع الحدق النجل
 يس لى يدان يا حور فتان من رأى جفونه فقد أفسدت دينه
 ينبغى التجنى لمثلك فى الأنس
 لو قبلت منى تهت على الشمس
 غاية التمنى هلم الى الانس
 أنت مهرجاني وخذك بستانى غط ياسينه ان الناس يجنونه
 خطط الوزير بخطط ايشار
 فأنهى السرور الى غير مقدار
 ردت الأمور الى أسد ضار
 ثابت الجنان صفوح عن الجان قد حى عرينه بالزرق المسنونة
 خل كل متين الى الحق منقاداً
 من رأى بعين فى ذا الخلق من سادا
 كأبى الحسين وينديه من جادا
 كل ذى امتنان لا بل كل هتان رام أن يكونه جوداً فأنى دونه

أظهر المقام في الغربة حرمانا
فأنا ألام أسرار واعلانا
قلت والكلام يصرح أحيانا
فزت بالأمانى ماجاد باحسان صاحب المدينة أعلى الله تمكينه
المركب قفله من جزءين

شمس قارنت بدراً راح ونسيم
أدر كؤوس الخمر عنبرية النشر ان الروض ذو بشر
وقد درّج النهر هبوب النسيم
وسلت على الافق يد الغرب والشرق سيوفا من البرق
وقد أضحك الزهرا بكاء الغيوم
الا أن لى مولى تحكم فاستولى أما انه لولا
دمع يفضح السرا لكنت كتوم
أنى لى كتمان ود معى طوفان شبت فيه نيران
فمن أبصرا الجرا فى الح يعوم
اذا لامنى فيه من رأى تبحيه شدوت أغنيه
لعل له عنдра وأنت تلوم

المركب قفله من ثلاثة أجزاء

حلت يد الامطار ازرة النوار فيأخذانى
اشرب طاب الصبوح فى ذا اليوم
فى روضة تفوح لدى الغيم
قد أشرقت تلوح لدى القوم

ووجه ذا النهار مغطا بنهار من الدجن
 هذا الهوى يجور فما صنعى
 قد ضاق يامنصور به ذرعى
 اذ ليس لى نصير سوى دمعى
 فياضعف انتصارى اذا دمعى انصارى على حزنى
 ظلمت اذ بعدت عن الصب
 فعد كما قد كنت الى قربى
 غدرت ونفرت في حاجى
 أفديك من عذار يدين بالنفار ولا يدنى
 محبوبى هب رضا كا وخذ عمرى
 وعسلنى لما كا من الثغر
 بما حوت عينا كا من السحر
 برد غليل نارى وشم ظبا الاشفار لا تقتلنى
 لما أطال حزنى ولم برحم
 وزاد فى التجنى وما سلم
 شدوته أغنى غنا مغرم
 حبيبى أنت جارى دارك بجانب دارى وتهجرنى

الموشح المختلف الاقفال

بأبى علق بالنفس علق
 هويت هلالا فى الحسن فريدا أعار الغزالا الحاظا وجيدا
 وتاه جمالا لم يسغ مزيدا بدر يتلالا فى حسن اعتدال

زانه رشق	والقد رشيق	
بدر يتغلب	بالسحر المبين	عذار معقرب
سوسان مكتب	بورد مصون	لما لاح يسحب
	عنّلى خلق	بالعشق خليق
جفائى يعيش	لوقفى عليه	لو بالنفس ريش
للحسن جيوش	على مقلتيه	واللحظ المريش
	فله مشق	والقلب مشوق
تعمد هجرى	مذ دنت بوده	وبددت صبرى
ما الحسن يجرى	بصفحة خده	ثنايه تبرى
	فمه حق	باللثم حقيق
لما أن سريل	ثوب الحسن زيا	أردت أقبل
فقال تمثّل	بالشعر أيا	ومال تدل
	أنا قول قوقو	ليس بالله تدوقو

الموشع الذى بيته ثلاثة أجزاء مفردة

أأفردت بالحسن أم خلقتك ابداع
أرى لك مهند أحاط به الأئمة فجرد ماجرد
فيا ساحر الجفن حسامك قطاع
ايا فتنة القلب خف الله فى صب قتل من الحب
تمنيه بالمزن وبرقك خداع

ما تركب بيته من فقرتين وثلاثة أجزاء

كذا يقتاد سنا الكوكب الوقاد الى الجلاس مشعشة الاكواس
أقم عذرى فقد آن أن أعكف

على خمر يطوف بها أوطف
كما تدرى هضم الحشا مخطف
إذا ما ماد في مخضرة الأبراد رأيت الآس بأوارقة قد ماس
من الأنس وان زاد في النور
على الشمس وبدر الديجور
له نفسى وما نفس مهجور
غزال صاد ضراغة الآساد بلحظ جاس خلال ديار الناس
جلا الاجلاك بنور الهدى مرآه
فا الافلاك تدير سوى عليها
كذا الاملاك عبيد عبيد الله
فمن أراد قياسك بالاجحاد فجها قاس سنا الشمس بالنبراس
لك الفضل وانك من آله
رأى الكل بكم نيل ماله
فا يخلو من ينشد فى حاله
منى عباد بكم نحن فى أعياد وفى اعراس لاعدمتم للناس
ما تركب بينه من ثلاثة أجزاء ونصف
من أودع الاجفان صوارم الهند
وانبت الريحان فى صفحة الخلد
قضى على الهيمان بالدمع والسهد
أنى وللكتمان الهائم المفرم مدمع نم اذ يسجم بما يكتم
من السر فى عاطل حال غزير ساطع على بالدعج
يا بأبى أحور كالبدرفى التم

يقتري عين جوهر مستعذب اللثم
وخده الازهر يدمى من الوهم
فكيف أن أعذر وقد سرى أرقم على عند فلا يلثم وقد حكم
من السحر لقتل أبطال مع الأنباط جيش من الزنج
أجز للنور كصاحب الطور
ككبر ديجور في قد خيزور
كفصن بلور في دعص كافور
بنفس مهجور أفدى وان يتم ففى مخم ثنايا فم قد نظم
من الدر راحى وسلسالى على أسماط عطريه الفلج
الحسن موقوف عليك يا احمد
والأمر مصروف اليك يا غيد
عبدك مشغوف فيك ومستعبد
امتك تعنيف أو منك أن ترجم وان نحرم ضنا مغرم اذا يسقم
فواأسرى فى بحر أوجالى بعيد الشاطئ أمسك بالموج
وغاده تبدو كالبدر فى السعد
أما لها النهد فى غصن رند
أوراقها البرد أينع بالورد
باتت وهى تشدوا حبيبي أهجم وقم واعزم وقبل فم وجى وانضم
الى صدرى وقم بخلخالى

الموشح الذى يتركب بيته من جزئين مركبين فى فقرتين

باكرالى الخمر واستنشق الزهرا فالعمر فى خسر مالم يكن سكر
فقل ما أسلو عن مرشف الاكواس وساحر الطرف مساعد الجلاس

فسقيني بنت الزراجين

فهاتها صرفا يا ذا الرشا الاحور راح حكك وصفا من خدك الاقر
رشاهو النبيل والعدل بين الناس والمسك في العرف من نفعه الانفاس
فداريني عن مسك دارين

كم لامن في نذل من العذل لما رأى فيه ميلا الى وصلي
وانما العذل فما به من باس رضا به يشفي ويكثر الايناس
فهنوني لست بمغبون

للطرف في الفتك اثار معنى والمز في الملك عز سليبي
يهابه الكل خوط القنا المياس يثنى على الحقف مثل قضب الآس
من اللين ينقد عن لدن
لله ما اهوى خوداً تغنيه

باحث بها الشكوى عمداً لتغنيه
أنت المنى تحلو فترك كلام الناس
وادخل معي الفى مثل الشراب في الكاس
يا كنونى كما تسلينى

المركب قفله من ستة أجزاء

الراح في الزجاجة أعاياها خد النديم حمرة الورد
واستوهبت نسيه فهجنت نشر العبير مع شذا الند

ما همت بالحيا الا وقد سقتنى

مليحة الحيا مليحة الثنى

والحسن قد تها فيها بلا تان

أذكي بها سراجها رأيت في الليل البهم شعلة الزند
لأنها اعليمة تاهت على البدر المنير وهو في السعد

ان التى الام فيها على غرامى
 لقدها قوام كالفصن فى القوام
 لغرها نظام كالمقد فى النظام
 لريقها مجاجه كالمسك فى طيب الشميم كجنا الشهد
 وعينها السقية وسنانه من الفتور لا من السهد
 تزيد فى بلائى والنفس تشبهها
 ولا أرى درائى الابريق فيها
 قالت لاصدقائى وقد ضئيت فيها
 احى الهوى مزاجه دعوه من طب الحكيم فالدوا عندى
 محبوبتى حكيمة تطفى برمان الصدور حرقه الوجد
 كم فى الانام مثلى شفاؤها دواها
 وكم تريد قتلى ولم أرد سواها
 وقال لأئم لى لججت فى هواها
 طابت لى اللجاجة وقلت للأشجان دوى ما أنا وحدى
 ذو مهجة مقيمة فى القرب من ظبي غرير وهو فى البعد
 قلبى لها يتوق وقلبها يقول
 هيهات لا طريق هيهات لا وصول
 فقلت والمشوق يقنعه القليل
 « »

(انتهى ما جمعناه من كتاب دار الطراز لابن سناء الملك)

جملة من الموشحات^(١)

موشحة لسان الدين بن الخطيب

جارك الغيث اذا الغيث همي يازمان الوصل بالاندلس
لم يكن وصلك الا حلما في الكرى أو خلسة المختلس
اذ يقود الدهر أشتات المنى ينقل الخطو على ما يرسم
زمرأ بين فرادى وثنا مثل ما يدعو الوفود الموسم
والحيا قد جلل الروض سنى فثغور الزهر منه تبسم
وروى النعمان عن ماء السما كيف يروى مالك عن أنس
فكساه الحسن ثوبا معلما يزدهى منه بأبهى ملابس
في ليال كنت سر الهوى بالدجى لولا شمس الغور
مال نجم الكاس فيها وهوى مستقيم السير سعد الأثر
وطر مافيه من عيب سوى أنه مر ككلمح البصر
حين لذ الانس شيا أو كما هجم الصبح هجوم الحرس
غارث الشهب بنا أو ربما أثرت فينا عيون الترجس
أى شيء لأمري قد خلصا فيكون الروض قد كفن فيه

(١) راجع طائفة من الموشحات فيها يأتي
فوات الوفيات للصالح الكتبي جزء أول ص ٣٢، ٦٣ — ٦٧، ٩٨، ٢٣٧، ٢٥٥
وجزء ثانى ص ١٣٩، ١٦١، ٢٤٣، ٢٦٧، ٣١١، ٣٢٠، ٣٥٤، ٣٢٥
٣٧١ — ٣٨٥، ٣٧٨، ٤٠٤
وفى نفح الطيب طبع أوروبا جزء أول ص ٣٠١ وجزء ثانى ص ٣٠٤، ٣٢٤، ٤١٧،
٥٩٠، ٥٩١، ٥٩٢، ٥٨٠، والجزء الرابع طبع بولاق في الكلام على الموشحات
والمندارى المائسات في الأزجال والموشحات طبع بيروت

تنهب الازهار منه الفرصا
 فاذا الماء تناجى والحصا
 تبصر الورد غيورا برما
 وترى الآس ليبياً فها
 يا أهيل الحى من وادى الفضى
 ضاق عن وجدى بكم رحب الفضى
 فأعيدوا عهد أنس قد مضى
 واتقوا الله واحيوا مفرما
 حبس القلب عليكم كرما
 وبقلى منكم مقرب
 قرأطلع منه المغرب
 قد تساوى محسن أو مذنب
 ساحر المقلّة معسول اللى
 سد السهم وسمى ورمى
 ان يكن جار وخاب الامل
 فهو للنفس حبيب أول
 أمره معتمل ممتثل
 حكم الحظبها فاحتسب
 منصف المظلوم ممن ظلما
 ماقلبنى كلما هبت صبا
 كان فى اللوح له مكتبا
 جلب الهم له والوصبا
 لاعج فى أضلئى قد أضرم
 لم يدع فى مهجى الا زما

أمنت من مكروه ما تنقيه
 وخلا كل خليل بأخيه
 يكتسى من غيظه ما يكتسى
 يسرق السمع بأذنى فرس
 وبقلى سكن أنتم به
 لا أبالى شرقه من غربه
 تعتقوا عانيكم من كربه
 يتلاشى نفساً فى نفس
 أقترضون عفاء الحبس
 بأحاديث المنى وهو بعيد
 شقوة المفرى به وهو سعيد
 فى هواه بين وعد ووعد
 جال فى النفس مجال النفس
 ففؤادى نهبة المفترس
 وفؤاد الصب بالشوق يذوب
 ليس فى الحب المحبوب ذنوب
 فى ضلوع قد براها وقلوب
 لم يراقب فى ضعاف الانفس
 ومجازى البر منها والمسى
 عاده عيد من الشوق جديد
 قوله ان عذابى لشديد
 فهو للاشجان فى جهد جهيد
 فى نار فى هشيم اليبس
 كبقاء الصبح بعد الغلس

واعمرى الوقت برجى ومتاب	سلمى يانفس فى حكم القضا
بين عتبى قد تقضت وعتاب	دعك من ذكر زمان قد مضى
ملهم التوفيق فى أم الكتاب	واصر فى القول الى المولى الرضا
أسد السرج وبدر المجلس	الكريم المنتهى والمنتى
ينزل الوحي بروح القدس	ينزل النصر عليه مثل ما
الغنى بالله عن كل أحد	مصطفى الله سعى المصطفى
واذا ما قبح الخطب عقد	من اذا ما عقد المهد وفا
حيث بيت النصر مرفوع العمد	من بنى قيس بن سعد وكفى
وجنى الفضل زكى المغرس	حيث بيت النصر محى الحى
والندى هب الى المغرس	والهوى ظل ظليل خيا
والذى ان عثر الدهر أقال	ها كها ياسبط أنصار العلا
تبهر العين جلاء وصقال	غادة ألبسها الحسن ملا
قول من أنطقه الحب فقال	عارضت لفظا ومعنى وحلى
قلب صب حله عن مكنس	هل درى ظلى الحى ان قد حى
لعبت ريح الصبا بالقبس	فهو فى حر وخفق مثل ما

موشحة ابن سهل التي عارضها لسان الدين

قلب صب حله عن مكنس	هل درى ظلى الحى ان قد نعى
لعبت ريح الصبا بالقبس	فهو فى حر وخفق مثل ما
غررا تسلك فى نهج الغرر	يابدورا أطلعت يوم النوى
منكم الحسن ومن عيني النظر	ما قلبى فى الهوى ذنب سوى
والتذاذى من حبيبي بالفكر	أجتنى اللذات مكاوم الجوى
كالربا بالعارض المنبجس	كلما أشكوه وجدا بسما
وهى من بهجتها فى عرس	اذ يقيم القطر فيها مأتما

بأبي أفنديه من جاف رقيق	غالب لي غالب بالتسؤده
أقحوا أنا عصرت منه رحيق	مارأينا مثل ثغر فضده
وفؤادى سكره ما أن يفريق	أخذت عيناه منه العربده
أ كحل اللحظ شهى العس	فاحم الجمة معسول اللمي
وهو من اعراضه في عبس	وجهه يتلو الضحى مبتسما
لي يجنى الذنب وهو المذنب	أيها السائل عن ذلى لديه
مشرقا للصب فيه مغرب	أخذت شمس الضحى من وجنتيه
وله خد بلحظي مذهب	ذهبت أدمع أجفاني عليه
لاحظته مقلتي في الخلس	يطلع البدر عليه كلما
ذلك الورد على المغترس	ليت شعري أى شيء حرما
غادرتني مقلتاه دفعا	كلما أشكو اليه حرق
أثر النمل على صم الصفا	تركت ألحظه من رمق
لست ألحاه على ما أتلفا	وأنا أشكره فيما بقى
وعذولى نطقه كالخرس	فهو عندي عادل ان ظلما
حل من نفسى محل النفس	ليس لي في الحب حكم بعدما
يلنظي في كل حين ما يشا	منه للنار باحشائي اضطرام
وهي ضر وحريق في الحشا	وهي في خديه برد وسلام
أسد الغاب واهواه رشا	أتقى منه على حكم الغرام
وهو من ألحظه في حرس	قلت لما ان تبدى معلما
اجعل الوصل مقام الخمس	أيها الآخذ قلبي مغنا

وقد عارض هذا الموشح أيضاً بعض متأخري المغاربة فقال :

يا عريب الحى من حى الحى	أنتم عيى وأنتم عرسى
لم يحل عنكم ودادى بعد ما	حلتم لا وحياة الانفس

من عذيري في الذي أحبته	مالك قلبي شديد البرحا
بدرتم أرسلت مقلنته	سهم لحظ لفؤادي جرحا
ان تبدي أو تثني خلته	غصن بان فوقه شمس ضحا
تطلع الشمس عشاء عند ما	تنجلي منه بأبهي ملبس
وترى الليل أضا منهزما	وقرى الصبح أضا في الغلس
يا حياة النفس صل بعد النوى	والها مضني شديد الشف
قد براه السقم حتى ذا الهوى	ككاد أن يفضي به للتلف
آه من ذكر حبيب بالوى	وزمان بالمني لم يسمف
كنت أرجو الطيف يأتي حلما	عائدا يأنس من ذافا يأس
هل يعود الطيف صبا مغرما	سأهرا أجنفانه لم تنفس
همت في اطلال ليلي وأنا	ليس في الاطلال لي من أرب
ما مرادي رامة والمنحنى	لا ولا ليلي وسعدى مطلبي
انما سؤلى وقصدى والمنى	سيد العجم وتاج العرب
أحمد المختار طه من سما	الشريف ابن الشريف الكيس
خاتم الرسل الكريم المنشى	ظاهر الاصل زكي النفس

موشحة لبعض شعراء الأندلس يعرض بها موشحة لسان الدين

جادك الغيث اذا الغيث همي	يا زمان الوصل بالاندلس
عطر الارزاء لما نسما	شمال للصبح عند الغلس
وأنت شمس الضحى تنسخ ما	يقرأ الليل لنا من عبس
طاف بالكاس من الزهر فتى	مولع بالصد عنى مذ فتى
فتن الالباب لما التفتا	واحتسى منه ببعض الشفة
وأنا ما بين حتى ومتى	صده تيه الهوى عن الفتى
وكؤوس الراح بين الندما	أرجت بالعرف أفق المجلس

خمرة صفراء في البلور ما
بادر اللذة واجمع شملها
ذى عيون ناعسات كم لها
وافر الاردا ف عانى حملها
كلما أنزع كاسا قال ما
فابذل الجهد وكن مقتنما
فرص الايام كن منتهزا
ورحاب الانس لج منتجزا
واجن من زهر الهوى محترزا
لا تخف لوماً ويمسم حينما
ما مضى انس ووافى مثل ما
الرياض اذهب ترى بلبلها
بخاود الورد قد كلها
وقدود البان قد قام لها
والربا راحت تحاكي خدما
جيبها زرر بالزهر كما
وجلا الروض لنا أشجاره
وترى في جبيدها نواره
خلع الليل به أطواره
وبقاياد زهت فيه أما
كم عذارى في محيا علمها
حبذا الصبوة أيام الصبا
فاذا أيقظها دهر صبا
جرد الشيب لنا بيض الشبا

أشبه الخان بروض النرجس
بمدام وغسلام مطرب
من فنون السحر ما يلعب في
ناحل الخصر وذامن عجب
أنت بالشارى حياة الانفس
لنفس النفس طيب الانفس
مبتداهها قبل حذف الخبر
قبل أن تمضى كلمح البصر
من جنائيات هجوم الكبر
لاحت اللذات كالختلس
كان ذا الدهر لنا بالحرس
لاشتياق الورد مثل الشكل
دمع طل لاشتياق البلبل
مانع الوصل بحمد الاسل
وعليهن ثياب السندس
زر بالفضة ثوب الاطلس
مائسات فى قباء أخضر
يتلالا كمقود الجوهر
فندا كالصبح باهى المنظر
فى شفاء الغيد حس اللعس
فبدا للغير لا الملتبس
وعيون الشيب فى سهو الوسن
لصروف حد شفرىها وسن
واقفى شرخ شباب وفطن

وغدا الانسان شيخاً هرماً
 فأت اذ مات فيقضى ندماً
 لا تدع عمرك يمضى هدرأ
 وارق بالجهد من السؤل الذرا
 انما الايام أمثال السرى
 ووحوش الانس تسعى مغنا
 ترك الوهم وخاض الظلما
 ليس يحظى بالمنى الا الذى
 كان للراحة كالمتنبذ
 مثل ما قد بات ذا طرف قذى
 فى طلاب العلم حتى علما
 أحمد الناصب فينا علماً
 حل فى مصر وان كان العلا
 ورياض الفضل لما أن علا
 ازدورت أغصانها حتى خلا
 نفرت اذ حل فيها كالسما
 حوله الطلاب كالشهب سما
 أيها الطالب للعلم ائتد
 ان ترم نيل المرجى فاجتهد
 علم من يعمل اكسيد فزد
 والزم الاعتاب وانزل بالحى
 باعتقاد فاز من قد لسا
 مذ خبرت الناس طرا نظرا
 واعتراه لاعج من وجس
 واغتنام الوقت شغل الكيس
 أنت اذ ذاك جبان غافل
 واجتهد والضرع ضخم حافل
 والجريء الشهم ليث باسل
 باردا للاسد المقترس
 وله العزم أضأ كالقبس
 كابد الالهوال حتى ظفرا
 من وراء الظهر أنى ظهرا
 يقطع الليل جميعاً سهرا
 انه يملا بروح القدس
 للتقى فاز به من يأتسى
 قد عفت لما اعتراها فى خلل
 نفع جهل جف منهن البلل
 قاعها من عذب ما يشفى العلل
 وهو بدر بكال مكنى
 قدرها من نوره المقتبس
 ليس الا بابہ ينفعك
 فى اتباع للذى يرفعك
 منه واترك حاسدا يدفعك
 خالع الربة من قول المسى
 نعله والكبر شان الملبس
 لمناٹ الامر فى هذا الزمان

لم أجد الا مقالا صدرا
 غير ما يمليه فانظر لترى
 يبدع النطق لما نظما
 وأتى يخضع جمع العالما
 انما المجد الرفيع المتطى
 يدع المرفوع كما لمهبط
 ناظراً في أمره بالاحوط
 كل من أم حماء قد حمى
 فاذا جرد منه انفصا
 حبذا المغرب قطراً بالسنا
 قطره الشامخ قد اهدى لنا
 كل من فاتته أسباب المنى
 قل لمن يرجو سوى المذكور ما
 لا ولا الناس سواء انما
 لذ بشهم فاز من أمـله
 أقل السؤدد اذ حمـله
 وحماء الامن من أمـله
 بحره الوافر العلم طما
 نال منجه الناس حتى عمما

عن دعا وأخلفت عند العيان
 درر الالفاظ في سبط البيان
 بهت المنطيق مثل الاخرس
 نحو ذا المفرد في الملتبس
 - أروؤس الآساد قسرا مثل ذا
 ثم للنازل يعلـى منفذا
 خافض الطرف على حر القذى
 بحسام العزم هش الملمس
 جامد الصخر بذاك الميس
 فضله يبهـر بدر الافق
 سيدا قد فاق شمس المشرق
 بعـلاه للثريا يرتقى
 ينبت الزهر بأرض اليبس
 رأى من سواهم في هوس
 بنوال فاق سح الهامـل
 وقر فضل مستبين شامل
 بلغ القصد فبشرى الآمل
 كامل الامداد لم يحتبس
 مشرقا والغرب للاندلس

موشحة ابن سناء الملك

كللى ياسحب تيجان الربا بالخلى واجعلى سوارك منعطف الجدول

دور

ياسما فيك وفى الارض نجوم وما كلما اغربت نجما اشرقت انجما
وهى ما تهطل الا بالطلى والدمى

قفلة

فاهطل على قطوف الكرم كي تمتلى وانقلى للذن طعم الشهد والفوفل

دور

تتقد كالكوكب الدرى للمرصد يعتقد بها المجوسى بما يعتقد
فاتد ياساقى الراح بها واعتمد

قفله

واملى حتى ترانى عنك فى معزل قلل فالراح كالعشق ان يزد يقتل

دور

من ظلم فى دولة الحسن اذا ماحكم فالسلام يجول فى باطنه والندم
والقلم يكتب ماسطر فوق القيم

قفله

من ولى فى دولة الحسن ولم يعدل يعزل الالحاظ الرشا الا كحل

دور

الا أريم عن شرب صهباء وعن عشق ريم فالنعيم عيش جديد ومدام قديم
لاأهيم الا بهذين فقم يانديم

قفله

وانهل من اكؤس صورن من صندل أفصل من نكهة العنبر والمندل

دور

هل يعود عيش قطعناه بوادي زرود والجنود في حضرتي تضرب جنكا وعود
والحسود في معزل عنا غدا لا يسود

قفله

عدلى لاتمذلوئى فالهوى لذى ما الخلى في الحب مثل العاشق المبتلى

دور

اسفرت ليتنا بالانس مذ اقرت بشرت بملتقى المحبوب واستبشرت
شمرت فقلت للظماء مذ قصرت

قفله

طولى ياليلة الوصل ولا تنجلي واسبلى سترك فالمحبوب في منزل

دور المديح

يانسيم بلغ سلام المستهام السقيم لكريم طه امام المرسلين العظيم
عن أليم وجدى به حدث وشوق القديم

موشحة لابن زهرى

في كؤس الثغر من ذاك اللعس	راحة الارواح
وتفشى الروض مسكي النفس	عاطر الارواح
وكسا الادواح وشيا مذهبا	يهر الشمسا
عسجد قد حل من فوق الربا	يهيج النفسا
فاتخذ للهوفيه مركبا	تلحق الانسا
منبر الغصن عليه قد جلس	ساجع الادواح
حل السندس خضرا قد لبس	عطفه المرتاح
قم ترى هذا الاصيل شاجبا	حسنه قد راق
ولا ذيال الغصون ساجبا	في حلى الاوراق
ونديم قال لى مخاطبا	قول ذى اشفاق

عادت الشمس بغرب تختلس
 ان أرانا الجو وجها قد عبس
 ووجوه الشرب تغنى عن شمس
 بلحاظ أسكرتنا عن كؤوس
 مظهرات من خفايا في النفوس
 مازمان الانس الا مختلس
 وعيون الشهب تذكى عن حرس
 ما ترى تغسر الوميض باسم
 وثناء الروض هب ناسما
 بث من أزهاره دراهما
 ركب المولى مع الظهر الفرس
 بجنود الله دأبا يحترس
 وجب الشكر علينا والهنا
 فزمان السعد وضاح السنى
 أثمرت فيه العوالى بالمنى
 يجتنى الاسلام منها ما اغترس
 فى ضمير النقع منها قد هجس
 يا اماما بالحسام المنقضى
 ثرك الوضاح مها أمضا
 وديون السعد منه تقتضى
 لك وجه من صباح مقتبس
 وجيل الصفح منه ملتبس
 ها كها تمزج لطفًا بالنسيم
 قد أمت بالبر والصنع الجسيم

هات شمس الراح
 أوقد المصباح
 كلما تجلى
 خمرها أحلى
 سورا تنلى
 فاغتنم يا صاح
 تخضم النصاح
 يظهر البشرى
 عاطرا نشرى
 قائلًا بشرى
 وسقى وارتاح
 ان غدا أوراخ
 بعضنا بعضا
 وجهه الارضى
 نمر اغضبا
 سيفه السفاح
 شهب تلتاح
 نصر الحقبا
 أخجل البرقا
 توسع الحقبا
 بشره وضاح
 منعم صفاح
 كلما هبا
 تشكر الربا

أخجلت من قال في الصبح الوسيم مغرماً صبا
غرد الطير فنبهه من نعس يامسدير الراح
وتعمرى الفجر عن ثوب الغلس وانجلي الاصبح
وله أيضاً

نواسم البستان تنثر سلك الزهر
والطل في الاغصان ينظمه بالجوهر
وراحة الاصبح أضاء منها المشرق تنشرها الارواح
فلا تزال تحفق والزهر زهر فاح لها عيون ترمق
فايقظ الندمان يبصرن ما لم يبصر
جواهر الشبان قد عرضت للمشتري
قدحت لى زندا يأبها البارق أذكرتنى عهدا
اذ الشباب رائق فالشوق لا يهدا ولا الفؤاد الخفاق
وكيف بالسلوان والقلب رهن الفكر
وسحب الهجران تحجب وجه القمر
لولا شمس الكاس يديرها بين الدور وأعرج اليناس
منا على ربع الصدور لكن لها وسواس يغرى بربات الخدور
كم واله هيمان بصبح وجه مسفر
ضياؤه قدبان من تحت ليل مقمر
يامطلع الانوار كم فيك من رأى جميل ونزهة الابصار
ماضرو لتشفى الغليل باروضة الازهار وعرفها يبرى الغليل
قضيبك الفتان يسقى بدمع همر
فلا عيج الاشجان فيض الدموع يجرى
هل فى الهوى ناصر أو هل يجار الهائم لو كان لى زائر
طيف الخيال الحائم ما بت بالساھر ودمع عيني ساجم

والحب ذو عدوان يجهد في ظلم البرى
 وصارم الاجفان مؤيد بالخور
 رحماك في صب أذكرته عهد الصبا بواعث الحب
 قادت اليه الوصبا لم تهف بالقلب ربح الصبا الاهباً
 بليلة الأردن قد ضمخت بالنبر
 يشير غصن البان منها بفضل المثرر
 طيها حمد نغر الملوك المجتبى من يرجع الطود
 من حلمه اذا احتبى قد جرد السعد منه حساماً مذهباً
 فالباس والاحسان والغوث للمستنصر
 تحمله الركبان تحية للنبر
 عصابة الكتاب حق لها الفوز العظيم تختال في اثواب
 حق لها الفخر الجسيم فحسبها الاطناب في الحدو الشكر العميم
 خليفة الرحمن لا زلت سامى المظهر
 يا مورد الظمان ورأس مال المعسر
 خذها على دعوى تزرى على الروص الوسيم جاءت ككاهنوى
 أرق من لدن النسيم قد طارحت شكوى من قال في الليل البهيم
 ليل الهوى يقظان والحب ترب السهر
 والصبر لى خوان والنوم من عيني برى

موشحة لابي حسن المريني

فى نفمة العود والسلافة والروض والنهر والنديم
 أطال من لامن خالافه فظل فى نصحه ملهم

(دور)

دعنى على منهج التصابى ما قام لى العذر بالشباب

ولا تطل في المنى عتابي فلست أصغى الى عتاب
لا ترج ردى الى جواب والكاس تفتقر عن حباب
والغصن يبدى لنا انعطافه اذا هفا فوقه النسيم
والروض أهدي لنا قطافه واختال في برده الرقيم

(دور)

يا حبذا عهدى القديم ومن به همت مسعدى
ريم عن الوصل لا يريم مولع بالتودد
ما تم الا به النسيم طوعا على رغم حسدى
معتدل القد ذو نحافه استقنى طرفه السقيم
ورام طرفى به انتصافه نغد فى خده الكليم

(دور)

غصن الصبا عاطر المقبل أحلى من الامن والامل
ظامى الحشا مفعم المخلخل حلو اللوى ساحر المقل
لكل من رامه توصل لم يخش ردا بما فعل
أشكو فيبدي لى اعترافه ان حاد عن نهجه القويم
لا أعدم الدهر فيه رافه فحق لى فيه أن أهيم

(دور)

لله عصر لنا تقضى بالسد والمنبر البهيج
أرى ادكارى اليه فرضا وشوقه دائما بهيج
فكم خلطنا عليه غمضا وللصبا مسرح أريج
ورد أطلال المنى ارتشافه حتى انقضى شربه الكريم
لله ما أسرع انحرافه وهكذا الدهر لا يديم

(دور)

يا من يحث المطى غربا عرج على حضرة الملوك

وانثر بها ان سفحت غربا من مد مع عاطل سلوك
واسمع الى من أقام صبا واحك صداه لا فض فوك
بلغ سلامي قصر الرصافه وذ كره عهدى القديم
وحى عنى دار الخلافة وقف بها وقفة الغريم

موشحة لابن الوكيل

غدا منادينا	محكما فينا	يقضى علينا الاسى	لولا ثنا سينا
	بحر الهوى يفرق	من فيه جهده عام	
	وناره تحرق	من هم او قد هام	
	وربما تعلق	فتى عليه نام	
قد غير الاجسام	وصير الايام	سوداً وكانت بكم	بيضا لياينا
	يا صاحب النجوى	قف واستمع منى	
	اياك أن تهوى	ان الهوى يضنى	
	لا تقرب البلوى	اسمع وقل عنى	
بجاره مره	خضنا على غره	حينا فقام بها	للنقى نالينا
	من هام بالغيد	لاقى بهمهما	
	بذلت مجهودى	لأحور ألى	
	يهم بالجدود	ورد ما هما	
وعند ما قد جاد	بالوصل أو قد كاد	أضحى التناهى	بديلا من تدانينا
	بحق ما يدينى	وينكمم الا	
	أقررت عيىنى	فتجمعوا الشملا	
	فالمسين بالبين	بفقدهم أبلى	
جدد لنا ما كان	بالاهل والاخوان	ومورد اللوصاف	من تصافينا
	يلجى رقبانت	عن مغرم صب	

لعمري خانت	من غير ماذنب
ما هكذا كانت	عوائد العرب
لا تحسبوا البعدا	يغير العبد
يا نازلا بالبان	بالشفع والوتر
والنمل والفرقان	والليل اذا يسر
وسورة الرحمن	والنحل والحجر
هل حل في الاديان	أن يقتل الظمان
من كان صرف الهوى	والوديس
يا سائل القطر	عرج على الوادي
من ساكني بدر	وقف بهم نادی
عسى صبا تسرى	لمضرم صادي
ان شئت تحيينا	بلغ تحيينا
وافت لنا أيام	كأنها أعوام
وكان لي أعوام	كأنها أيام
تمر كالاحلام	بالوصل لي لودام
والكاس مترعه	خشت مشعشه
فينا الشمول	وغنانا مغنيننا

موشحة للشيخ محي الدين

سرائر الاعيان	لاحت على الاكوان	لناظرين
والعاشق الغيران	من ذاك في حران	ييدي الانين

دور

يقول والوجد	أضناه والبعد	قد حسيه
لما دنا البعد	لم أدر من بعد	من غسيه
وهيم العبد	والواحد الفرد	قد خسيه
في البوح والكتمان	والسر والاعلان	في العالمين
أما هو الديان	يا عابد الاوثان	أنت الضنين

(دور)

كل الهوى صعب	على الذى يشكو	ذل الحجاب
يا من له قلب	لو أنه يذكو	عند الشباب
قد قرب الرب	لكنه أفك	فانو المتاب
وناد يارحمن	يارب يامن	انى حزين
أضانى المجران	ولا حبيب دان	ولا معين

دور

فنسيت بالله	عما تراه العين	من كونه
فى موقف الجاه	وصحت أين الاين	فى بينه
فقال يا ساهى	عاينت قط عين	بمينه
أما ترى عيلان	وقيس أومن كان	فى الغابرين
قالوا باللهوى سلطان	ان حل بالانسان	أفناه دين

دور

كم مرة قلا	أنا الذى أهوى	من هو أنا
فلا أرى حالا	ولا أرى شكوى	الا الفسا
لست كمن مالا	عن الذى يهوى	بعد الجنا
ودان بالسوان	هذا هو البهتان	للعارفين
سلوهم ما كان	عن حضرة الرحمن	والآفكين

دور

دخلت فى بستان	الانس والقرب	كمكنسة
فقام لى الريحان	يختال بالعجب	فى سندسه
أنا هو الانسان	مطيب الصب	فى مجلسه
ياجنان ياجنان	اجن من البستان	الياسمين
وحلل الريحان	بحرمة الرحمن	للعاشقين

موشحة لأحد الشعراء

فتق المسك بكافور الصباح ووشت بالروض اعراف الرياح
فاسقيتها قبل نور الفلق وغناء الورق بين الورق كاحمرار الشمس عند الشفق
نسج المزج عليها حين لاح فلك اللهـــو وشمس الاصطباح
وغزال سامني بالملق وبرا جسمي واذكي حرقى اهيف منذسل سيف الحدق
قصرت عنه أنايب الرماح وثنى الذعر مشاهير الصفاح
صار بالذل فؤادى كلفا وجفون ساحرات وطفا كلما قلت جوى الحب انطفا
أمرض القلب بأجفان صحاح وسبي العقل بجذوم مزاح
يوسف الحسن عذب المبتسم قرى الوجه ليلي اللم عنترى الباس علوى الهمم
أغصنى القد مهضوم الوشاح مادري الوصل صابى السباح
قد بالقدر فؤادى هيفا وسبا عقلى لما انعطفا ليتنه بالوصل أحياء دنفا
مستطار العقل مقصوص الجناح ما عليه فى هواه من جناح
ياعلى أنت نور المقل جد بوصل منك لى يأملى كم أغنيك اذا مالحت لى
طرقت والليل ممدود الجناح مرحباً بالشمس من غير صباح

موشحة لابن التلمساني

قرى مجلودجى الفلس بهر الابصار مذ ظهرا
آمن من شينة الكلف
ذبت من حبيه بالكلف
لم يزل يسعى الى تلقى
بركاب الدل والصلف
آه لولا أعين الحرس نلت منه الوصل مقتدرا

يا أميرا جار مندوليا
 كيف لا ترضى لمن بلياً
 فبشفر منك قد جلياً
 قد حلا طعماً وقد حلياً
 وبما أوثيت من كيس جد فها أبقيت مصطبراً
 بدرتم في الجمال سنى
 ولهذا القبهوه سنى
 قد سباني لذة الوسن
 بمحيلاً باهر حسن
 هو خشني وهو مفترسى فاروعن أعجوبتي خبراً
 لك خد يا أبا الفرج
 زين بالتوريد والضرع
 وحديث عاطر الارج
 كم سبي قلباً بلا حرج
 لوراك الفصين لم يمس أوراك البدر لاستترا
 يا منديبا مهجتي كمدا
 فقت في الحسن البدور مدى
 يا كحيلاً كحله اعتماداً
 عجباً أن تبرى الرمد
 وبسقم الناظرين كسى جفئك السحار وانكسرا
 موشحة عارض بها أبو حيان موشحة ابن التماساني
 عاذلي في الاهيف الآنس لوراه الآن قد عذرا

رشاً قد زانه الحور
 غصن من فوقه قمر
 قمر من سحبه الشعر
 ثغر من فيه أم درر
 جال بين الدر واللعل خرة من ذاقها سكرأ
 رجة بالردف أم كسل
 ريقة بالثغر أم عسل
 وردة بالخد أم خجل
 كحل بالمسین أم كحل
 يالها من أعین نعس جلبت لناظري سهرأ
 مذ نأى عن مقلتي سنى
 ما أذيقا لذة الوسن
 طال ما ألقاه من شجن
 عجباً ضدان فى بدن
 بنؤادى جذوة القبس وبسینی الماء منفجراً
 قد أتانى الله بالفـرج
 اذ دنا منى أبو الفرج
 فر قد حل فى المهج
 كيف لا يخشى من الوهج
 غيره لو صابه نفسى ظنه من حره شررا
 نصب العينين لى شرکا
 فافثنى والقلب قد ملکا
 قمر أضحى له فلكا
 قال لى يوما وقد ضحکا
 أتجى من أرض أندلس نحو مصر تعشق القمرأ

موشحة لابن اللبابة الأندلسي

في نرجس الأحداق وسوسن الاجياد نبت الهوى مغروس بين القنا المياد
 وفي نقا الكافور والمندل الرطب
 والهودج المرزور بالوشى والعصب
 قضب من البلور حمين بالقضب
 نادى بها المهجور من شدة الحب
 أذابت الاشواق روحى على أجساد أعارها الطاوس من ريشه إبراد
 كواعب أتراب تشابهت قدًا
 عضت على العناب بالبرد الاندا
 أوصت بي الاوصاب وأغرقت الوجدا
 وأكثر الاحباب أعدى من الاعداء
 تفتر عن أعلاق لآلى أفراد فيه اللي محروس بألسن الانغماد
 من جوهر الذكرى عطل نحدور الحور
 وقسدد الدرا سلاله المنصور
 جاوز به البحرا واخرق حجاب النور
 وقل له شعرا بفضلك المشهور
 جمعت فى الآفاق مناقب الاضداد فأنت ليث الخيس وأنت بدر الناد
 خرجت محتالا أبغى سنا البرق
 أقطع أميالا غربا الى شرق
 مؤملا حالا يكون من وفقى
 فقال من قالا وفاه بالصدق
 دمع قطعك الآفاق يأبها المرتاد واقصد الى باديس خير بنى حماد
 يأمن رجال الطلا وأمل التعريس

ان شئت أن تحلى بطائل التأيس
 لا تعتمد الا على علا باديس
 من فوقه أعلا قدراً من البرجيس
 مواطن الارزاق أولئك الامجاد فاحطط رحال العيس وانفض بقاء الزاد

موشحة لأبي حيان الغرناطي

ان كان ليل داج وخاننا الاصباح
 سلافة تبسو فنورها الوهاج يفنى عن المصباح
 مزاجها شهد كالسكوكب الازهر
 يا حبذا الورد وعرفها عنبر
 قلبي بها قد هاج فإيراني صاح عن ذلك المنهاج وعن هوى ياصباح
 وبى رشا أهيف قد لج في بعدى
 بدر فلا يخسف منه سنا الخلد
 بلحظه المرهف يسطو على الاسد
 كسطوة الحجاج فى الناس والسفاح فإترى من ناج من لحظه السفاح
 علل بالمسك قلب رشا أحور
 منع المسك ذى مبسم أعطر
 رياه كالسك وريقه سكر
 غصن على رجراج طاعت له الارواح فخبذا الاراج ان هبت الارواح
 مهلا أبا القاسم على أبى حيان
 ما ان له عاصم من لحظك الفتان
 وهجر كالدائم قد طال بالهيمان
 فدمعه أمواج وسره قد لاح لكنه ماعاج ولا أطاع اللاح
 يارب ذى بهتان يمدل فى الراح
 وفى هوى الغزلان دافعت بالراح

وقلت لاسلوان عن ذاك يالاح
سبع الوجوه والتاج هي منية الافراح
فاختر لي يازجاج قعمال وزوج أقداح

موشحة صفى الدين الحلبي

شق جيب الليل عن نحر الصباح	أيها الساقون
وبدا للطل في جيد الاقحاح	لؤلؤ مكنون
ودعانا للذيذ الاصطبـاح	طائل ميمون
فاخضب المبزل من نحر الدنان	بدم الزرجون
تلقى دمها حور الجنسان	في صحاف جون
فاسقنيها قهوة تكسو الكؤوس	بسنا الانوار
وتميت العقل اذ تجي النفوس	راحة الاسرار
بنت كرم عتقت عند المجوس	في بيوت النار
غرست كرمها بين القيان	يد افلاطون
وبماء الصرح قد كان يطان	دنها المخزون
أخبرتنا عن بنى المصر القديم	خبراً مأثور
وروت يوم مناجاة الكليم	كيف دك الطور
ولماذا اتخذت أهل الرقيم	كهفها المذكور
وندا يونس عند الامتحان	بالتقام النون
وبنا نوح غداة الطوفان	فلكه المشحون
مذجلا شمس الضحى بدر التمام	في الليالى السود
وغدا يصـبـغ أذيال الظلام	بدم العنقود
قلت يا بشر اكم هذا غلام	وفتاة رود
مزجا الكلس وقاما بستيان	في حمى جيرون
فبذلنا في إقناني والقيان	ماحوى قارون
نال فعل الخمر من ذات الخمار	عند شرب الراح

فغدت تستر من فرط الخمار	وجهها الوضاح
خلتها اذ لم تدع بالاختمار	غير صلت لاح
قمرا تم لسبع وثمان	فى الليلالى الجون
قد رته الشمس فى حال القران	فهو كالمرجون
افعم الزاهر بالنفخ الممدار	نابه المحصور
فغدا وهو لاموات الخمار	مثل نفخ الصور
أو كما عاش الورى بعد البوار	بندى المنصور
ملك هذب أخلاق الزمان	عدله المسنون
وأعاد الناس فى ظل الامان	عضبه المسنون
ملك انجد طلاب الندى	غاية الانجساد
متلف ان جال آجال العدى	واللهى ان جاد
من نبى ارتق اعلام الهدى	سادة انجاد
مهد الارضين بالعدل فكان	أمنها مضمون
ذبيها والشاة ترعى فى مكان	غدره مأمون
بازل الاموال من قبل السؤال	بأكف الجبود
مارجاه آمل الا ونال	غاية المقصود
فاذا ما أمه راجى النوال	جاد بالموجود
يهب الولدان والخور الحسان	بكرها والعون
وسواه ان دعاه ذو لسان	يمنع الماعون
يامليكا لبنى الدهر ملك	فشرى الاحرار
ملك أنت عظيم أم ملك	ساطع الانوار
بالذى تختاره دار الفلك	وجرى المقدار
مذرأى بأسك سلطان الاوان	وهو كالحزون
حاول النصر كموسى فاستعان	بك يهارون

وقد شاع فن التوشيح حتى أصبح من بذع الشعر والبلاغة . وانتشر في جميع المجالس على ألسنة الخاصة والعامة ، ثم أمعن الشعراء في هذا النوع حتى تسربت فيه اللغة العامية ، ودبت في جسمه ديباً ، وغلبته على عريته الفصحى وحتى خفيت معالم اللغة أو كادت ، وغلب ذلك على الشعر ، وسموا هذا النوع الجديد «زجلاً». ونسج العامة على منواله واشتهر بقوله كثير من الشعراء . ذكر جملة منهم ابن خلدون في مقدمته .

وقد اكتفينا بالإشارة الى هذا الشعر العامي وان كان جديراً بالعناية، لاحتوائه على صور النفوس العامة وبعض الآراء الاجتماعية . وأرجأنا تفصيل الكلام فيه لفرصة أخرى

المصادر الأدبية والتاريخية للاندلس

- فتح الطيب المقرئ (طبع مصر وليدن)
المعجب في تلخيص أخبار المغرب للمراكشي (طبع ليدن)
البيان المغرب في أخبار المغرب لابن عذارى (طبع ليدن)
الاحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب (طبع مصر)
أخبار مجموعة في فتح الاندلس وذكر امراءها والحروب الواقعة بينهم
(طبع مجريط)
الجزء الثاني والعشرين من كتاب نهاية الارب في فنون الادب للنويري وفيه
أخبار ملوك الاندلس من العلويين والامويين ومن ملك بعد بني أمية الى
حين انقراض الدولة العبادية (طبع غرناطة)
الجزء الرابع من تاريخ ابن خلدون (طبع مصر)
مقدمة ابن خلدون
تاريخ مسلمى اسبانيا لدوزى (طبع باريز .)
Dozy, Histoire des Musulmans d'Espagne, Paris.
تاريخ العرب والمغاربة في اسبانيا والبرتغال لكوند (طبع باريز)
J. Cond. Histoire de la domination des Arabes et des Maures
en Espagne et en Portugal.
تاريخ العرب العام نسيديو (طبع باريز)
Seddillot. Histoire générale des Arabes, Paris.
تاريخ العرب لهوار (طبع باريز)
C. Huart. Histoire des Arabes, Paris.
Recherche sur l'histoire et la littérature arabe en Espagne.
2 Volumes Par Dozy.
Histoire des Arabes et des Maures d'Espagne. Par Louis
Viardot. 2 Vols. Paris 1851.
Encyclopédie de l'Islam.
ديوان ابن قزمان (نسخة مأخوذة بالفتوغرافية بدار الكتب المصرية عن
نسخة في مكتبة بطرسبورغ)

بحث في حياة ابن زيدون لاوغست كور (طبع الجزائر)
Auguste Cour. Ibn Zaidoun. Alger.

طبقات الامم لصاعد الاندلسي (طبع بيروت ومصر)
قلائد العقيان للفتح بن خاقان (طبع مصر)
مطمح الانفس للفتح بن خاقان (طبع الاستانة)
الذخيرة في شعراء الجزيرة لابن بسام (مخطوط) منه جزآن في دار الكتب
المصرية والجزء الثالث في مكتبة برلين والرابع مفقود
ديوان ابن حمديس الصقلي (طبع رومة)
الحلة السيرة لابن الابار (طبع ليدن)

المكتبة العربية الاندلسية وهي الصلة لابن بشكوال في جزئين وبغية
الملتبس للضبي والمعجم لابن الابار والتكملة لكتاب الصلة لابن الابار وتكملة
التكملة لابن الابار (طبع بجريط) وتاريخ علماء الاندلس لابن الفرضي وفهرست
مارواه عن شيوخي من الدواوين في ضروب العلم وانواع المعارف أبو بكر بن خليفة
الاموي الاشبيلي نشرها المستشرقان الاسبانيان كوديرا ورييرا (طبع بجريط)
F. Codera et J. Ribera Bibliotheca Arabico Hispana.

المكتبة العربية الصقلية لميشيل آماري (طبع ليسيك)
M. Amari Bibliotheca Arabo-Sicula (Leipzig).

قصيدة ابن عبدون وشرحها لابن بدرون (طبع ليدن)
ترجمة ابن عباد (طبع ليدن)
دار الطراز في الموشحات لابن سناء الملك (من مخطوطات دار الكتب
المصرية)

تاريخ الادب العربي تأليف نيكلسون
A Literary History of the Arabs By Nicholson.

الفهرس

- ٥ تمهيد - فيه الكلام على الأدب وصلته بالاجتماع والكلام على بلاغة العرب في الأندلس والغرض من هذا الكتاب.
- ١١ العرب في الأندلس - دخول العرب بلاد الأندلس واختلاطهم بسكان هذه البلاد - الخلاف بين القبائل العربية هناك - طارق بن زياد وخطبته - الدول الإسلامية وعصورها - عصور الأدب والبلاغة.
- ١٩ الحياة العقلية - تكوين الحياة العقلية والاهتمام بالعلوم - العناية بالكتب وجمعها - العناية بنشر التعليم وإنشاء المدارس - التأليف والمؤلفون - انتشار اللغة العربية واشتغال غير العرب بها.
- ٢٧ الفنون في الأندلس - عناية العرب بالفنون - النقش والتصوير والعمارة - أخذ أهل أوروبا العلوم والفنون عن العرب في الأندلس وكلام مؤرخيهم في ذلك - الترف وأبهة الملك.
- ٣٣ الغناء ومجالس الأدب - العناية بالغناء والكلام على زرياب المغني - مجالس اللهو والرقص وأغاني العشاق وأثر النساء في ذلك - مجالس الأدب والاقبال عليها وإنشاد الشعر فيها.
- ٤١ النشر في الأندلس - أحوال النشر في الأندلس وأنواعه ونماذج من أساليبه المختلفة.
- ٤٧ الشعر في الأندلس - التشابه بينه وبين الشعر في المشرق - ابتكار شعراء أهل الأندلس في الوصف وغيره وأمثلة ذلك.

- ٥٧ أبو عامر بن شهيد - ترجمته وشعره ونثره وما يمتاز به من الأساليب القصصية - قطعة من رسالته المسماة بالتوابع والزوابع - آراؤه في النقد الأدبي.
- ٧٥ الوزير ابن زيدون - حياته وصلته بابن جهور ثم موته.
- ٧٩ شعر ابن زيدون وأساليبه.
- ٨٩ الغزل في شعر ابن زيدون وصلته بولادة بنت المستكفي.
- ٩٧ نثر ابن زيدون والكلام على رسالتيه الجديدة والهزلية.
- ١٠٧ أحمد بن عبد ربه.
- ١١١ ابن دراج القسطلي.
- ١١٩ المعتمد بن عباد.
- ١٢٩ الوزير ابن عمار.
- ١٣٩ عبد الجليل بن وهب.
- ١٤٧ ابن حمديس الصقلي.
- ١٦٧ ابن برد الأصغر وأسلوبه القصصي في نثره ورسالته في الأزاهر.
- ١٧٩ الأعمى التطيلي.
- ١٨٩ محمد بن هاني وأسلوبه الشعري والكلام على جمال الشعر.
- ١٩٥ ابن الحداد وأسلوبه الشعري في وصف الأديرة والقساوسة وعبادة النصارى.
- ٢١٣ ابن خفاجة الأندلسي والجمال وأثره في الشعر.
- ٢٢٥ ابن سهل الاسرائيلي.
- ٢٣٥ الفتح بن خاقان.
- ٢٤١ ترجمة لسان الدين بن الخطيب.

- ٢٤٧ الموشحات وكيف نشأت - الأنواع التي حدثت في الشعر - كلام
ابن خلدون في الموشحات - الميل إلى الخروج من طريقة الشعر
القديم - كلام ابن سناء الملك عن الموشحات في كتابه "دار
الطراز" - جملة من الموشحات لأشهر الشعراء.
- ٣٠٣ المصادر الأدبية والتاريخية للأندلس
- ٣٠٥ الفهرس

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف للطباعة والنشر
بسوسة - الجمهورية التونسية

دراسات أدبية صدرت عن دار المعارف للطباعة والنشر

- أوهم العقاد في العبقرية محمد البدوي
- الأرض والصدى محمد البدوي
- التجربة الوجودية في "اليوم الأخير" ابراهيم الحسايري
- التيارات الأدبية في تونس المعاصرة البشير بن سلامة
- الثورة في شعر محمود درويش ياسين أحمد فاعور
- جبران بين المصلوب والمجنون جلال المخ
- الشابي وتاج الشوك جلال المخ
- دراسات في الأدب والنقد أبو القاسم كرو
- السخرية في أدب إميل حبيبي ياسين أحمد فاعور
- الشعر العبري والصهيوني المعاصر محمد صالح العياري
- الفن الروائي عند غادة السمان عبد العزيز شبيل
- في الأدب التونسي المعاصر أبو زيان السعدي
- لغة وأسلوب طه حسين في كتاب الأيام د. عطية عامر
- أزمة الذات في مقامات الهمذاني المنصف شعرانة
- قراءات في الشعر التونسي عبد العزيز شبيل
- طائر الفنيق دراسة تحليلية
- لرواية الليلة الطويلة محمد البدوي
- أبو العلاء المعري من التمرد إلى العدمية عبيد البريكي
- شاعر وثورة حسن فتح الباب

ISBN : 9973-16-565-9



تم سحب ثلاثة الاف نسخة من هذا الكتاب، الطبعة الأولى 1998

الثلث : 5,000 د.ت